كليلة ودمنة

لبيدبا الفيلسوف الهندي ونقله إلى العربية

عبد الله ابن المقفّع

المولود في حور في فارس عام 724م والمتوفي عام 759م

مقدمة كليلة ودمنة لعلي بن الشاه الفارسي

أما بعد فهذه مقدمة نذكر فيها السبب الذي من أجله عمل بيدبا الفيلسوف الهندي رأس البراهمة لدبشليم ملك الهند كتابه الذي سماه كليلة ودمنة وجعله على ألسن البهائم والطير صيانة لغرضه الأقصى فيه من العوامّ، وضنّاً بما ضمنه عن الطّغام، وتنزيهاً للحكمة وفنونها ومحاسنها وعيونها، إذ هي للفيلسوف مندوحة، ولخاطره مفتوحتة، ولمحبيها تثقيف ولطالبيها تشريف، ونذكر السبب الذي من أجله أنفذ كسرى أنو شروان ملك الفرس برزويه رأس الأطباء إلى بلاد الهند لأجل كتاب كليلة ودمنة وما كان من تلطف برزويه عند دخوله إلى الهند حتى وقع على الرجل الذي استنسخه له سراً من خزانة الملك ليلاً مع ما وجد من كتب علماء الهند، ويجيئه بالكتاب مع الشطرنج التامة التي كانت عشرة في عشرة. ونذكر مقدار فضيلته ونخص أهل اقتنائه على الالتفات إلى دراسته والمداومة على فراسته وفيما ضمّن من فوائده ومنافعه ويرى أنها أفضل من كل لذة صرفت إليها همته والنظر إلى باطن كلامه وأنه إن لم يكن كذلك لم يحصل على الغاية منه. ونذكر حضور برزويه وقراءة الكتاب جهراً والسبب الذي من أجله وضع بزرجمهر ابن البختكان مقدمة في أصل الكتاب وهو باب مفردٌ سماه باب برزويه المتطبب، ويذكر فيه شأن برزويه من أول أمره وأوان مولده إلى أن بلغ التأديب ورغب في التدين وأحب الحكمة وتفنن في أنانها وجعله قبل باب الأسد والثور الذي هو أول الكتاب.

كتاب كليلة ودمنة

قال علي بن الشاه الفارسي: كان السبب الذي من أجله وضع بيدبا الفيلسوف الهندي لدبشليم ملك الهند كتاب كليلة ودمنة أن الإسكندر ذا القرنين الرومي لما انتصر على الملوك الذين كانوا بناحية المغرب سار يريد ملوك المشرق من فرس وغيرهم. فلم يزل يحارب من نازعه ويواقع من واقعه ويسالم من وادعه من ملوك الفرس وهم الطبقة الأولى حتى ظهر عليهم وقهر من ناوأه وتغلب على من عاداه فتفرّقوا طرائق، وتمزقوا خرائق، فتوجه نحو بلاد الصين فبدأ بملك الهند ليدعوه إلى طاعته والدخول في ملته وولايته. وكان على الهند في ذلك الزمان ملك ذو سطوة وبأس ومنعة ومراس يقال له فُورَك. فلما بلغه إقبال ذي القرنين نحوه تأهب في التألب عليه، وجمع له العدة في أسرع مدة من الفيلة المفرزة للحروب، والسباع المضرّاة للوثوب مع الخيل المسوّمة، والرماح المقوّمة، والسيوف القواطع، والحراب اللوامع.

فلما قرب ذو القرنين من فورك الهندي وبلغه ما قد أعدّ له من الخيل، التي كأنها قطع الليل، مما لم يلقه بمثله أحد ممن كان يقصده من الملوك الذي كانوا في الأقاليم تخوّف من تقصير يقع به إن عجّل المبارزة.

وكان ذو القرنين رجلاً ذا حيل ومكايد مع حسن تدبير وتجربة فرأى بعد إعمال الحيلة التأهب والترفق. فاحتفر خندقاً على عسكره وأقام بمكانه لاستنباط الحيلة والتدبير في أمره وكيف ينبغي الإيقاع بهذا الملك. فاستدعى بالمنجمين وأمرهم باختيار يوم ووقت تكون له فيه سعادة لملاقاة ملك الهند والنصرة عليه. فاشتغلوا بذلك. وكان ذو القرنين لا يمر بمدينة إلا أخذ المشهورين من صناعها بالحذق من كل صنف. فنتجت له همته ودلته فطنته أن يتقدم إلى الصناع الذين معه بأن يصنعوا له خيلاً من نحاس مجوفة عليها تماثيل من الرجال على بكرٍ تجري به وإذا دُفعت مرت سراعا. وأمر إذا فرغوا منها أن تحشى أجوافها بالنفط والكبريت وأن يلبس الفارس آلة الحرب ويقدم ذلك أمام الصف في القلب وقت ما يلتقي الجمعان لتضرم فيها النيران. فإن الفيلة إذا ألقت خراطيمها على الفرسان وهي حامية جلفت. وأوعز إلى الصنّاع بالتشمير والفراغ منها. فجدوا في ذلك وعجلوا.

وقرب أيضا اختيار المنجمين لليوم. فأعاد ذو القرنين رسله إلى فورَك ملك الهند يدعوه إلى طاعته والإذعان لدولته. فأجاب جواب مُصِرّ على مخالفته مقيم على محاربته.

فلما رأى ذو القرنين عزيمته سار إليه بأُهبتِه وقدّم فورك الفيلة أمامه ودفعت الرجال تلك الخيل النحاس وعليها التماثيل كالفرسان فأقبلت الفيلة نحوها وألقت خراطيمها عليها. فلما أحست بالحرارة ألقت من كان عليها من الرجالة المقاتلة وداستهم تحت أرجلها ومضت مهرولة هاربة لا تلوي على شيء ولا تمر بأحد إلا وطئته. وتقطّع فورك وجمْعه وتبعهم أصحاب الإسكندر وأثخنوا فيهم الجراح. وصاح الإسكندر: يا ملك الهند ابرز إليّ وابق على عدتك وعيالك ولا تحملهم على الفناء. فإنه ليس من السياسة أن يرمي الملك عدته في المهالك المتلفة، والمواضع المجحفة، بل يقيهم بماله ويدفع عنهم بنفسه. فابرز إليّ ودع الجند فأينا قهر صاحبه فهو الأسعد.

فلما سمع فورك من ذي القرنين هذا الكلام دعته نفسه إلى ملاقاته طمعاً فيه فسارع إليه وظن ذلك فرصة. فبرز إليه الإسكندر فتجالدا على ظهرَيْ فرسهما ساعات من النهار ليس يلقى أحدهما من صاحبه فرصة ولم

يزالا يتعاركان. فلما أعيا الإسكندر أمر فورك ولم يجد له فرصة ولا حيلة أوقع بعسكره صيحة عظيمة ارتجّت لها الأرض والعساكر. فالتفت فورك عندما سمع الزعفة وظنها مكيدة وقعت في عسكره فعاجله ذو القرنين بضربة أمالته عن سرجه وأتبعها بأخرى فوقع إلى الأرض. فلما رأى الجند ما نزل بهم وما صار إليه ملكهم حملوا على الإسكندر فقاتلوه قتالاً شديداً أحبوا معه الموت.

فوعدهم من نفسه بالإحسان ومنحه الله أكتافهم. فاستولى على بلادهم وملّك عليهم رجلاً من ثقاته وأقام بالهند حتى استوثق له ما يريده من أمورهم واتفاق كلمتهم. ثم انصرف من الهند وخلّف ذلك الرجل عليهم ومضى متوجهاً نحو ما قصد له.

فلما بعد ذو القرنين عن الهند بجيوشه تغير الهنود عما كانوا عليه من طاعة الرجل الذي خلفه عليهم وقالوا: ليس يصلح للسياسة ولا ترضى الخاصة ولا العامة أن يُملّكوا عليهم رجلا ليس منهم ولا من أهل بيوتهم. فإنه لا يزال يستسفلهم. ثم أجمعوا على أن يُملّكوا عليهم رجلا من أولاد ملوكهم فملّكوا عليهم ملكاً يقال له دبشليم وخلعوا الرجل الذي ملّكه عليهم الإسكندر.

فلما استقر لهذا الملك واستوثق له الأمر طغى وعتى وتجبر وتكبر وجعل يغزو من حوله من الملوك. وكان مع ذلك مظفّراً منصوراً فهابته الملوك وخافته الرعيّة. فلما رأى ما هو عليه من الملك والسطوة عبث بالرعية واستصغر أمرهم وأساء السيرة فيهم وكان لا يرتقي حاله إلا ازداد عتواً ومكث على ذلك برهة من دهره.

وكان في زمانه رجل فيلسوف من البراهمة فاضل حكيم يعرف بفضله ويرجع إليه في قوله يقال له بيدبا الفيلسوف. فلما رأى ما عليه الملك من ظلم الرعية فكّر في وجه الحيلة في صرفه عما هو عليه وردّه إلى العدل والإنصاف، فجمع لذلك تلامذته وقال: هل تعلمون ما أريد أن أشاوركم فيه؟ قالوا: لا. قال: اعلموا أني أجلت الفكرة، وأطلت العبرة في دبشليم الملك وما هو عليه من الخروج عن العدل ولزوم الشرور ورداءة السيرة وسوء عشيرته مع الرعية. وإننا نروّض أنفسنا لمثل هذه الأمور إذا ظهرت من الملوك لنرُدّهم إلى فعل الخير ولزوم العدل. ومتى أغفلنا ذلك وأهملناه لزمنا من وقوع المكروه بنا وبلوغ المحذور إلينا ألمُ الجهّال وبلغ إليهم أننا كنا في أنفسهم أجهل منهم وفي عيونهم أقل منهم.

وليس الرأي عنديَ الجلاء عن المواطن وليس يسعنا في الحكمة أن نبقيَ الملك على ما هو عليه من رداءة السيرة وسوء الطريقة. ولا يمكننا مجاهدته بغير أسنتنا. ولو ذهبنا لنستعين عليه بغيرنا لما تهيّأت لنا معاودته ولو أحس منها مخالفتنا وإنكارنا لسوء سريرته لكان في ذلك بوارنا. وقد تعلمون أن مجاورة الكلب والسبع والحية والثور للوثوب على طِيبِ الوطن ونضارة العيش تغريرٌ بالنفس، وأن الفيلسوف لخليق أن تكون همته إلى ما يحفظ به نفسه من نوازل المكروه ولواحق المحذور ويدفع المَخوف لاجتلاب المحبوب. وقد كنت أسمع أن فيلسوفاً كتب إلى تلميذ له يقول له: إن المجاورة للرجال السوء والمصاحبة لهم كراكب البحر إن سَلِم من الغرق لن يسلم من الخوف. فإذا هو أورد نفسه موارد الهلكات ومصادر المَخوفات عُدّ من البهائم التي لا أنفس لها لأن الحيوان البهيميّ يقد خصّ في طبائعه بمعرفة ما يكتسب فيه النفع ويجتنب المكروه. وذلك أن الحيوانات لم تورد بأنفسها مورداً فيه مهلكها وأنها متى أشرفت على موردٍ مهلك لها مالت بطبائعها التي ركّبت فيها وتباعدت عنه شحّاً بأنفسها. وقد جمعتكم لهذا الأمر لأنكم أسرتي وموضع سرّي وبكم أعتضد وعليكم أعتمد. فإن الوحيد في نفسه والمنفرد برأيه حيثما كان هو ضائع ولا ناصر له.

والمثل في ذلك أن قنبرة اتخذت أدحية وعششت فيها وباضت على طريق الفيل. وكان للفيل مشربٌ يتردد إليه فمرّ ذات يوم على عادته ليَردَ مورده فوطئ عشّ القنبرة فهشم بيضها. فلما نظرت ما ساءها علمت أن ذلك من الفيل فطارت حتى وقعت على رأسه باكية. وقالت له: أيها الملك لم هشمت بيضي وقتلت أفراخي؟ أفعلت استضعافاً منك وقلّة لي واحتقاراً لأمري؟ فقال الفيل: هو الذي حملني على ذلك. فتركته وانصرفت إلى جماعة من الطيور فشكت إليهن ما نالها من الفيل. فقلن: وما عسى أن نبلغ منه ونحن طير ضعاف. فقالت للعقائق والغربان: أحب منكن أن تنصرفن معي إليه فتفقأن عينيه فإني بعد ذلك أحتال عليه بحيلة أخرى. فأجبنها إلى ذلك ومضين إلى الفيل فلم يزلن ينقرن عينيه حتى ذهبن بهما وبقي لا يهتدي إلى طريق مطعمه ومشربه إلا ما يقمّه من موضعه.

فلما عرفت القنبرة ذلك منه جاءت إلى غدير فيه ضفادع كثيرة فشكت إليهن ما نالها من الفيل فقلن لها: ما حيلتنا نحن في عظم الفيل وأنى نبلغ منه؟ فقالت: أريد أن توافين معي هويّة تقرب منه فتنقنق وتضججن بها فإنه إذا سمع أصواتكن لم يشك في الماء فيهوي فيها. فأجابتها الضفادع إلى ذلك واجتمعن في الهوية ونقنقن

فسمع الفيل نقيقهنّ وقد أجهده العطش، فأقبل حتى وقع في الهوية فارتطم فيها. وجاءت القنبرة ترفرف على رأسه فتقول: أيها الطاغي المغترّ بقوّتك المحتقر لأمري، كيف رأيت عظيم حيلتي في صغر جثتي عند عظيم جثتك وصِغَر همّتك؟

فليُشر كل واحد منكم بما يسنح له من الرأي. فقالوا بأجمعهم: أيها الفيلسوف الفاضل الحكيم العادل، أنت المقدّم فيمنا والمفضّل علينا، فما عسى أن يكون مبلغ رأينا عند رأيك وفهمنا من فهمك ونحن نعلم أن السباحة في الماء مع التمساح تغرير والذنب فيه لمن دخل عليه في موضعه. والذي يستخرج السم من ناب الحية فيجرّبه على نفسه فليس الذنب للحية. ومن دخل على الأسد في غابته لم يأمن وثبته. وهذا الملك لم تؤدّبه التجارب ولم تقرّعه النوائب ولسنا نأمن عليك وعلى أنفسنا من سورته ومبادرته بسطوته متى لقيته بغير ما تحب مما هو عليه من همته.

فقال بيدبا: لعمري لقد قلتم فأحسنتم وأجبتم فأبلغتم لكن ذا الرأي الحازم لا بد له أن يشاور من هو دونه أو فوقه في المنزلة. والرأي الفرد لا يُكتفى به في الخاصة ولا ينتفع به في العامة. وقد صحّ عزمي على لقاء الملك دبشليم، وقد سمعت مقالتكم وبانت ليه نصيحتكم والإشفاق عليّ وعلى أنفسكم. غير أني قد رأيت رأياً وعزمت عزماً فستعرفون نتيجته عند لقاء الملك ومحاورتي إياه، فإذا اتصل بكم خروجي من عنده اجتمعوا إليّ.

ثم إن بيدبا إذن لأصحابه في الانصراف فقاموا بين يديه يدعون له بالسلامة، واختار يوماً للدخول على الملك دبشليم. حتى إذا كان اليوم المختار ألقى عليه مسوحه، وهو لباس البراهمة، وجاء فسأل عن صاحب إذن الملك فأُرشد إليه فأتاه وسلّم عليه وأعلمه أنه رجل قصد الملك في أمر له فيه النصيحة. فدخل فاستأذن له على الملك وكان في ذلك اليوم فارغاً غير مشغول. فأذن له فدخل ووقف بين يديه وكفّر وسجد ثم استوى قائماً وسكت فلم يتكلّم بشيء.

ففكر الملك دبشليم في سكوته وقال: إن هذا الفيلسوف لم يقصدنا إلا لأحد أمرين: إما ليلتمس منا شيئاً يصلح به حاله أو أمر لحقه فلم يكن له به طاقة ولا وجد عليه مستصرخاً فاعتمصم بنا كي يكون له أبلغ نكاية وأشد عقوبة على ضده. ثم قال: وبعد فليس هذه الحالة من شرط الفيلسوف لأنه وإن كانت الملوك لها فضل في مملكتها فإن الحكماء لهم فضل في حكمتهم أعظم من الملوك، لأن الحكماء أغنياء عن الملوك بالعلم وليس الملوك بأغنياء عن الحكماء بالمال. وقد وجدت العقل والحياء أحق متآلفين لا يفترقان. ومتى فُقِد أحدهما لم يوجد الآخر، كالمتصادقين من الناس وغيرهم إن عَدِم أحدهما صاحبه لم تطب نفس الآخر بالبقاء بعده تأسفاً عليه. ومن لم يستحي من الحكماء ويكرمهم ويعرف فضلهم ويصرفهم عن مواقف الذّلة وينزّههم عن المواطن الرّذلة كان ممن حرم عقله وخسر حياته وظلم الحكماء في حقوقهم وعدّ من الجهّال.

ثم رفع طرفه إلى بيدبا فقال له: إني أنظرك ساكتاً، لا تعبّر عن حاجتك ولا تذكر بغيتك لعلمتُ أن الذي أسكتك إنما هو بليّةٌ ساورتك أو حيلة أدركتك وتبيّنتُ ذلك في طول وقوفك وقلت: لم يكن بيدبا ليطرقنا من غير عادة إلا لأمري حرّكه، وإنه لمن أفضل زماننا ولا سألته عن سبب دخوله إلينا فإنه لو كان شيء يلتمس فيه الاعتزاز بنا من ضيمٍ ناله كنت أول من أخذ بيده وسارع إلى تشريفه وأولاه بلوغ مراده. وإن كانت بغيته عرضاً من عروض الدنيا أمرت بإرضائه من ذلك بما يحب. وإن يكن شيء من أمر الملك ما لا ينبغي للملوك أن يبذلوه من أنفسهم ولا ينقادوا إليه نظرت مقدار عقوبته عليه. على أنه لم يكن ليحضرني على إدخال نفسه في باب مسألة الملوك وإن كان شيء من أمور الرعية يقصد به صرف عنايتي إليه نظرت ما هو. فإن الحكيم لا يخبر إلا بخير والجاهل يشير بضده. وإني قد فسخت لك الكلام فقل ما بدا لك.

فلما سمع بيدبا كلام الملك أفرح روعه وسرّي عنه ما كان وقع في نفسه من الخوف فكفّر له وسجد ثم قام بين يديه وقال: إن أول ما أقول أن أسأل إله بقاء الملك على الأبد، ودوام ملكه على الأمد، فقد جعل في مقامي هذا شرفاً لي على من يأتي بعدي من العلماء وذكراً باقياً على الدهور عند الحكماء إذ أقبل الملك عليّ بوجهه وعطف عليّ بكرمه. والأمر الذي حملني على الدخول إلى الملك ودعاني إلى التعرض لكلامه المخاطرة بالإقدام على نصيحته التي اختصصتُهُ بها دون غيره. وسيعلم من يتصل به ذلك أني لم أقعد عن غاية فيما يجب للملوك على الحكماء. فإن فسح في كلامي ورعاه عني، فهو حقيق بما يراه في ذلك. وإن ألقاه، فقد بلّغت ما يجب عليّ وخرجت عليّ من لوم يلحقني.

فقال الملك: يا بيدبا تكلم فإني مصغ إليك وسامعٌ منك ما تقول، فقل ما عندك لأجازيك عليه بما أنت أهله.

فقال بيدبا: أيها الملك إني وجدت الأمور التي يختص بها الإنسان من بين سائر الحيوان أربعةً وفيها جماع كل ما في العالم، وهي الحكمة والعفّة والعقل والعدل. فالعلم والأدب والرويّة داخلة في باب الحكمة. والحلم والصبر والرفق والوقار داخلة في باب العقل. والحياء والكرم والصيانة والأنفة داخلة في باب العفة. والصدق والمراقبة والإحسان وحسن الخلق داخلة في باب العدل. فهذه هي المحاسن، وأضدادها هي المساوئ. فهي إن كملت في واحد لم تخرجه الزيادة في نعمته إلى سوء حظٍّ في دنياه أو إلى نقص من عقباه، ولم يتأسف على ما لم يُغنِ التوفيق ببقائه، ولم يحزنه ما تجري به المقادير في ملكه، ولم يندهش عند مكروه يفدحُهُ. والحكمة كنز لا يفنى مع الإنفاق، وذخيرةٌ لا يضرب لها بالأملاق، وحلةٌ لا تخلق جِدّتها، ولذة لا تتصرّم مدتها. إن كنت عند مقامي بين يدي الملك أمسكت عند ابتدائه فإن ذلك لم يكن مني إلا لهيبة منه وإجلال. ولعمري إن الملوك لأهل لأن يُهابوا ولا سيما من هو في المنزلة التي حلّ فيها الملك عن منازل الملوك قبله.

وقد قالت الحكماء: الزم السكوت فإن فيه السلامة، وتجنب الكلام الفارغ فإن عاقبته ندامة. وحُكي أن أربعة من الحكماء ضمّهم مجلس ملك فقال لهم: ليتكلم كل واحد منكم بكلام يكون أصلا للأدب. فقال الأول: أفضل حلية العلماء السكوت. وقال الثاني: أنفع الأشياء أن لا يتكلم الإنسان حتى يعرف قدر منزلته من عقله. وقال الثالث: أنفع الأشياء للإنسان أن لا يتكلم بما لا يعنيه. وقال الرابع: أروح الأمور للإنسان التسليم للمقادير.

واجتمع في بعض الزمان ملوك الأقاليم من الصين والهند وفارس والروم وقالوا: ينبغي أن يتكلم كل واحد منا بكلمة تدوّن عنه على غابر الدهر: فقال ملك الصين: أنا على ردّ ما لم أقل أقدر مني على ما ردّ ما قلت. وقال ملك الهند: عجبت ممن يتكلم بالكلمة إن كانت له لم تنفعه وإن كانت عليه أوهنته. وقال ملك فارس: إذا تكلمتُ بالكلمة ملكتني وإذا لم أتكلم بها ملكتها. وقال ملك الروم: لم أندم قط على ما لم أقل، ولقد ندمت على ما قلت كثيراً. والسكوت عند الملوك أحسن من الهَذَر الذي لا يُرجع منه إلى نفع. وأفضل ما استظلّ به الإنسان لسانه.

غير أن الملك، أطال الله بقاءه، لما أفسح لي في الكلام وأوسع ليه فيه، أول ما أبدأه به من الأمور التي هي غرضي أن تكون ثمرة ذلك له دوني، وأختصّه بالفائدة قبلي، على أنّ العقبى فيما أقصد من كلامي له إنما هي نفعه دوني، وشرفه راجع إليه وأكون أنا قد قضيت فرضاً واجباً علي.

فأقول أيها الملك إنك في منازل آبائك من الملوك وأجدادك من الجبابرة الذين أنشأوا المدن قبلك ودانت لهم الأرض وبنوا القلاع وقادوا الجيوش واستحضروا العدة وطالت لهم المدة واستكثروا من السلاح والكراع وعاشوا الدهور في الغبطة والسرور، فلم يمنعهم ذلك من اكتساب الجميل ولا قطعهم عن اغتنام الشكر فيما خُوّلوه، وحسن السيرة فيما تقلّدوه، مع عظم ما كانوا فيه من عزة الملك وسكرة الاقتدار.

فإنك أيها الملك السعيد جدّه، الطالع في الكواكب سعده، قند ورثت أرضهم وديارهم وأموالهم التي كانت عندهم فأقمْتَ فيما خوّلك الله من الملك وورثتَ الأموال والجنود، فلم تقم في ذلك بحقّ ما يجب عليك ولا أدّيت المفترض على الملوك إذا أفضى المُلك إليهم، بل طغيت وبغيت وعتوت وعلوت على الرعية وأسأت السيرة وعظمت منك البلية. وكان الأولى والأشبه بك أن تسلك سبيل أسلافك وتتبع آثار الملوك قبلك وتقفوَ محاسن ما أبقَوه لك وتقلع عما عارُهُ لازم لك وشيئُهُ واقع بك، وتحسن النظر في رعيتك وتسنّ لهم سنن الخير الذي يبقى بعدك ذركه، ويعقبك فخره، ويكن ذلك أبقى على السلامة وأدوم على الاستقامة. فإن الجاهل من استعمل في أموره البطر والأمنيّة، والحازم اللبيب من ساس المُلك بالمداراة والرفق. فانظر أيها الملك ما ألقيتُ إليه، ولا ييئَلنّ عليك، فإني لم أتكلم بهذا ابتغاء غرضٍ تجازيني به ولا التماس معروف تكافئني عليه، ولكني أتيتك مشفقاً ناصحاً لك.

فلما قضى بيدبا مقالته، وأنهى مناصحته، ارتعب قلب الملك فأغلظ له الجواب استصغاراً لأمره، وقال: لقد تكلمت بكلام ما أظن أحداً من أهل مملكتي يقدر أن يستقبلني بمثله ويقدم على ما أقدمت عليه، فكيف أنت مع صغر شأنك وضعف منفعتك وعجز قوتك. وقد احتملت على أن تجيبني بمثل هذا الكلام الذي ليس لأحد أن يخاطبني به. ولقد كثر إعجابي من إقدامك وتسلطك بلسانك فيما جاوزت فيه حدّك. وما أجد شيئاً في تأديب غيرك أبلغ من التنكيل بك. ففي ذلك عبرة وموعظة لمن عساه أن يروم من الملوك ما رُمت إذا أوسعوا لهم في مجالستهم.

ثم إن الملك أمر أن يقتل ويصلب. فلما مضوا به فيما أمرهم أمر بإعادته فأحجم عنه ثم أمر بحمله إلى السجن، فحُمل مقيّداً. ثم وجّه في طلب تلامذته ومن كان يجتمع إليه ليودعهم في محبسه فهربوا في البلاد واعتصموا بجزائر البحار. ومكث بيدبا في محبسه أياماً كثيرة لا يسأل الملك عنه، ولا يلتفت إليه، ولا يتجاسر أحدٌ أن

يذكره عنده. حتى إذا كانت ليلة من الليالي سَهد فيها الملك سهداً شديداً ومدّ إلى الفلك بصره ففكر في تنقله وحركات الكواكب فيه، فغرق في الفكر فسلك به إلى استنباط شيء عرض له من أمور الفلك والمسألة عنه. فتذكر عند ذلك بيدبا وتفكر فيما كلّمه به وارعوى لذلك وقال في نفسه: لقد أسأت فيما صنعت بهذا الفيلسوف وضيّعت واجب حقه وحملني على ذلك سرعة الغضب. فإنه قيل: لا ينبغي أن يكون الغضب في الملوك، فإنه أجدر الأشياء مقتاً لأن صاحبه لا يزال ممقوتاً، والبخل فإنه ليس بمعذور مع ذات يده، والكذب فإنه ليس أحد يجاوزه، وعدم الرّفق في المجاورة فإن السّفه ليس من شأنها. وإني أتيت إلى رجل نصيح لي ولم يكن ثلاّباً فقابلته بضدّ ما كان مستحقاً وكافأته بخلاف ما يستوجب، وما كان ذلك جزاءه مني، بل الواجب أن أسمع كلامه وأنقاد لمشورته.

ثم أنفذ من ساعته من يأتيه به. فلما مثل بين يديه قال له: يا بيدبا ألست الذي قصدت إلى تقصير همتي وعجّزت رأيي فيما تكلمت به آنفا؟ قال بيدبا: يا أيها الملك السعيد إن ما أنبأتك به فيه صلاح لك ولرعيتك وفيه دوام ملكك.

فقال له الملك: أعد عليّ ما قلت ولا تدع منه حرفاً واحداً إلا جئت به. فجعل بيدبا ينشر كلامه والملك مصغ إليه. وجعل كلما سمع كلامه ينكت الأرض بشيء كان في يده. ثم رفع رأسه إليه وأمره بالجلوس فجلس. ثم قال له: يا بيدبا إني قد استعذبت كلامك وحسن موقعه من قلبي وأنا ناظر في الذي أشرتَ به وعاملٌ عليه. ثم أمر بقيوده ففكّت، وألقى عليه من لباس الملوك، وتلقاه بالقبول.

فقال بيدبا: أيها الملك، إن في دون ما كلّمتك به ناحية لمثلك. فقال الملك: صدقت أيها الحكيم الفاضل، ولقد ولّيتك في مجلسي هذا جميع مملكتي. فقال له بيدبا: أيها الملك اعفني من هذا الأمر فإني غير مضطلع بتقويمه إلا بك. فقبل ذلك منه وأغفاه.

فلما انصرف علم أن الذي فعله ليس برأي فبعث إليه واستردّه وقال له: إني فكرت في إعفائك فيما عرضته عليك فوجدت أنه لا يقوم إلا بك ولا ينهض به غيرك، ولا يستطيع له سواك ولا يتخالفني فيه. فأجابه بيدبا إلى ذلك.

وكان من عادة الملوك في ذلك الزمان إذا ألبسوا وزيراً أن يعقد على رأسه تاج ويركب في أهل المملكة ويطاف به في مدينة الملك. فأمر دبشليم أن يُفعل ببيدبا ذلك، فوُضع التاج على رأسه وركب ودار في المدينة ورجع وجلس في مجلس العدل والإنصاف وأخذ للضعيف من القوي وردّ الظالم، ووضع سنن العدل. والتصل الخبر بتلامذته فأتوه من كل ناحية مستبشرين بما ناله من الملك من الأخذ والعطاء والبذل، وشكروا الله تعالى على توفيق بيدبا في إزالة دبشليم عما كان عليه من سوء السيرة، واتخذوا ذلك اليوم عيداً يعيّدون فيه. فهو إلى يومنا ثابت في بلادهم.

ثم إن بيدبا خلا فكره من أشغاله بدبشليم وتفرّغ من السياسة فعمل كتباً كثيرة فيها من دقيق الحيل. ومضى الملك على ما رسم بيدبا من حسن السيرة والعدل في الرعية فرغب إليه الملوك الذين كانوا في نواحيه وانقادت له الأمور على استوائها وفرحت به رعيته وأهل مملكته.

ثم إن بيدبا جمع تلامذته ووعدهم وعداً جميلاً وقال لهم: لست أشك أنه وقع في نفوسكم وقت دخولي على الملك أن قلتم إن بيدبا قد ضاعت حكمته وبطلت فكرته إذ عزم على الدخول إلى هذا الجبّار الطاغي. فقد علمتم نتيجة رأيي وصحة فكري، وإني لم آت الملك جهلاً به لأني كنت أسمع ما يقال: إن الملوك لها سكرةً كسكرة الشبان. فلا يفيق الملوك من سكرتهم إلا مواعظ العلماء وأدب الحكماء. ويجب على الحكماء تأديب الملوك بألسنتها وتقويم حكمتها وإظهار الحجة البيّنة اللازمة لما هم عليه من الاعوجاج والخروج عن العدل. فوجدت ما قالت العلماء فرضاً واجباً على الحكماء لملوكهم ليوقظوهم عن سِنَة سكرتهم، كالطبيب الذي يجب عليه في صناعة الطب حفظ الأجساد وردّها إلى الصحة. فكرهت أن يبقى وأموت فيكون ذلك حسرة عليّ وعليكم وما يبقى على الأرض إلا من يقول كان بيدبا الفيلسوف في مدة دبلشيم الملك فلم يردّه عما كان عليه.

فإن قال قائل: إنه لم يمكّنه كلامه خوفاً على نفسه، قالوا: إن الهرب منه ومن جواره أولى به، والانزعاج عن الوطن شديد. فرأيت أن أجود بحياتي فأكون قد أتيت فيما بيني وبين الحكماء بعدي عذراً. فحملت نفسي على التغرير أو الظفر بما أريد وكان في ذلك ما أنتم معاينوه. فإنه يقال في بعض الأمثال إنه لم يبلغ أحد مرتبة إلا

بإحدى ثلاث: إما بمشقة تناله في نفسه وإما بوضيعة في ماله أو بوكسٍ في دينه. ومن لم يركب الأهوال لم ينل الرغائب. ثم إن الملك مكث على حسن السيرة زمناً طويلاً وبيدبا يتولى ذلك ويتقدم به.

ثم إن دبشليم لما استقرّ له الملك وسقط عنه النظر في أمور الرعية والنظر في الأعداء ومحاربتهم إذ قد كفاه بيدبا ذلك، صرف همته إلى النظر في الكتب التي وضعتها فلاسفة الهند لآبائه وأجداده، وأحبّ أن يكون في الخزانة كتاب باسمه. وعلم أن ذلك لا يقوم به إلا بيدبا فدعاه وخلا به وقال له: يا بيدبا إنك حكيم الهند وفيلسوفها وإن فكرت ونظرت في خزائن الحكمة التي كانت الملوك قبلي جميعها فلم أر أحداً إلا وقد وضع له كتاب يذكر فيه اسمه وأيامه وسيرته وينبئ عنه وعن أدبه وأهل مملكته. ومنه ما وضعته الملوك لأنفسها ولذلك بانت حكمتها، ومنه ما وبضعته حكماؤها. وإني خفت أن يلحقني ما لحق أولئك مما لا حيلة ليه فيه وهو الموت ولا يوجد لي في خزانتي كتاب يذكره الملوك بعدي وأذكَر فيه وأنسب إليه كما ذكر من كان قبلي بكتبهم. وقد أحببت أن تصنع لي كتاباً بليغاً تستفرغ فيه عقلك، يكون ظاهره سياسة للعامة وتأديبها، وباطنه لأخلاق الملوك وسياستها للرعية على طاعة الملك وخدمته فيسقط بذلك عني وعنهم كثير مما يحتاج إليه في معاناة المُلك. وأريد أن يبقى لي هذا الكتاب ذكراً على غابر الدهر.

فلما سمع بيدبا كلامه خرّ له ساجداً ثم رفع رأسه وقال: أيها الملك السعيد جدّه، علا نجمك وغاب نحسك ودامت أيامك. إن الذي قد طُبع عليه الملك من جودة القريحة ووفور العقل ينبهه لذلك ويحرّكه لمعالي الأمور التي سُمعت به فتعلو همّته إلى أشرف المنزلة وأبعدها غاية، فأدام الله تعالى سعادة الملك وأعانه على ما عزم عليه فأعانني على بلوغ مراده. وليأمر الملك بما شاء من ذلك فإني صائرٌ إلى غرضه ممهّد فيه الرأي.

قال له الملك: لم تزل يا بيدبا معروفاً بعقد الرأي المبارك بطاعة الملوك في أمرهم وقد اختبرت ذلك منك واخترت أن تضع هذا الكتاب وتجهد فيه نفسك وتعمل فيه بغاية ما تجد إلي السبيل. وليكن مشتملاً على الجد والهزل واللهو والحكمة والفلسفة ليفرغ الحكيم ذهنه لما فيه من حكمة، وتشرح المعاني صدره لما فيه من لهو.

فكفّر له بيدبا وسجد وقال: أجبت الملك لما أمرني به من ذلك وجعلت بيني وبينه أجلاً. قال الملك: وكم هو يا بيدبا؟ قال: سنةٌ. قال: لقد أجّلتك يا بيدبا. وأمر له بجائزة سنيّة يستعين بها على عمل الكتاب كما رسم له الملك.

ثم إن بيدبا أخذ يتذكر أياماً في الأخذ في ابتداء الكتاب وفي أي صورة يبتدئ به وعلى أي وضع يضعه وعلى أي جنس يرسمه. وجمع تلامذته وقال لهم: إن الملك قد ندبني لأمر فيه فخري وفخركم وفخر بلادكم إلى الأبد، وقد جمعتكم لهذا الأمر. إن الملك دبشليم قد بسط لساني في أن أضع له كتاباً فيه من ضروب الحكمة. ثم وصف لهم ما أشار إليه الملك من أمر الكتاب والغرض الذي قصده في نظمه وترتيبه. وقال لهم: فليضع كل واحد شيئاً في أي فنّ شاء وليعرضه عليّ لأعرف مقدار عقله وأين بلغ من الحكمة فهمه.

قالوا بأجمعهم: أيها الحكيم الفاضل واللبيب العاقل والذي وهب كل ما منحك من الحكمة والعقل والصيانة (وهو الله تعالى)، ما خطر هذا في قلوبنا ساعة قط وأنت رئيسنا وفاضلنا بك شرفنا وعلى يديك انتعاشنا، ولكن سنجهد أنفسنا فيما أمرت. فلم يقع لهم الفكر في ما تقدم به الملك.

فلما لم يجد عندم ما يريد فكّر بفضل حكمته، وعلم أن ذلك أمر إنما يتم باستفراغ الفكر وإعمال العقل. وقال: أرى السفينة لا تجري في البحر إلا بأمر الملاحين لأنهم يعدلونها، وإنما تقطع اللجة وتسلك البحر بمدبّرها الذي تفرّد بإمرتها، ومتى ثقلت بالركّاب وكثر ملاحوها لم يؤمن عليها الغرق.

ثم لم يزل يفكر في رسم الكتاب حتى وضعه على الانفراد بنفسه مع رجل من تلامذته كان يثق بعقله. فخلا به قعد أن أعد من الورق شيئاً كثيراً ومن القوت ما يقوم به وبتلميذه مدة سنة، ثم احتبسا في مقصورة وردّا عليهما الباب. ثم بدأ بيدبا في نظم الكتاب على غاية منها قائم بنفسه. وفي كل باب مسألة والجواب عنها، ليكون فيه هحظ لمن نظر في الأبواب، وسماه كتاب كليلة ودمنة. وجعل الكلام على ألسن البهائم والسباع والوحش والطير ليكون ظاهره لهواً للعامة وباطنة سياسة للخاصة، متضمنا ما يحتاج الإنسان إليه من أمر دينه ودنياه وآخرته على حسن طاعة الملوك ومجانبة ما تكون مجانبته خيراً له. ثم جعله ظاهراً وباطناً كسائر كتب الحكمة، فصارت صور الحيوانات فيه لهواً وما نطقت به حكما وأدباً.

ولما ابتدأ بيدبا بذلك جعل أول الكتاب وصف الصديق، كيف يكون صديقان وكيف يقطع المودة الثابتة بينهما ذو الحيلة والنميمة. فأمر تلميذه أن يكتب على لسانه ما كان الملك شرط عليه. وذكر بيدبا أن الحكمة متى دخلها كلام الغفلة أفسدها واستجهلت حكمتها.

ثم إن بيدبا وقع له موضع الهزل من الكتاب فرسمه، وموضع الجد فأثبته. فجاء الكتاب على لسان البهائم. وكانت الحكمة ما نطقوا به فترك العقلاء الظاهر من ذلك واشتغلوا بما فيه من الحكم والآداب. وأما الجهّال فلم يعلموا السبب فيما وُضع لهم وأظهروا عجباً من محاورة بهيمتين فاتخذوه لهواً وعجزوا عن معنى الكلام أن يفهموه، ولم يعلموا الغرض الذي وُضع لهم لأن الفيلسوف كان غرضه في الباب الأول أن يُخبر عن تواصل الإخوان وكيف تتأكد بينهم المحبة بالتحفّظ من أهل السّعاية والتحرّز عن بُرقُع العداوة والقطيعة بين المتحابين بالكذب ليجرّ الساعي بذلك نفعاً إلى نفسه.

فلما تم الكتاب وتم الأجل أنفذ الملك دبشليم إلى بيدبا أن قد جاء الوعد فماذا صنعت؟ فأنفذ إليه بيدبا: إني على ما وعدت الملك فليأمرني لأحمله إليه بعد أن يجمع أهل مملكته لتكون قراءتي لهذا الكتاب بحضرتهم.

فلما رجع الرسول إلى الملك دبشليم سُرّ بذلك سروراً عظيماً ووعده يوماً يجمع أهل مملكته فيه. ثم نادى في أقصى بلاد الهند ليحضروا قراءة الكتاب. فلما كان اليوم واجتمع الناس أمر الملك أن يُنصب له سرير ولبيدبا سرير.

وحضروا، وقام بيدبا وعليه ثياب الحكمة التي كان يلبسها إذا دخل على الملوك وهي المسوخ السود. فلما دنا من الملك كفّر له وسجد له فلم يرفع رأسه.

فقال له الملك: يا بيدبا رفع رأسك فليس هذا يوم نحيب، هذا يوم سرور وشكر. ثم سأله حين قرأ الكتاب عن معنى كل باب وأيّ شيء قصده فيه، فأخبره بغرضه فيه وقصده في كل باب فازداد به سروراً ومنه تعجّباً وقال له: يا بيدبا ما عدوت ما كان في نفسي، وهذا الذي كنت أطلب، فتمنّ ما شئت وتحكّم. فدعا له بالسعادة وقال: أيها الملك، أما المال فلا حاجة لي فيه، وأما الكسوة فلا أختار سوى لباسي هذا، ولست أخلي الملك من حاجة إذا عرضت. فقال الملك: وما حاجتك الآن، فكل حاجة لك قبلنا مقضيّة. فقال: أسأل الملك أن يأمر بتدوين كتابي هذا كما دوّن آباؤه وأجداده كتبهم وان يأمر بالاحتياط عليه، فإني أخاف أن يخرج من بلاد الهند فيتناوله أهل فارس إذا علموا به فيذهب، والآن لا يخرج من بيت الحكمة. ثم دعا الملك بتلامذته فخلع عليهم وأمر لهم بالجوائز.

ثم إنه لما ملك كسرى أنو شروان، وكان مستبشراً بالكتب في العلم والأدب رُفع إليه خبر هذا الكتاب فلم يقرّ له قرارٌ حتى بعث برزويه الطّبيب فاحتال وتلطّف حتى أخرجه من بلاد الهند فأقرّه في خزائن فارس.

باب بعثة كسرى لبرزويه إلى بلاد الهند

قال بزرجمهر في ذلك: أما بعد فإن الله تبارك وتعالى خلق خلقه أطواراً برحمته ومنّ على عباده بفضله ورزقهم ما يقدرون به على إصلاح معايشهم في الدنيا وما يدركون به استنقاذ أرواحهم من أليم العذاب. فأفضل ما رزقهم ومنّ عليهم به العقل الذي هو قوةٌ لجميع الأحياء. فما يقدر أحد منهم على إصلاح معيشةٍ ولا إحراز منفعة ولا دفع ضر إلا به وكذلك طالب الآخرة المجتهد على استنقاذ روحه من الهلكة. فالعقل هو سبب كل خير ومفتاح كل رغبة وليس لأحد غنىً عنه. وهو مكتسب بالتجارب والآداب وغريزة مكنونة في الإنسان كامنة ككمون النار في الحجر والعود لا تُرى حتى يقدحها قادح من غيرها. فإذا قدحها ظهرت بضوئها وحريقها. كذلك العقل كامن في الإنسان لا يظهر حتى يظهره الأدب وتقويه التجارب، فإذا استحكم كان هو السابق إلى الخير والدافع لكل ضر. فلا شيء أفضل من العقل والأدب. فمن منّ عليه خالقه بالعقل وأعان هو على نفسه بالمثابرة على أدب والحرص عليه سعد جده وأدرك أمله في الدنيا والآخرة.

وقد رزق الله ملكنا هذا السعيد الجد أنو شروان من العقل أفضل الرزق ومن النصيب أجزله وأعانه على ما رزق من ذلك بحسن الأدب والبحث عن العلم وطلب التفسير لجميع علوم الفلسفة والاستنباط عما غاب، والتخير للصواب مما ظهر، فبلغ في ذلك ما لم يبلغه ملك قط ممن كان قبله من الملوك.

وكان فيما يطلب من العلم ويبحث عنه أنه بلغه أن كتاباً من كتب الهند عند ملوكهم وعلمائهم نفيس مخزون وهو أصل كل أدب ورأس كل علم والدليل على كل منفعة ومفتاح طلب الآخرة والعمل للنجاة من هولها والمقوي لما يحتاج إليه الملوك لتدبير ملكهم ويصلحون به معايشهم وهو كتاب كليلة ودمنة.

فلما تيقن ما بلغه عن ذلك الكتاب وما فيه من منافع تقرية العقل والأدب لم يطمئن بالاً ولم يسكن حرصاً على استفادته والنظر فيه وفي عجائبه. وكان رجلاً عاقلاً أديباً. فسأهل أهل مملكته أن يختاروا رجلاً عاقلاً أديباً عالماً ماهراً بالفارسية والهندية حريصاً على العلم مجتهداً في استكمال الأدب مثابراً على النظر والتفسير لكتب الفلسفة فيؤتى به. فطلب الرجل حتى ظفروا به فأتي برجل شاب جميل ذي حسب كامل العقل والأدب، صناعته التي يعرف بها الطب وكان ماهراً بالفارسية والهندية يسمى برزويه.

فلما دخل عليه سجد له ثم قام مكفراً فقال له الملك: يا برزويه إني قد اخترتك لما بلغني عن فضلك وعقلك وحسن أدبك وحرصك على طلب العلم حيث كان. وقد بلغني عن كتاب للهند مخزون بخزائنهم. وقصّ عليه قصته وأخبره بما بلغه عنه وعظيم رغبته فيه وأمره بالجهاز للخروج في طلبه وأن يتلطف بعقله ورفقه وحسن أدبه لاستخراج ذلك الكتاب من خزائنهم ومن قبل علمائهم إما مكتوباً بالفارسية فيستنقذه له هو وغيره من الكتب التي ليست في خزائنه ولا في ملكه.

وأمر أن يحمل معه من المال ما أراد، فإن نفذ قبل أن يصير إلى حاجته كتب إليه ليمدّه من المال ما أحب وإن كثر. وقال: لا تقصّر في طلب كل علم فليست النفقة عوضاً من الفائدة ولو أحاط بجميع ما في خزائني. وأمر المنجمين أن يتخيروا له يوماً يسير فيه وساعة صالحة. فخرج وحمل معه من المال عشرين ألف دينار.

ولما قدم برزويه على أرض ذلك الملك وتخلل مجالس الأسواق وسأل عن قرابة الملك والأشراف وعن العلماء والفلاسفة جعل يغشاهم في منازلهم ويتلقاهم بالتحية والمساءلة على باب الملك ويخبرهم أنه رجل غريب قدم بلادهم في طلب العلم والأدب، وأنه محتاج إلى معونتهم على ما طلب من ذلك ويسألهم إرشاده إلى حاجته. ومع شدة كتمانه لما قدم له لم يزل في ذلك زماناً طويلاً يتأدب بما هو أعلم به ويتعلم من العلوم ما هو ماهر فيه. واتخذ لطول إقامته إخواناً كثيرين من أهل الهند من الأشراف والسوقة ومن العلماء وأهل كل صناعة واختص من جماعتهم رجلا يسمى أدويهْ وجعله صاحب سره ومشورته لما ظهر له من حسن علمه وفضل أدبه وصحة إخائه ومحض مودته. وكان يستشيره في جميع الأمور إلا أنه كان يكتمه الأمر الوحيد الذي يعنيه. وكان يألوه باللطف لينظر هل يراه موضعاً لإطلاعه على سره.

فلم يزل يبحث عن ذات نفسه حتى وثق به وعرف أنه لما استودع من السر موضع وفيما طلب منه مجمّل وبما سئل مشفّع وفيما استعان به عليه مجتهد، فازداد له إلطافا. وكان إلى ذلك اليوم الذي رجا أن يكون قد بلغ فيه حاجته قد أعظم النفقة مع طول الغيبة في استلطاف الأصدقاء ومجالستهم على الطعام ومنادمتهم على الشراب لطلب الثقات منهم. فلم يطمئن لأحد ممن آخاه إلى لصديقه الذي ذكرناه. وكان ممك حكّم به برزويه صديقه ذلك والذي رد عليه وكيف فتش عقله حتى وثق به واطمأن إليه أن قال له وهما خاليان: يا أخي ما أريد أن أكتمك من أمري شيئاً فوق ما كتمتك. فاعلم أني لأمري ما جئت وهوغير ما تراه يظهر مني. والعاقل يكتفي من الرجل بالعلامات من نظره وإشارته بيده لكي يعلم سر نفسه وما يضمر في قلبه.

قال له الهندي: إني وإن لم أكن بدأتك وأخبرتك بماله جئت وإياه طلبت وإليه قصت وإنك تكتم أمراً تطلبه وأنت مظهر غيره، فإنه لم يكن ليخفى عني ولكن لرغبتي في إخائك كرهت أن أواجهك به فإنه قد ظهر لي ما تكتم، وقد استبان لي ما أنت فيه وما تخفيه عني. فأما إذا فتحت الكلام فأنا مخبرك عن نفسك ومظهرر لك سريرة أمرك ومعلمك حالك الذي قدمت له. فإنك قدمت بلادنا لتسلبنا كنوزنا النفيسة فتذهب بها إلى بلادك لتسر بها ملكك. وكان قدومك بالمكر ومصادقتك بالخديعة ولكني رأيت من صبرك ومواظبتك على طلب حاجتك وتحفظك أن تسقط في طول مكثك عندنا بكلام يستدل به على سر أمرك فازددت رغبة في عقلك وأحببت إخاءك فلا أعلم أني رأيت رجلاً أرصن عقلاً ولا أحسن أدباً ولا أصبر على طلب حاجة، ولا أكتم للسر منك، ولا أحسن خلقاً ولا سيما في بلاد الغربة ومملكة غير مملكتك، وعند قوم لم تكن تعرف شيمهم وأمرهم. واعلم أن عقل الرجل يستبين في هذه الثماني الخصال: الأولى الرفق والتلطف، والثانية أن يعرف الرجل نفسه فيحفظها، والثالثة طاعة الملوك وأن يتحرّى ما يرضيهم، والرابعة معرفة الرجل موضع سره كيف ينبغي أن يطلع عليه صديقه، والخامسة أن يكون على أبواب الملوك أديباً حيّلاً ملق اللسان، والسادسة أن يكون لسره وسر غيره حافظاً، والسابعة أن يكون على لسانه قادراص فلا يفلظ من الكلام إلا ما قد تروّى فيه وقدّره فلا يطلع عليه إلا الثقة، والثامنة أن لا يتكلم إذا كان من المحفل عما لم يسأل عنه ولا يقول ما لم يستقينه ولم يظهر من الأمر ما

يندم عليه. فمن اجتمعت فيه هذه الخصال كان هو الداعي إلى الخير والربح والمجتنب الشر والخسران. وهذه الخصال كلها بينة ظاهرة فيك واضحة لي منك، فالله يحفظك ويمتعني بمودتك. ومن اجتمعت فيه هذه الخصال الثماني كان أهلاً أن يشفع في طلبته ويسعف بحاجته ويعطى سؤله. ولكن حاجتك التي تطلب قد أرعبتني وأدخلت عليّ الوحشة والخشية فنسأل الله السلامة.

فلما عرف برزويه أن الهندي قد علم أن مصادقته إياه كانت مكراً وختلاً لطلب حاجته وأنزل ذلك منه منزلة اختلاس وسلب فلم يزجره ولم ينتهره ولكنه ردّ رداً لينا كرد الأخ على أخيه باللين والإشفاق حتى اطمأن ووثق بقضاء حاجته. ثم قال للهندي: إني قد كنت هيّأت كلاماً كثيراً ووضعت له أصولاً وشعّبت فيه شعاباً وشجّنت له شجوناً وأنشأت له أغصاناً وأطرافاً. فلما اكتفيت به فعرفت باليسير أبتُ عما كنت قد اختلقته فسلم الله لك في العقل والأدب فكفيتني مؤونة الكلام وحزت الجواب باليسير من القول والإسعاف بالحاجة كما قد بدا لي منك. فإن الكلام إذا انتهى إلى العلماء والسر إذا استودع اللبيب الحافظ ثبت وبلغ غاية أمل صاحبه قوياً ثابتاً كثبات القصر الذي أحكم أساسه بالصخور، وكالجبل الذي لا تزعزعه الرياح ولا تزلزله.

قال الهندي: لا شيء أفضل من المودة، فمن خلصت مودّته كان أهلاً أن يخلطه الرجل بنفسه ولا يدّخر عنه شيئاً مما عنده. ورأس الأدب حفظ السر فإذا كان السر عند الأمين الحافظ فهو موضعه مع أنه خليق أن لا يكتم وأن لا يكون سرا لأن السر إذا تكلم به لسانان صار إلى ثلاثة فشاع في الناس، حتى لا يستطيع صاحبه أن يجحده، كالغيم إذا كان متقطعاً فقال أحد إن هذا غيم متقطع، لم يكذبه أحد على ذلك بل يصدقه كل من يراه متقطعا. وأما أنا فقد اشتدّ سروري وابتهاجي بمودتك ومخالطتك. وهذا الأمر الذي تطلبه مني سر ليس بمكتتم ولا بد أن يفشو في المجالس. فإذا فشا وعلن هلكت نفسي هلاكاً لا أقدر على الخلاص منه بالفداء بمال وإن كثر لأن ملكنها فظٌ غليظٌ يعاقب على الطفيف فكيف على مثل هذا.

فقال برزويه: إن العلماء مدحت الصديق إذا كتم سر صديقه، وهذا الأمر الذي له قدمت إياك اعتمدت به ولك أفشيته ومنك أرجو الحاجة، وهو أمر جسيم وخطره عندي عظيم وأنا واثق بعقلك ولطفك وحسن تأتّيك وحيلتك في دركي ما أمّلته على يديك وبيمنك وبركتك وإن مسّتك في ذلك مشقة من خشية. وأنا أعلم أنك آمن من قبلي أن أطلع عليه أحداً ولكنك تتقي أهل بلادك المطيفين بالملك أن يشيّعوا ذلك. وأرجو أن لا يشيع لأني ظاغن وأنت مقيم وما أقمت فليس بيننا ثالث وإذا رحلت عنك أمنت نفسك أن تفشيه عليك.

وكان الهندي خازن الملك وبيده مفاتيح خزانته فأعطاه حاجته من الكتب. فلما وقف برزويه على مطلوبه أخذ في نسخ كليلة ودمنة وتفسيره وأقام على ذلك زماناً طويلاً. ثم عظمت فيه نفقته ومؤونته وأنصب في بدنه وسهر فيه ليلة ودأب فيه نهاره وهو على خوف من نفسه. فلما فرغ من ذلك الكتاب ومما رغب من سائر الكتب وأحكممها كتب إلى أنو شروان يعلمه بما لقي من النصب والروع وأنه قد فرغ من حاجته.

فلما انتهى الكتاب إلى أنو شروان وقرأه وعلم أنه قد فزع من حاجته فرح فرحاً شديداً ثم تخوف معالجة المقادير أن تنغّص عليه فرحه وينقض سروره وأمر بالكتاب إلى برزويه يسأله أن لا يعرج عن القدوم وأن يبسط أمله بما جدد له من حسن رأي الملك فيه، وأنه مفضله ومتخذه وزيراً وأن يبادر الأجل ويعزم على الصبر فإن عاقبته إلى خير ونجاة في الدنيا والآخرة.

ووجه بالكتاب مع بعض ثقاته مع البريد وأمره أن يسير في غير الجادة حذر أن يوجد فيفشو ما كان أسرّ فيذهب كل ما كان عمل ضلالاً.

فلما انتهى الرسول إلى برزويه دفع الكتاب إليه سرا. فلما قرأه تجهز للسفر وسار حتى قدم إلى أنو شروان. فأخبر بقدومه فأمر بإدخاله عليه. فلما رأى ما أصابه من التعب والنصب رقّ له وقال: أبشر أيها العبد الصالح فستأكل حلاوة ثمرة نصيحتك فقرّ عيناً فقد استوجبت الشكر من جميع الرعية وعظيم المكافأة منا وننزلك أفضل المنازل وأشرفها. وأمره أن يريح نفسه وبدنه سبعة أيام ثم يأتيه ذلك.

فلما كان الثامن دعا به وأمر أن يحضر العظماء والأشراف. فلما اجتمعوا وعنده برزويه أمر بإحضار الكتب التي قدم بها من الهند ففتحت وقرئ ما فيها على رؤوس الأشهاد. فلما حكوها على ألسن الحيوان والطير فرحوا فرحاً شديداً وشكروا الله على ما منّ به عليهم على يد برزويه. وأحسنوا الثناء عليه في إنصاب بدنه واستخراج الكتب لهم وإفادتها إياهم.

ثم أمر الملك بعد ذلك أن تفتح لبرزويه خزائن الجوهر والذهب والفضة والكسوة وأقسم عليه الملك إلا دخل وأخذ ما أحب منها وأن لا يقصر فإن ذلك كله ليس بعوض مما أفاده. فسجد برزويه للملك ودعا له ثم قال: أكرم الله الملك كرامة يجمع له بها شرف الدنيا والآخرة وأحسن جزاءه، فقد أغناني الله بحسن رأي الملك عن جميع عروض الدنيا بما وهب الله لي على يديك أيها الملك العظيم الخطير الكريم الخلق السعيد الجد. ولا حاجة لي إلى المال ولكن لسروري بموافقة الملك سيدي واتباع مسرّته آخذ من كسوة الملك تختاً من طراز قوهستان أتجمل به في خدمة الملك وعلى بابه.

فأخذه وذهب به إلى منزله ليفاخر مَن بباب الملك من أهل بيته وخاصته ثم قال: أصلح الله الملك وأكرمه. إن الإنسان إذا كان ذا عقل وأدب فأكرم وأعطي وأحسن إليه وجب عليه أن يشكر ذلك، وإن كان قد استوجبه قبل أن يعطاه. فأنا للملك شاكر أسأل الله له دوام السرور والغبطة في جميع الأمور. ولي أعز الله الملك حاجة هي أعظم الحوائج عندي وأكملها لدي وأشرفها قدراً عندي بعد رضا الملك. فإن رأى الملك أن يشفعني بحاجتي ويعطيني سؤلي فإنها يسيرة على الملك وعظيمة القدر والموقع مني. قال أنو شروان كسرى: سل تعط ما أحببت واشفع تشفع واذكر حاجتك تسعف بها وتكرم، فإن جزاءك عندنا عظيم. ولو سألت الشركة في الملك لم نردّ طلبتك فكيف ما سوى ذلك. فقل فإن جميع ما تسأل مبذول لك وحباً وكرامة.

قال برزويه: أكرم الله الملك وأحسن عني جزاءه فلست أمنّ على الملك بنصبي وعنائي. فله الفضل علي بما عوّضني وشركني في هذه الفائدة. والملك بكرمه وفضل رأيه قد كافأني وأحسن إلي فليعظّم المنّة على عبده باستتمام النعمة إليه وإلى أهل بيته ويشرّفه بأن يأمر بزرجمهر ابن البختكان وزيره ويعزم عليه أن يجهد نفسه في وضعه باباً يذكر فيه أمري وحالي ويبالغ في ذلك بأحسن الكلام وأزين الذكر وأحسن التأليف، ويأمر بذلك الباب إذا فرغ منه أن يضعه بين تلك الأبواب التي في الكتاب ليحيا به ذكري ما حييت في الدنيا وبعد وفاتي، فإنه إن فعل ذلكبي فقد شرّفني وأهل بيتي إلى آخر الأبد ما دام هذا الكتاب منشوراً في الدنيا يُقرأ.

فلما سمع الملك وعظماؤه مقالته عجبوا من عقله ومما سما إليه رأيه وما طلب من الشرف الدائم في الدنيا. وقال الملك: أنت أهل أن تشفع بطلبك فما أيسر ما طلبت في جنب ما تستوجب وإن كان عندئذ عظيم الخطر.

فأرسل الملك إلى وزيره بزرجمهر من ساعته فقال له: فقد علمت مناصحة برزويه وتحرّيه لمسرّتنا ومرضاتنا وركوبه الهول والمخاوف في حاجتنا، وإنصابه نفسه وبدنه فيما يسرّنا وما أصبنا على يديه من العقل والحكمة، وما عرضنا عليه لكي نعوضه من ذلك، فلم يقبل ورضي منا بالأمر اليسير. فإني جزاء له وكرامة أحب أن نشفعه في ذلك. ويسرني أن نجتهد في قضاء حاجته وأن تُكتب باباً مشابهاً لتلك الأبواب التي في ذلك الكتاب وتذكر فيه فضل برزويه وكيف كان بدء أمره وشأنه وطبّه وصناعته وأدبه وترقّعه من ذلك إلى بعثتنا إياه إلى الهند بأفضل ما تجد من المدح في الكلام بما تسرّني به وتسرّه وجميع أهل المملكة. فإنه يستحق ذلك منا ومنك خاصة لعظيم محبتك الأدب والعلم وأهله. فإن اجتهادك في ذلك وترتيبه راجع فضله إليك. وكلما نظر فيه أحد من العلماء كنت شريك برزويه في ذلك الذكر. واجعل ذلك الباب أول الأبواب. فإذا أنت فرغت من ذلك الباب ووضعته موضعه فأرنيه حتى أجمع العظماء والأشراف والعلماء فتقرأه على رؤوسهم ليظهر لهم من علمك وأدبك واجتهادك في مسرّتنا ما خفي عليهم.

فلما سمع برزويه مقالة الملك وعظيم منزلته عنده خرّ له ساجداً وقال: أدام الله لك أيها الملك السرور والفرح وقرة العين، ورزقك من الشرف في الدنيا ما تفوق به جميع المخلوقين، وفي الآخرة أفضل المنازل مع الصالحين في جنات النعيم.

فخرج بزرجمهر من عند الملك فأخذ في وضع ذلك الباب ووصف أمر برزويه من أول ما دفعه أبواه في التعليم إلى أن بعثه الملك إلى الهند، وجاء به بأحسن ما يقدر عليه من الوصف وما عرف به من أدب برزويه وسيرته من أول ما عرفه، وما ظهر للناس من استحقاره الدنيا وزهده فيها ورغبته في الآخرة، ولم يترك من اخلاق برزويه وطبائعه شيئاً إلا ذكره بأحسن ما يقدر عليه بتأليف ونسق محكم. ثم أعلم الملك بفراغه منه وأنه قد وضعه في أول الكتاب وهو باب برزويه المتطبب.

فجمع أنو شروان العظماء والأشراف فدخلوا عليه ودعا بزرجمهر والكتاب بمحضر من برزويه فقرئ على رؤوس الأشهاد. ففرح الملك بذلك وبما أوتي بزرجمهر من العقل والعلم وبما اجتهد في مدح بزرجمهر من العقل والعلم وبما اجتهد في مدح برزويه من غير كذب ولا ادعاء باطل في المدح. فأمر له بجائزة عظيمة من المال والحلي والثياب، فلم يأخذ إلا كسوة كانت من ثياب الملك خاصة. وشكر له برزويه وقبّل رأسه ويده،

وأقبل برزويه على الملك يشكره فقال: أدام الله لك أيها الملك والكرامة والجمال في الدنيا والآخرة بما أكرمتني به وأعظمت عليّ المنّة به من تشريفي بالجزاء وأفضل وأكمل ما جازى به أحد من خلقه وأعانني الله على تأدية شكرك ومبلغ رضاك وطاعتك، وعمّرك أقصى ومنتهى غاية ما عمّر به أحداً من آبائك في أفضل السرور وأعم العافية، ووصل ذلك بجزيل شرف الآخرة ورضوان الرب. إنه على ذلك قدير. وجزى الله بزرجمهر بن البختكان خير الجزاء وأحسن عني مكافأته.

فقد عجز لساني عن تأدية شكر الملك وشكره ولو أطنبت بكل ثناء وشكر. والله وليّ ذلك والقادر عليه والسلام.

باب برزويه

قال برزويه رأس أطباء فارس وهو الذي تولى انتساخ هذا الكتاب وترجمته من كتب الهند: إن أبي كان من المقاتلة وكانت أمي من عظماء بيوت الزمازمة وكان مما ابتدأني به ربي أني كنت من أكرم ولد أبويّ عليهما، وكان لي أشد احتفالاً منهما لسائر إخوتي، وأنهما أسلماني في تعليم الكتّاب حتى بلغت في العلم، فلما حذقت الكتابة شكرت أبويّ ونظرت في العلم، وكان أول علم رغبت فيه علم الطب فحرضت عليه حتى إذا حصّلت منه جانباً عرفت فضله وازددت عليه حرصاً وله اتباعاً. فلما بلغت فيه إلى أن أدمنت نفسي على مداواة المرضى هممت بذلك في الناس قولاً وعملاً. ولما تاقت نفسي إلى ذلك ونازعت إلى أن تغبط غيري وتتمنى منازلتهم أبيت لها إلا الخصومة وقلت: يا نفس ألا تعرفين نفعك من ضرّك، ألا تنتهين عن تمنّي ما لا يناله أحد إلا قلّ متاعه وكثر عناؤه فيه وخباله عليه واشتدّت البلية عليه عند فراقه وعظمت التبعة منه عليه بعده.

يا نفس ألا تذكرين ما بعد هذه الدار فينسيك ذلك ما تشرهين إليه من هذه الدار. ألا تستحين من مشاركة العجزة الجهّال في حب هذه العاجلة الفانية التي من كان في يده منها شيء فليس له وليس ببـاق معه والتي لا يألفها إلى المغترّون الغافلون. فانصرفي عن هذه النسبة وأقبلي بقوتك وما تمليكن على تقديم الخير والأجر ما استطعت، وإياك والتسويف. واذكري أن لهذا الجسد وجوداً وآفات وأنه مملوءة أخلاطاً فاسدةً قذرة يجمعها لمنافع أربعة أخلاطٍ متغالبة تغمرهن الحياة. والحياة إلى نفاذ كاللصنم المفصّلة أعضاؤه إذا ركّبت تلك الأعضاء وصنّفت في مواضعها جمعها مسمارٌ واحد يمسك بعضها على بعض، فإذا أخذ المسمار تساقطت الأوصال.

يا نفس لا تغتري بصحبة أحبائك وأخلائك ولا تحرصي على ذلك كل الحرص فإن صحبتهم على ما فيها من السرور كثيرة الأذى والأحزان، ثم يختم ذلك بعاقبة الراق. ومثله مثل المغرفة التي لا تستعمل في سخونة المرق في جدتها. فإذا انكسرت صارت عاقبة أمرها إلى أن تحرق بالنار. فأمرت نفسي وخيّرتها الأمور الأربعة التي إياها يطلب الناس وإليها يسعون فقلت: ينبغي لمثلي في مثل العلم أن يطلب أيها أفضل: المال أم اللذات أم الصّون أم أجر الآخرة.

فاستدللت على الخيار من ذلك أني وجدت الطب محموداً عند العقلاء، ولم أجده مذموماً عند أحد من أهل الأديان والملل. ووجدت في كتب الطب أن أفضل الأطباء من واظب على طبه لا يبتغي بذلك إلا أجر الآخرة. فرأيت أن أواظب على الطب ابتغاء أجر الآخرة ولا أبتغي بذلك ثمناً وأكون كالتاجر الخاسر الذي باع ياقوتة كان مصيبا بثمنها غنى الدهر بخرزة لا تساوي شيئا. مع أني قد وجدت في كتب الأولين أن الطبيب الذي يبتغي بطبه أجر الآخرة لا ينقصه ذلك من حظه في الدنيا وأن مثله في ذلك مثل الزارع الذي إنما يحرث أرضه ويعمرها ابتغاء الزرع لا ابتغاء العشب، ثم هي لا محالة نابت فيها ألوان العشب.

فأقبلت على مداواة المرضى. فلم أدع مريضا أرجو له البرء ولا آخر لا أرجو له البرء إلا أني أطمع له في خفة الوجع والأذى إلا بلغت في مداواته جهدي. ومن قدرت على القيام قمت عليه ومن لم أقدر على القيام عليه وصفت له وأمرته وأعطيته ما يتعالج به من الدواء ولم أرد على ذلك أجرة ولا مكافأة. ولم أغبط من نظرائي ومن هو مثلي في العلم وفوقي من المال والجاه أحداً لغير ذلك ممن له صلاح وحسن سيرة.

يا نفس لا يحملنك أهلك وأقاربك على جميع ما تهلكين في جمعه إرادة لصلتهم ورضاهم فإذا أنت كالدخنة الطيبة التي تحرق بالنار ويذهب بعرفها آخرون.

يا نفس لا تغتري بالغنى والمنزلة التي ينظر إليها أهلها، فإن صاحب ذلك لا يبصر صغير ما يستعظم حتى يفارقه فيكون كشعر الرأس الذي يخدمه صاحبه ما دام على الرأس فإذا فارق رأسه استقذره ونفر منه.

يا نفس داومي على مداواة المرضى ولا تقلعي عن ذلك أن تقولي للطب مؤونة شديدة والناس لها ولمنافع الطب جهال. ولكن اعتبري برجل يفرج عن رجل كربه ويستنقذه منه حتى يعود بعده إلى ما كان فيه من الروح والسعة ما أخلقه لعظم الأجر وحسن الثواب. فإن كان الذي يفعل هذا برجل واحد يرجو ذلك كله فكيف الطبيب الذي يداوي العدة التي لا يعلمها إلا الله ابتغاء الأجر، فيصيرون بعد الأوجاع والأسقام الحائلة بينهم وبين الدنيا ولذتها ونعيمها وطعامها وشرابها وأزواجها وأولادها إلى أحسن ما كانوا يكونون عليه من حال دنياهم. إن هذا لخليق أن يعظم رجاؤه ويثق بحسن الثواب على عمله.

يا نفس لا يبعدن عليك أمر الأخرة فتميلي إلى العاجلة فتكوني في استعمال القليل وبيع الكثير باليسير كالتاجر الذي زعموا أنه كان له ملء بيت من الصندل فقال: إن بعته موزونا طال علي، فباعه جزافاً بأخس الأثمان.

فلما خاصمت نفسي بهذا وآخذتها به وبصّرتها إياه لم تجد عنه مذهباً فاعترفت وأقرّت ولهت عما كانت تنزع إليه، وقامت على مداواة المرضى ابتغاء أجر الآخرة. فلم يمنعني ذلك أن أصبت حظا عظيما من الملوك قبل أن آتي الهند، وبعد رجوعي إلى ما نلت من الأكفاء والإخوان فوق الذي كان طمعي فيه وتجمح إليه نفسي وفوق ما كنت له آهلا.

ثم نظرت في الطب فوجدت الطبيب لا يستطيع أن يداوي المريض من مرضه بدواء يزيل عنه داءه فلا يعود إليه أبداً وغيره من الأدواء. والداء لا يؤمن عوده أو أشد منه. ووجدت عمل الآخرة هو الذي يسلم من الأدواء كلها سلامة فلا تعود إليه بعد ذلك فاستخففت في الطب ورغبت في الدين.

فلما وقع ذلك في نفسي اشتبه علي أمر الدين ولم أجد في الطب ذكراً لشيء من الأديان ولم يدلّني على أهداها وأصوبها. ووجدت الأديان والملل كثيرة من أقوام ورثوها عن آبائهم وآخرين خائفين مكرهين عليها وآخرين يبتغون بها الدنيا ومنزلتها ومعيشتها، وكلهم يزعم أنه على صواب وهدى فاستبان لي أنهم بالهوى يحتجون وبه يتكلمون لا بالعدل. وقد وجدت آراء الناس مختلفة وأهواءهم متباينة وكلاً على كل راد وله عدو ومغتاب ولقوله مخالف.

فلما رأيت ذلك لم أجد إلى متابعة أحد منهم سبيلاً وعلمت أني إن صدّقت منهم أحدا بما لا علم لي به أكن مثل المصدق المخدوع.

مثل المصدّق المخدوع

زعموا أنه ذهب سارق حتى علا بيت رجل من الأغنياء ليلاً ومعه أصحابٌ له فاستيقظ صاحب البيت فأحسّ بهم، وعرف أنهم لم يعلوا ظهر البيوت تلك الساعة إلا لريب، فنبّه امرأته وقال لها رويداً، إني لأحسّ باللصوص قد علوا ظهر بيتنا فإني متناومٌ، فأيقظيني بصوت يسمعه مَن فوق البيت ثم نادي: يا صاحب البيت ألا تخبرني عن أموالك هذه الكثيرة وكنوزك من أين جمعتها. فإذا أبيت عليك فألحّي في السؤال. ففعلت المرأة ذلك وسألته كما أمرها واستمع اللصوص حديثهما فقال الرجل: يا أيتها المرأة قد ساقك القدر إلى رزق كثير فكلي واسكتي ولا تسألي عما لو أخبرتك به لم آمن أن يسمعه سامع فيكون في ذلك ما أكره وتكرهين. قالت المرأة: أخبرني أيها الرجل فلعمري ما يقربنا أحد يسمع كلامنا. قال: فإني أخبرك أني لم أجمع هذه الأموال وهذه الكنوز إلا من السرقة. قالت: وكيف جمعت هذه الأموال وهذه الكنوز من السرقة وأنت في أعين الناس عدل رضاً لا يتهمك أحد ولم يرتب بك.

قال: ذلك لعلم أصبته في علم السرقة فكان الأمر أوفق وأيسر من أن يتهمني أحد ويرتاب بي. قالت: وكيف ذلك؟ قال: كنت أذهب في الليلة المقمرة ومعي أصحابي حتى أعلوا ظهر البيت الذي أريد أن أسرق أهله وأنتهي إلى الكوّة التي يدخل منها ضوء القمر فأرقي بهذه الرقية "شولم شولم" سبع مرات ثم أعتنق الضوء فأنهبط به إلى البيت فلا يحس بوقعتي أحد، ثم أقوم في أصل الضوء فأعيد الرقية سبع مرات فلا يبقى في البيت مال ولا عِلقٌ إلا بدا لي وأمكنني أن أتناوله فآخذ من ذلك ما أحببت. ثم أعتنق الضوء وأعيد الرقية سبع مرات فأصعد إلى أصحابي وأحملهم ما معي ثم ننسلّ.

فلما سمع اللصوص ذلك فرحوا فرحاً شديداً وقالوا: لقد ظفرنا من هذا البيت بما هو خير لنا من المال الذي نحن مصيبوه منه، لقد أصبنا علما أذهب الله به عنا الخوف وأمّننا من السلطان. ثم أطالوا المكث حتى استيقنوا في أنفسهم أن صاحب البيت وامرأته قد ناما، فتقدم رئيسهم إلى مدخل الضوء من الكوة ثم قالك "شولم شولم" سبع

مرات، ثم اعتنق الضوء لينزل به كما زعم فوقع في البيت منكّساً، ووثب الرجل بهراوة فضربه حتى أثخنه ثم قال له: من أنت؟ قال: أنا المصدق المخدوع وهذه ثمرة التصديق.

فلما تحرّزت من التصديق بما لا آمن أن يوقعني في الهلكة عدت للبحث عن الأديان والتماس العدل منها، فلم أجد عند أحد جواباً عما سألته عنه ولا فيما ابتدأني به شيئاً يحق عليّ في عقلي أن أصدق به فأتبعه. فقلت لما لم أجد ثقة آخذ منه فالرأي أن أتبع دين آبائي الذين وجدتهم عليه. فلما ذهبت ألتمس العذر لنفسي في ذلك لم أجد الثبوت على دين الآباء لي عذرا وقلت: إن كان هذا عذراً، فالساحر الذي وجد أباه ساحراً في عذر مع أشباهه، وذلك مما لا يحتمله العقل. وذكرت رجلاً كان فاحش الأكل يُعاب ذلك عليه فاعتذر بأن قال: هكذا كان يأكل آبائي وأجدادي.

فلم أجد على الثبوت على دين الآباء سبيلاً ولا في ذلك عذراً ورأيت التفرع للبحث عن الأديان مشكلاً تخوفت قرب الأجل وسرعة انقطاع الأمل، فقلت: أما أنا فلعلي أفارق الدنيا وشيكاً دون صالح الأعمال فيشغلني ترددي عن خير كنت أعمله ويكون أجلي دون بلوغ ما ألتمس به فيصيبني مثل الخادم والرجل.

مثل الخادم والرجل

زعموا أن رجلاً تواطأ مع خادم في بيت لأحد الأغنياء على أن يأتي البيت في كل ليلة يغيب صاحبه فيعطيه شيئاً من متاع سيده فيبيعه ويتشاطرا ثمنه. فاتفق ذات يوم أن غاب أهل البيت وبقي الخادم وحده فأنفذ فأخبره الرجل فأقبل. وفيما هما يجمعان المال إذ قرع الباب وعاد رب البيت على بغتة. وكان للبيت باب آخر لم يكن يعلمه الرجل وبقربه جبّ ماء. فقال الخادم للرجل: أسرع واخرج من الباب الذي عند الجب.

فانطلق الرجل ووجد الباب لكنه لم يجد الجب فرجع إلى الخادم وقال له: أما الباب فوجدته، وأما الجب فلم أجده. فقال الخادم: ويحك انجُ بنفسك ولا تكترث للجبّ. قال الرجل: كيف أذهب وقد خلطت عليّ فذكرت الجب وليس هناك. قال الخادم: دع عنك الحمق والتردد وفرّ عاجلاً. فلم يزل ينازعه حتى دخل رب البيت فأخذه وأوجعه ضرباً ثم دفعه إلى السلطان.

فلما خفت من التردد والتجوال رأيت أن لا أتعرض لما خفت من ذلك وأن أقتصر على كل عمل تشهد الأنفس على أنه صحيح وتوافق عليه الأديان. فكففت يدي عن الضرب والقتل والغضب والسرقة والخيانة وحصّنت نفسي من الفجور وحفظت لساني من الكذب ومن كل كلام فيه ضرر على أحد، وكففت لساني عن الشتم والعضيهة والخنا والبهتان والغيبة والسخري.

والتمست من قلبي بأن لا أتمنى لأحد سوءاً ولا أكذب بالبعث والقيامة الثواب والعقاب. وزايلت الأشرار بقلبي ولزمت الصلحاء والأخيار جهدي. ورأيت الصلاح ليس كمثله صاحب ولا قرين ورأيت مكسبه إذا وفّق له وأعان عليه يسيراً ووجدته أحنّ على صاحبه وأبرّ من الآباء والأمهات. ووجدته يدل على الخير ويشير بالنصح فعل الصديق بالصديق، ووجدته لا ينقص إذا أنفق منه صاحبه بل يزداد على الاستعمال والابتذال جدة حسنة. ووجدته لا خوف عليه من السلطان أن يسلبه ولا من شيء من الآفات، لا من الماء أن يغرّقه ولا من النار أن تحرقه ولا من اللصوص أن تسرقه ولا من شيء من السباع وجوارح الطير أن تمزقه. ووجدت الرجل الذي يزهد في الصلاح وعاقبته ويلهيه عن بذلك قليل ما هون فيه من حلاوة العاجل، إنما مثله فيما أنفذ فيه أيامه ويلهيه على ما ينفعه كمثل التاجر والضارب بالصنج.

مثل التاجر والضارب بالصَّنج

زعموا أن تاجراً كان له جوهرٌ كثيرٌ ثمينٌ، فاستأجر رجلا لثقبه وحمله بمئة دينار ليومه ذلك. فانطلق به إلى بيته، فلما قعد إذا هو بصنج موضوع في ناحية البيت فقال التاجر لصاحبه: هل تضرب بالصنج؟. قال: وفوق ذلك. قال: فدونك. فتناول الرجل الصنج وكان به ماهراً فلم يزل يُسمعه من صوت جيد وصوت مصيب حتى أمسى وترك سفط جوهره مفتوحاً واقبل على الضرب واللهو. فلما أمسى قال الرجل للتاجر: مُرْ بأجرتي. فقال: ما عملت شيئاً فتأخذ أجرته.

قال: عملت ما أمرتني أن أعمل. فوفاه مئة دينار وبقي جوهره غير مثقوب.

فلم أزدد في الدنيا وشهواتها نظراً إلاّ ازددت فيها زهادة فرأيت أن أعتصم بالتألّه والنسك ورأيت النسك يمهّد للمعاد كما يمهّد للولد أبواه ورأيته كالجنة الحريزة في دفع الشر الدائم الباقي، ورأيته الباب المفتوح إلى الجنة دار النعيم. ووجدت الناسك إذا فكّر تعلوه السكينة، فإذا تواضع وقنع واستغنى ورضي فلا يهم إذ خلع الدنيا فنجا من الشرور ورفض الشهوات فصار طاهراً وانعزل فكُفي الأحزان وطرح الحسد، فظهرت عليه المحبة وسخت نفسه عن كل فانٍ فاستكمل العقل وأبصر العاقبة فأمن الندامة ولم يذنب فسلم. فلم أزدد في أمر النسك نظراً إذا ازددت فيه رغبة حتى هممت أن أكون من أهله.

ثم تخوّفت ألا أصبر على عيش النساك وأن تضر بي العادة التي بها ربيت وغذيت ولم آمن إن أنا خلعت الدنيا وأخذت في النسك أن أضعف عن ذلك وأكون قد رفضت أعمالاً كنت أعملها قبل ذلك مما أرجو عائدتها، فيكون مثلي في ذلك كمثل الكلب الذي مرّ بنهر وفي فيه ضلع فرأى ظلّ الضّلع في الماء فأهوى ليأخذه فأهلك الذي كان في فيه ولم ينل الذي طمع فيه. فهبت النسك هيبة شديدة وخفت على نفسي الضجر وقلة الصبر وأردت الثبوت على حالتي التي كنت عليها.

ثم بدا لي أن أقيس بين ما أخاف وما أصبر عليه من الأذى والضيق في النسك وبين الذي يصيب صاحب الدنيا من البلاء فيها، وكان بيّنا عندي أنه ليس من شهوات الدنيا ولذاتها شيء إلا هو متحول أذى وموروث حزنا. فالدنيا كالماء المالح الذي ما يزداد صاحبه منه شرباً إلا ازداد عطشاً. وكالعظم يصيبه فيجد فيه ريح اللحم فلا يزال يلوكه لطلبه ذلك اللحم فيدمي فاه ثم لا يزداد له طلباً إلا ازداد لفيه إدماء. وكالحدأة التي تظفر بالبضعة من اللحم فيجتمع عليها الطير فلا تزال في تعب وهرب حتى تلفظ ما معها وقد أعيت وتعبت. وكالقلّة من العسل في أسفلها موت ذعاف. وكأحلام النائم التي تفرحه فإذا استيقظ انقطع الفرح عنه. وكالبرق الذي يضيء قليلاً ويذهب وشيكاً ويبقى راجيه في الظلام مقيماً. وكدودة الإبريسم لا يزداد الإبريسم على نفسها لفاً إلا ازدادت من الخروج منه بعداً.

فلما فكّرت في هذه الأمور راجعت نفسي في اختيار النسك ثم خاصمتني فقلت: ما يجوّز هذا لي أن أفرّ من الدنيا إلى النسك إذا فكّرت في شرورها، ثم أفر من النسك في الدنيا إذا تذكّرت ما فيه من المشقة والضيق فلا أزال في تصرف لا أبرم رأياً ولا أعزم على أمر كالقاضي الذي سمع من أول الخصمين فقضى له على الآخر ثم سمع الآخر فقضى له على الأول.

ونظرت في الدنيا يهولني من أذى النسك وضيقه فقلت: ما أصغر هذا وأقله في جنب روح الأبد وراحته. فنظرت فيما تشره إليه النفس من لذة الدنيا فقلت: ما أمرّ هذا وأوخمه وهو يدفع إلى الشر وهوانه. وقلت: كيف لا يستحلي الرجل مرارة قليلة تعقبها حلاوة طويلة وكيف لا يستمر حلاوة قليلة تؤديه إلى مرارة كثيرة دائمة. وقلت: لو أن رجلاً عرض عليه أن يعيش مئة سنة لا يأتي عليه من ذلك يوم إلا قطّع فيه قطعا، ثم أحيي، ثم أعيد عليه مثل ذلك غير أنه شرط له إذا استوفى المئة سنة نجا من كل ألم فليس يكون حقيقاً إذا صار إلى الأمن والسرور ألاّ يرى تلك السنين شيئاً.

أو ليس الإنسان يتقلب في عذاب الدنيا من حين مولده إلى أن يستوفي أيام حياته، فإذا كان جنينا في بطن أمه كان في أضيق الحبوس وأظلمها. وإذا وقع على الأرض فأصابته ريح أو لمسته يد وجد لذلك من الألم ما لا يجده الإنسان الذي قد سُلخ جلده. ثم هو في ألوان من العذاب إذا جاع وليس به استغاثة مهما يلقى من الرفع والوضع واللف والحل والدهن. وإذا نوّم على ظهره لم يستطع تقلّباً مع أصناف من العذاب ما دام رضيعاً.

فإذا انقلت من عذاب الرضاع أخذ في عذاب الأدب فأذيق منه ألواناً من عنف المعلم وضجر الدرس وسأم الكتابة. ثم له من الدواء والحمية والأوجاع والأسقام أوفى حظ. فإذا أدرك لحقه هم الأهل وجمع المال وتربية الولد ولعب به الشره والحرص ومخاطرة الطلب والسعي. وفي كل هذا تتقلب معه أعداؤه الأربعة، أي المرّة والدمة والبلغم والريح والسم المميت والحيّات اللادغة مع خوف السباع والهوام وخوف الحر والبرد والأمطار والرياح. ثم ألوان العذاب من الهرم لمن يبلغه. فلوم لم يخف من هذه الأمور شيئاً وشرط له بالأمن من ذلك كله فوثق بالسلامة منها فلم يعتبر إلا في الساعة التي يحضره فيها الموت ويفارق فيها الدنيا وما هو نازل به تلك الساعة من فراق الأهل والأحبة والأقارب وكل مضنون به من الدنيا والإشراف على هول المطّلع الفظيع المعضل بعد الموت، لكان حقيقاً أن يعدّ عاجزاً مفرّطاً محتملاً للإثم إن لم يعمل لنفسه ويحتل لها جهد حيلته، ويرفض ما يشغله ويلهيه من شهوات الدنيا وغرورها لا سيما في هذا الزمان الشبيه بالصافي وهو كدر.

فإنه وإن كان الملك قد جعله الله سعيداً ميمون النقيبة حازم الرأي رفيع الهمة بليغ الفحص، عدلا براً جواداً صدوقاً شكوراً، رحب الذراع متفقداً للحقوق ومواظباً مستمراً فهماً نفاعاً ساكناً بصيراً حليما رؤوفاً رحيماً رفيقاً، عالماً بالناس والأمور، حباً للعلم والعلماء والأخيار، شديداً على الظلمة، غير جبان ولا خفيف القيادة، رفيقاً بالتوسع على الرعية فيما يحبون والدفع عنهم لما يكرهون، فإنا على ذلك قد نرى الزمان مدبراً بكل مكان. فكأن أمر الصدق قد تورعت من الناس فأصبح مفقودا ما كان غزيراً فقده وموجوداً ما كان ضاراً وجوده. وكأن الخير أصبح ذابلاً وأصبح الشر ناضراً. وكأن الغيّ أقبل ضاحكا وأدبر الرشد باكياً، وكأن العدل أصبح غائراً وأصبح الجور غالباً، وكأن الكرم أصبح مدفوناً وأصبح الجهل منشوراً، وكأن اللؤم أصبح أشراً وأصبح الكرم موطوءاً، وكأن الودّ أصبح مقطوعاً والبغضاء والحسد موصولاً، وكأن الكرامة قد سلبت من الصالحين وتوخى بها الأشرار، وكأن الخبّ أصبح مستيقظاً والوفاء نائماً، وكأن الكذب أصبح مثمراً والصدق قاحلاً يابساً، وكأن العدل ولّى غائراً وأصبح الباطل مرحاً، وكأن اتباع الهوى وإضاعة الحكم أصبح بالحكماء، موكّلا وأصبح المظلوم بالخسف مقراً والظالم لنفسه مستطيلا، وكأن الحرص أصبح فارغاً فاه من كل جهاد يتلقفه ما قرب منه وما بعد وأصبح الرضا مفقوداً مهجولا، وكأن الأشرار أضحوا يسامون السماء وأصبح الأخيار يريدون مطبق الأرض، وأصبحت المروءة مقذوفاً بها من أعلى شُرفٍ إلى أسفل سافلين، وأصبحت الدناءة مكرّمة ممكّنة، واصبح السلطان منتقلاً من أهل الفضل إلى أهل النقص، وأصبحت الدنيا جذلة مسرورة مرحة مختالة تقول: غيّبت الحسنات وأظهرت السيئات.

فلما فكّرت في الدنيا وأمورها وأن هذا الإنسان هو أشرف الخلق وأفضله فيها، ثم هو على منزله لا يتقلّب إلا في شر ولا يوصف إلا به، وعرفت أنه ليس من أحد له أدنى عقل إلا وهو يعقل هذا ثم لا يحتاط لنفسه ولا يعمل لنجاتها. فعجبت من ذلك كل العجب ونظرت فإذا هو لا يمنعه من ذلك إلا لذة صغيرة حقيرة طفيفة من الشم والطعم واللمس، لعله يصيب منها لطيفاً أو يتمنى منها طفيفاً لا يوصف قله مع سرعة انقطاع. فذلك الذي يشغله عن الاهتمام بأمر نفسه وطلب النجاة لها.

مثل الرجل والتنين

فالتمست للإنسان في ذلك مثلاً فإذا مثله مثل رجل ألجأه خوف إلى بئر فتدلى فيها وتعلق بغصن بأعلى شفيرها فوقعت رجلاه على عمدها فنظر فإذا هي حيات أربع قد أطلعن رؤوسهن من أحجاهن. ونظر إلى أسفل البئر فإذا هو بتنين فاغر فاه نحوه. ورفع رأسه إلى الغصن فإذا هي أصله جرذان أبيض وأسود يقرضان الغصن دائبين لا يفتران. فبينما هو في النظر والاجتهاد لنفسه وابتغاء الحيلة في ذلك، إذ نظر فإذا قريب منه نحلٌ قد صنعن شيئاً من العسل فأراد أن يأكل منه قليلا فشغل قلبه عن التفكر في أمره والتماس حيلة ينجي بها نفسه فنسي أن يذكر الجرذين الدائبين في قطع الغصن، وأنها إذا قطعاه وقع ف فِي التنين، فلم يزل لاهياً غافلاً حتى هلك.

فشبهت البئر بالدنيا المملوءة إفكاً وبلايا وشرورا ومخاوف. وشبهت الحيات الأربع بالأخلاط الأربعة التي هي في بدن الإنسان. فمتى ما هاج منها شيء كان كحمة الأفعى والسم المميت. وشبهت الجرذين بالليل والنهار. وشبهت قرضهما للغصن دائبين دور الليل والنهار في إفناء الأجل الذي هو حصن الحياة. وشبهت التنين بالموت الذي لا بد منه. وشبهت العسل بهذه الحلاوة القليلة التي يرى الإنسان ويشم ويطعم ويسمع ويلمس فتشغله عن نفسه وتنسيه أمره وتلهيه عن شأنه وتصرفه عن سبل النجاة. فصار أمري إلى الرضا بما لي وإصلاح ما استطعت إصلاحه من عملي لعلي أصادف فيما أمامي زماناً أصيب فيه دللاً على هداي وسلطاناً على نفسي وأعواناً على أمري، فأقمت على هذه الحال، وانصرفت من الهند إلى بلادي وقد انتسخت من كتبها كتبا كثيرة منها هذا الكتاب.

عرض كتاب كليلة ودمنة

ابتداء كليلة ودمنة, هو مما وضعته علماء الهند من ضرب الأمثال والأحاديث التي التمسوا أن يدخلوا فيها أبلغ ما يجدون من القول في النحو الذي أرادوا. ولم تزل العلماء من كل ملة وأهل كل لسان يلتمسون أن يعقل عنهم ما بنوا لذلك بصنوف من الحيل ويبتغون في إخراج ما عندهم من العقل حتى كان من تلك الحيل وضع بليغ الكلام ومتقنه على أفواه البهائم والطير، فاجتمع لهم بذلك خلال. أما هو فوجدوا منصرفاً في القول وشعاباً يأخذون فيها، وقد جمع هذا الكتاب لهواً وحكمة فاجتباه الحكماء لحكمته والسخفاء للهوه. فأما المتعلمون من الأحداث وغيرهم فنشطوا لعلمه وخفّ عليهم حفظه. فإذا خال الحدث واجتمع له الفعل وتدبّر المتدبر ما كان مما صار مقيداً مريوباً في صدره، وهو لا يدري ما هو عرف أنه قد ظفر من ذلك بكنوز عظام، فكان كالرجل الذي

يدرك حين يدرك فيجد أباه قد كنز له كنوزاً من الذهب وعقد له عقدا استغنى به عن استقبال السعي والطلب. ولم يكن إذ كنزت صنوف أصول العلم ثم كثرت فروع كل صنف منها حتى لا يستكمل منها شيء تدبّر أن يكنز العلل التي تجري عليها أقاويل العلماء.

فمن قرأ هذا الكتاب فليعرف الوجه الذي وضع عليه ولا يكن همه بلوغ آخره ليعرف إلى أية غاية يجري مؤلفه فيه، وأي شيء يخشى منه عندما نسبه إلى البهائم وأضافه إلى غير مفصح وغير ذلك من الأوضاع التي جعلها مثالاً وأمثالاً. فإن قارئه متى يفعل ذلك ولم يدر ما أريد بتلك المعاني ولا أي ثمرة يجتنى منها ولا أية نتيجة تحصل له من مقدمات ما يصفه هذا الكتاب، فإنه ولو استتم قراءته إلى آخره دون معرفة ما يقرأ منه، لم يعد عليه شيء يرجع إليه نفعه.

مثل المكتشف الكنز

ومن استكثر من جمع العلوم وقراءة الكتب من غير إعمال الروية فيما يقرأه كان خليقاً أن لا يصيبه إلا كما أصاب الرجل الذي زعمت العلماء أنه اجتاز ببعض المفاوز فظهرت له آثار كنوز، فجعل يحفز ويطلب فوقع على شيء كثير من عين وورق، فقال في نفسه: إن أخذت في نقل هذا المال كان إخراجي له قد قطعني الاشتغال بنقله عن اللذة بما أصيب منه، ولكن استأجر قوماً يحملونه إلى منزلي وأكون أنا آخرهم ولا أبقي ورائي قوماً يحملونه إلى منزلي وأكون أنا آخرهم ولا أبقي ورائي شيئاً أشغل فكري بنقله، وأكون قد استظهرت في إراحة بدني عن الكد بيسير أجرة أعطيها لهم. ثم جاء بالحمالين فجعل يسلّم إلى كل واحد منهم ما يقدر على حمله ويقول له: اذهب به إلى منزلي. فينطلق به الحمّال إلى منزل نفسه فيغدر به، حتى إذا لم يبق من الكنز شيء انطلق إلى منزله فلم ير فيه من المال شيئاً ووجد كل واحد من الحمالين قد فاز بما حمله لنفسه، ولم يكن له من ذلك العناء والتعب لأنه لم يفكر في آخر أمره.

مثل الجوز الصحيح والصحيفة الصفراء

وكذلك من يقرأ هذا الكتاب ولم يعلم غرضه ظاهراً وباطناً لم ينتفع بما بدا له من خطّه ونقشه، كما لو قدّموا لرجل جوزاً صحيحاً لم ينتفع به إلا أن يكسره وينتفع بما فيه. وكان كالرجل الذي طلب علم الفصيح فرسم له بعض أصدقائه صحيفة صفراء فيها فيصيح الكلام وتصاريفه ووجوهه، فانصرف المتعلم إلى منزله وجعل يكثر قراءتها فلا يقف على معانيها ولا يعرف ما فيها. ثم أنه جلس ذات يوم في محفل من أهل العلم والأدب والفطنة وهو يظن أنه قد اكتفى بما فازه من تلك الصحيفة فأخذ في محاورتهم، فجرت له كلمة أخطأ فيها فقال به عضهم: إنك قد أخطأت فيها والوجه غير ما تكلمت به. فقال: كيف أخطئ وقد قرأت الصحيفة الصفراء وهي في منزلي. فكانت مقالته أوجب الحجة عليه وزاده ذلك توهاً من الجهل وبعداً من الأدب.

مثل الرجل الصابر على اللص

ثم إن العاقل إذا فهم هذا الكتاب وتفقهه وبلغ نهايته وعلم ما فيه، ينبغي له أن يعمل بما علمه منه لينتفع به ويجعله مثالاً لا يحيد عنه. فإذا لم يفعل ذلك كان مثله مثل الرجل الذي يقال إن سارقاً تسوّر عليه وهو نائم في منزله فعلم به فقال: والله لأسكتنّ حتى أنظر ما يصنع ولا أذعره ولا أعلمه أني قد علمت به، فإذا بلغ مراده قمت إليه فنغّصت ذلك عليه. ثم أمسك عنه وجعل السارق يطوف، فطال تردده على الرجل في جمع ما يجده فغلبه النعاس فنام، وفرغ اللص مما أراد فأمكنه الذهاب. ثم استيقظ الرجل فوجد اللص قد فاز بما أخذ من المتاع فأقبل على نفسه باللوم حين عرف بأنه لم ينتفع بعلم موضع اللص إذ لم يستعمل في أمره ما يجب.

ويقال أن العلم لا يتم إلا بالعمل، وإن العلم كالشجرة، والعمل فيها كالثمرة، فليلزم صاحب العلم القيام بالعمل لينتفع به، وإن لم يستعمل ما يعلم فلا يسمّى عالماً. ولو أن رجلا كان عالما بطريق مخوف ثم سلكه على علم به يسمى جاهلاً. ولعله يكون قد حاسب نفسه فوجدها قد ركبت أهواءً وهجمت به فيما هو أعرف بضررها فيه وأذاها به من ذلك السالك في الطريق المخوف الذي عرفه. ومن ركب هواه ورفض ما ينبغي أن يعمل بما جرّبه أو علّمه غيره، كان كالمريض العلام بردىء الطعام والشراب وجيّده وخفيفه وثقيله ثم يحمله الشره على رديئه وترك استعمال ما هو أقرب إلى النجاة والتخلص من علته.

مثل البصير والأعمى

وأقل الناس عذراً في اجتناب محمود الفعال وارتكاب مذمومه من أبصره وميّزه وعرف فضل بعضه على بعض. كما أنه لو كان رجلان أحدهما بصير والآخر أعمى ساقهما الأجل إلى حفرة فوقعا فيها، كانا إذا صارا جميعاً في قعرها بمنزلة واحدة في الهلكة. غير أن البصير أقل عذراً عند الناس من الضرير، إذ كانت له عينان يبصر بهما. وذاك بما صار إليه جاهل غير عارف.

وعلى العالم أن يبدأ بنفسه فيؤدبها بعلمه ولا تكون غايته اقتناءه العلم لمعاونة غيره، فيكون كالعين التي يشرب الناس ماءها وليس لها في ذلك شيء من المنفعة، وكدودة القز التي تحكم صنعته ولا تنتفع به.

فقد ينبغي لمن طلب العلم أن يبدأ بعظة نفسه. ثم عليه بعد ذلك أن يقبسه، فإن خلالاً ينبغي لصالح الدنيا أن يقتبسها، منا اتخاذ المعروف وأن لا يعيب أحداً بشيء هو فيه، فيكون كالأعمى الذي يعبر الأعمى بعماه. وينبغي لمن طلب أمراً أن يكون له فيه غاية يعمل بها ويقف عندها ولا يتمادى في الطلب. فإنه يقال من سار إلى غير غاية فيوشك أن تنقطع به مطيّته، وأنه كان حقيقاً أن لا يعنّي نفسه على طلب ما لا حدّ له وما لم ينله أحد قبله، ولا يتأسف عليه ولا يكون لدنياه مؤثراً على آخرته فإنه من لا يعلق قلبه بالعنايات قلت حسرته عند مفارقتها. وقد يقال في أمرين إنهما يجملان بكل أحد، وهما النسك والمال، وفي أمرين إنهما لا يجملان بكل أحد: الملك أن يشارك في ملكه والرجل أن يشارك في زوجته. فالخلتان الأوليان مثلهما مثل النار التي تحرق كل حطب يقذف فيها. والخلّتان الأخريان كالماء والنار اللذين لا يمكن اجتماعهما.

مثل الفقير واللص

وليس ينبغي للعاقل أن يغبط أحداً إذا ساق الله له صنيعاً. فلعلّ الله يرزقه مثله من حيث لا يدري. ومن أمثال ذلك أن رجلاً كانت به فاقةٌ وعري، فألجأه الأمر إلى أن سأل أقاربه وأصدقاءه فلم يجد عند أحدهم فضلاً يعود به عليه. فبينما هو ذات ليلةٍ في منزله إذ أبصر سارقاً يجول في منزله، فقال: والله ما في منزلي شيء أخاف عليه. فاجتهد السارق جهده، فبينما هو يجول إذ وقعت يده على خابيةٍ فيها حنظة، فقال: والله ما أحبّ أن يكون عنائي الليلة باطلاً، ولعلي لا أصل إلى موضع آخر، ولكن أحمل هذه الحنطة، فهي خيرٌ من الرجوع بغير شيء. ثم بسط رداءه ليصبّ عليه الحنطة، فقال الرجل: ليس لي على هذا صبر، أيذهب هذا بهذه الحنطة وليس ورائي سواها، فيجتمع عليّ العريّ وذهاب ما كنت أقتات به، ولا تجتمع والله هاتان الخلتان على أحد إلا أهلكتاه. ثم صاح بالسارق وأخذ هراوة كانت عند رأسه. فلم يكن للسارق إلا الهرب منه، فترك رداءه ونجا بنفسه، فأخذه الرجل وغدا كاسياً.

وليس ينبغي أن يركن إلى مثل هذا المثل ويدع ما يجب عليه من العمل والسعي لصلاح معاشه، ولا أن ينظر إلى من تؤاتيه المقادير وتساعده على غير التماس منه. فإن أولئك في الناس قليل، والجمهور منهم من أتعب نفسه في الكدّ والسعي فيما يصلح أمره وينال به ما أراد. وينبغي أن يكون حرصه على ما طاب كسبه وحسن نفعه، ولا يعرّض نفسه لما يجلب عليه العناء والشقاء، فيكون كالحمامة التي تفرّخ الفراخ للذبح ولا يمنعها ذلك أن تعود فتفرخ في موضعها وتقيم بمكانها وتؤخذ فراخها ثانية فتذبح.

وقد يقال إن الله تعالى قد جعل لكل شيء سبباً، ومن تجاوز في الأشياء حدها أوشك أن يلحقه تقصير عن بلوغها. ويقال من كان سعيه لآخرته ودنياه فحياته له وعليه. ويقال في ثلاثة أشياء يجب على صاحب الدنيا إصلاحها فيبذل جهده فيها: منها أمر معيشته، ومنها ما بينه وبين الناس، ومنها ما يكسبه الذكر الجميل بعده. وقد قيل في أمور كنّ فيه لم يستقم له عمل، منها التواني، ومنها تضييع الفرص، ومنها التصديق لكلّ مخبر بشيءٍ عقله ولا يعرف استقامته فيصدّقه.

وينبغي للعاقل أن يكون لهواه متهماً ولا يقبل من كلّ أحد حديثاً لا يتمادى في الخطإ إذا التبس عليه أمره حتى يتبين له الصواب وتتوضح له الحقيقة، ويكون كالرجل الذي يجوز عن الطريق فيستمرّ على الضلال ولا يزداد في السير إلا جهداً وعن القصد إلا بعداً. وكالرجل الذي تقذى عيناه ولا يحكّهما حتى ربما كان ذلك الحك سبباً لذهابهما. وعلى العاقل أن لا يصدّق بالقضاء والقدر ويأخذ بالحزم، ويحب للناس ما يحبّه لنفسه، ولا يلتمس صلاح نفسه بفساد غيره، فإنه من فعل ذلك كان خليقاً أن يصبه ما أصاب التاجر من رفيقه.

مثل الشريك المحتال

يقال أنه كان رجل تاجر وله شريك فاستأجرا حانوتاً وجعلا فيه متاعهما، وكان أحدهما قريب المنزل إلى الحنانوت فأضمر في نفسه أن يسرق عِدلا من أعدال رفيقه. وفكّر في الحيلة في ذلك، وقال: إن أتيت ليلاً لا آمن أن أحمل عدلا من أعدالي أو رزمة من متاعي ولا أعرفها فيذهب عنائي وتعبي باطلا. واخذ رداءه وألقاه على العِدل الذي أضمر أخذه ثم مضى إلى منزله.

فجاء شريكه بعد ذلك ليصلح أعداله، فقال: "والله هذا رداء صاحبي ولا أحسبه إلا قد نسيه، وأما الرأي فأن لا أعده ها هنا بل أجعله على أعداله فلعله يسبقني إلى الحانوت فيجده حيث يحب. ثم ألقى الرداء على عدل من أعداله وقفل الحانوت وانصرف.

فلما كان الليل جاء رفيقه ومعه رجل قد واطأه على ما عزم عليه وضمن له جعلا على حمله، فصار إلى الحانوت والتمس الرداء في الظلمة فوجده على أحد الأعدال فاحتمله بعد الجهد الجهيد حتى أخرجه هو والرجل. ولم يزالا يتراوحان على حمله حتى أتيا به منزله ورمى نفسه تعباً. فلما أصبح نظر فإذا هو بعض أعداله فندم أشد الندم. ثم انطلق نحو الحانوت فوجد رفيقه قد سبقه وفتح الباب وتفقد العِدل فلم يجده، فاغتمّ لذلك غمّاً شديداً، وقال: واسوأتاه من رفيقي الصالح الذي ائتمنتني على ماله وخلّفني وانصرف، ماذا يكون حالي عنده ولا شك في تهمته إياي. ثم أتى رفيقه فوجده مغتمّاً فسأله عن حاله فقال له: إني قد فقدت عِدلاً من أعدالك ولا أعلم سببه ولا أشك تهمتك إياي، وإني قد وطّنت نفسي على غرامته.

فقال له: لا تغتمّ يا أخي، فإن الخيانة شر ما عمله الإنسان. والمكر والخديعة لا يؤديان إلى الخير وصاحبهما مغرور أبدا، وما عاد وبال البغي إلا على صاحبه. وأنا أحد من مكر وخدع واحتال. فقال له رفيقه: وكيف كان ذلك؟ فأخبره بأمره وقص عليه قصته، فقال له صديقه: ما كان مثلك إلا كمثل اللص المخدوع والتاجر. قال: وكيف كان ذلك؟

مثل اللص المخدوع

قال: زعموا أنه كان تاجر في منزله خابيتان، إحداهما مملوءة حنطة والأخرى مملوءة ذهبا. فترقبه بعض اللصوص زماناً، حتى إذا كان في بعض الأيام تشاغل التاجر عن المنزل في بعض أشغاله فتغفله اللص ودخل المنزل وكمن في بعض نواحيه. فما همّ بأخذ الخابية التي فيها الدنانير أخذ التي فيها الحنطة فاحتملها. ولم يزل في كد وتعب حتى أتى منزله. فلما فتحها وعلم ما فيها ندم.

فقال له الخائن: ما بعّدت المثل ولا تجاوزت القياس وقد اعترفت بذنبي، غير أن النفس الردئية تأمر بالفحشاء. فقبل الرجل معذرته وأضرب عن توبيخه وعن الثقة به، وندم هو عندما عاين سوء فعله وتقدم جهله.

وقد ينبغي للناظر في كتابنا هذا أن لا يجعل غايته التصفح لتزاويقه، بل ليشرف على ما تضمن من الأمثال حتى يأتي على آخره ويقف عند كل مثل وكلمة ويعمل فيها رويته.

مثل الأخ الصغير والمُحسن إلى أخويه

ويكون كأحد الإخوة الثلاثة الذي خلّف لهم أبوهم المال الكثير فتنازعوه بينهم. فأما الاثنان الكبيران فإنهما أسرعا في إتلافه وإنفاقه في غير وجهه. وأما الصغير فإنه عندما نظر إلى ما صار إليه أخواه من إسرافهما وخلوّهما من المال، أقبل على نفسه يشاورهما وتفكر في سر تصرف أخويه وقال: يا نفس إنما المال يطلبه صاحبه ويجمعه في كل وجهٍ لبقاء حاله وصلاح دنياه وشرف منزلته في أعين الناس واستغنائه عما في أيديهم وصرفه في وجهه من صلة الرحم والإنفاق على الولد والإفضال على الإخوان. فمن كان له مال ولا ينفقه، كان كالذي يعد فقيراً وإن كان موسراً. وإن هو أحسن إمساكه والقيام عليه، لم يعدم الأمرين جميعاً من دنيا تضاف إليه وحمدٍ يبقى عليه. ومتى قصد على حسرة وندامة.

وليكن الرأي في إمساك هذا المال بأن أعين أخويّ وينفعني الله تعالى به، وإنما هو مال أبي وأبيهما، وإن أولى الإنفاق صلة الرحم وإن بعدت فكيف بأخوي.

وكذلك يجب على قارئ هذا الكتاب أن يديم النظر فيه ويلتمس جواهر معانيه ولا يظن أن مغزاه إنما هو الإخبار عن حيلة بهيمتين أو محاورة سبع لثور، فينصرف بذلك عن الغرض المقصود، ويكون مثله مثل الصياد والصدقة.

مثل الصياد والصدَفة

كان صياد في بعض الخلجان يصيد ذات يوم في الماء إذ أبصر صَدَفة فتوهمها شيئاً، فألقى شبكته فاشتملت على سمكة كانت قريبا منها فخلاها وقذف نفسه في الماء ليأخذ الصدفة. فما أخرجها وجدها فارغة فندم على ما في يده وتأسف على ما فاته. ولما كان في اليوم الثاني تنحى عن ذلك المكان ورمى شبكته فأصاب حوتاً صغيراً فحاول أخذه ورأى أيضاً صدفة سنيّة فلم يلتفت إليها وساء ظنه بها وتركها. فاجتاز بعض الصيادين بذلك المكان فرآها وأخذها فوجد فيها درة تساوي مبلغاً وافراً.

وكذلك الجهال على إغفال أمر التفكر والاغترار في أمر هذا الكتاب وترك الوقوف على أسرار معانيه والأخذ بظاهره دون الأخذ بباطنه. فقد قالت العلماء: إن مثل هذا الرجل الذي يظفر بعلم الفلسفة ويصرف همه إلى ابواب الهزل، كرجل أصاب روضة هواؤها صحيح وتربتها طيبة فزرعها وسقاها حتى إذا قرب خيرها وأينعت، تشاغل عن ثمرها بجمع ما فيها من الزهر وقطع الشوك فأهلك بتشاغله ما كان أحسن فائدة وأجمل عائدة.

وينبغي للناظر في هذا الكتاب ومقتنيه أن يعلم أنه ينقسم إلى أربعة أقسام وأغراض: أحدهما ما قصد من وضعه على ألسن البهائم غير الناطقة ليتسارع إلى قراءته واقتنائه أهل الهزل من الشبان فيستميل به قلوبهم، لأن هذا هو الغرض بالنوادر من الحيوانات. والثاني إظهار خيالات الحيوانات بصنوف الألوان والأصباغ ليكون أنساً لقلوب الملوك ويكون حرصهم أشد للنزهة في تلك الصور. والثالث أن يكون على هذه الصفة فيتخذه الملوك والسوقة فيكثر بذلك انتساخه ولا يبطل، فيخلق على مرور الأيام بل ينتفع بذلك المصور والناسخ أبدا.

والغرض الرابع، وهو الأقصى، وذلك يخص الفيلسوف خاصة، أعني الوقوف على أسرار معاني الكتاب الباطنة.

باب الأسد والثور

قال دبشليم ملك الهند لبيدبا رأس الفلاسفة: اضرب لي مثل الرجلين المتحابين يقطع بينهما الكذوب الخائن ويحملهما على العداوة.

قال بيدبا: إذا ابتليَ الرجلان المتحابان بأن يدخل بينهما الكذوب الخائن تقاطعا وتدابرا.

مثل التاجر وبنيه

كان في أرض دستبا تاجر مكثرٌ وكان له بنون. فلما أدركوا أسرعوا في إتلاف مال أبيهم ولم يحترفوا حرفة يصيبون بها مالاً. فلامهم أبوهم ووعظهم فكان من عظته لهم أن قال: يابنيِّ، إن صاحب الدنيا يطلب ثلاثة أمور لن يدركها إلا بأربعة أشياء. أما الثلاثة التي تطلب فالسعة في المعيشة والمنزلة عند الناس والبلغة إلى الآخرة. وأما الأربعة التي لا تصاب الثلاثة إلا بها فاكتساب المال من معروف وجهه، ثم حسن القيام على ما اكتسب منه والتثمير له بعد اكتسابه، ثم إنفاقه فيما يصلح به المرء معيشته ويرضي به الأهل والإخوان، ويعود عليه في الآخرة نفعه, ثم التوقي لجميع الآفات جهده. فمن أضاع شيئاً من هذه الخلال الأربع لم يدرك ما أراده، لأنه إن لم يكن ذا مال وذا اكتساب، ثم لم يصلح ماله ولم يحسن القيام عليه أوشك أن ينفذ ويبقى بلا مال. وإن هو أنفقه ولم يثمّر لم تمنعه قلة الإنفاق من سرعة النفاد كالكحل الذي إنما يؤخذ منه على الميل مثل الغبار، ثم هو مع ذلك سريع النفاذ. وإن هو اكتسبه وأصلحه وثمّره ثم أمسك عن إنفاقه في وجوهه ومنافعه كان ممن يعد فقيراً لا مال له، ثم لم يمنع ذلك أن يفارقه ويذهب حيث لا يريد بالمقادير والعلل، كمحبس الماء الذي لا يزال ينصبّ إليه ولم يكن له مغيض ومخرج يخرج منه بقدر ما يفضل عنه انبثق بثقاً لا يصلح، فذهب الماء ضياعاً وفساداً.

ثم إن بني التاجر اتعظوا وأخذوا بأمر أبيهم فانطلق كبيرهم في تجارة متوجهاً إلى أرض يقال لها متور. فمر على طريقه ذلك بمكان فيه وحل شديد ومعه عجله يجرها ثوران يقال لأحدهما شتربة وللآخر بندبة. فوحل

شتربة في ذلك الوحل فعالجه الرجل وأعوانه فلم يقدروا على إخراجه، فذهب التاجر وخلّف عنده رجلا وأمره أن يقوم عليه أياماً حتى إذا نشف الوحل أخرجه وأتبعه به.

فلما أن كان الغد من ذلك اليوم ضجر الرجل بمكانه فلحق بالتاجر وترك الثور وأخبره أنه قد مات، وقال له إن الإنسان إذا انقضت مدته وحانت منيته فهو وإن اجتهد في التوقي من الأمور التي يخاف فيها على نفسه الهلاك لم يغن ذلك عنه شيئاً وربما عاد اجتهاده في توقيه وحذره وبالاً عليه.

مثل الرجل الهارب من الموت

كالذي قيل إن رجلاً سلك مفازة فيها خوف من السباع وكان الرجل خبيراً بوعث تلك الأرج وخوفها. فلما سار غير بعيد اعترض له ذئب من أحد الذئاب وأضراها. فلما رأى الرجل أن الذئب قاصد نحوه اشتد وجعله ونظر يميناً وشمالاً ليجد موضعاً يتحرّز فيه من الذئب فعاين قرية على شاطئ نهر خلف واد فقصدها.
فلما انتهى إلى النهر لم يجد عليه قنطرة ليقطعه والذئب كان يدركه فقال: كيف أمتنع من الذئب والنهر عميق وأنا لا أحسن السباحة على أني ألقي نفسي في الماء. فلما نزل في النهر كاد يغرق فرآه قوم من أهل القرية فأرسلوا إليه من استخرجه وقد أشرف على الهلكة فنجا من الذئب ومن الغرق. ثم رأى على شاطئ الوادي بيتاً منفرداً فقال أدخل هذا البيت فأستريح فيه. فلما دخله وجد جماعة من اللصوص قد قطعوا الطريق على رجل من التجار وهم يقتسمون ماله ويريدون قتله. فخاف الرجل على نفسه ومضى نحو القرية فأسند ظهره إلى حائط من حيطانها ليستريح مما حل به من الهول والإعياء، فسقط الحائط عليه فقتله. قال التاجر: صدقت وقد بلغني هذا الحديث.

ثم إن الثور المدعو شتربة انبعث من مكانه فلم يزل يدب حتى انتهى إلى مرج مخصب كثير الماء والكلإ فأقام فيه، فلم يلبث أن سمن وأمن فجعل يزأر ويخور ويرفع صوته بالخوار.

وكان قربه أسد هو ملك تلك الناحية، ومعه سباع كثيرة من الذئاب وبنات آوى والثعالب وسائر السباع. وكان الأسد مزهواً منفرداً برأيه، ورأيه غير كامل. فلما سمع الأسد خوار الثور، ولم يكن رأى ثوراً قط ولا سمع خواره، رعب وكره أن يفطن لذلك جنده فأقام بمكانه ذلك لا يبرح وجهاً. وكان ممن معه ابنا آوى يقال لأحدهما كليلة وللآخر دمنة، وكلاهما ذو أدب ودهاء. وكان دمنة شرّهما نفساً وأشدّهما تطلعاً إلى الأشياء، ولم يكن الأسد عرفهما. فقال دمنة لكليلة. ما ترى يا أخي شأن هذا الأسد مقيماً بمكان واحد لا يبرح ولا ينشط فيأتيه جنده كل يوم بطعامه؟ فقال كليلة: ما لك والمسألة عما ليس من شأنك؟ أما حالنا نحن فحال صدق ونحن بباب ملك واحد واجدين ما نأكل ولسنا من أهل الطبقة التي يتناول أهلها كلام الملوك وينظرون في أمورهم. فاسكت عن هذا واعلم أنه من تكلف من القول والفعل ما ليس من شأنه أصابه ما أصاب القرد.

قال دمنة: وكيف كان ذلك؟

مثل القرد والنجار

زعموا أن قرداً رأى نجاراً يشق خشبة بوتدين له راكباً عليها كالأسوار على الفرس، وأنه كلما أوتد وتداً نزع وتداً فقدمه. ثم إن النجار قام لبعض أموره فانطلق القرد يتكلف ما ليس من صنعته ولا من شأنه، فركب الخشبة وجعل ظهره قبل الوتد فتدلى ذنبه في ذلك الشق وعالج الوتد لينزعه. فلما انتزع انضمت الخشبة على ذنبه فخرّ مغشياً عليه. فلم يزل على تلك الحالة حتى جاء النجار فكان ما لقي القرد من صاحبه من الضرب والعذاب أشد من ذلك.

قال دمنة: قد سمعت مثلك وفهمته ولكن اعلم أنه ليس كل من دنا من الملوك إنما يدنو منهم لبطنه، إنما البطن يحشى بكل مكان، ولكن ليلتمس الرفعة والمنزل الذي يسر الصديق ويسوء العدو. وإن أدنى الناس وضعفاءهم القليلة مروءتهم هم الذين يرضون بالدون ويفرحون به، كالكلب الذي يصيب عظماً يابساً فيفرح به. فأما أهل المروءة والوفاء فلا يغنيهم القليل ولا يرضون بالدون حتى يسموا إلى ما هم له أهل، كالأسد الذي يفترس الأرنب. فإذا رأى الإتان ترك الأرنب وطلب الأتان. ألا ترى أن الكلب يبصبص بذنبه كثيراً حتى تلقى له الكسرة. أما الفيل المعترف بفضله وقوته إذا قدّم إليه علفه لم يأكله حتى يمسح ويملّق. فمن عاش غير خامل المنزلة ذا فضل على نفسه وأصحابه فهو، وإن قل عمره، طويل العمر. ومن عاش في وحدة وضيق وقلة خير

على نفسه وأصحابه فهو، وغن طال عمره، قصير العمر. وقد كان يقال: البائس من طال عمره في ضر. ويقال: ليعدّ من البقر والغنم من لم يكن له همّ إلا بطنه.

قال كليلة: قد عرفت مقالتك فراجع عقلك واعلم أن لكل إنسان منزلة وقدراً. فإذا كان في منزلته متماسك الحال في أهل طبقته كان حقيقاً أن يقنع ويرضى. وليست لنا من المنزلة ما نحط به حالنا التي نحن عليها.

قال دمنة: إن المنازل مشتركة، فذو المروءة ترفعه مروءته من المنزلة الوضيعة إلى المننزلة الرفيعة، والذي لا مروءة له هو يحط نفسه من المنزلة الرفيعة إلى المنزلة الوضيعة. والارتفاع من صغر المنازل إلى أشرفها شديد. ومؤونة الانحطاط من الشرف إلى الضعة سهل. وإنما مثل ذلك مثل الحجر الثقيل الذي رفعه من الأرض إلى العاتق عسير وطرحه من العاتق إلى الأرض يسير. فنحن أخوان نروم ما فوقنا من المنازل طاقتنا ونلتمس ذلك بمروءتنا، ولا نقيم على مرتبتنا هذه ونحن نستطيع ذلك.

قال كليلة: فما الذي أنت فيه الآن مجمع؟

قال دمنة: أريد أن أتعرّض للأسد عند هذه الوهلة. فإن الأسد ضعيف الرأي، وقد التبس عليه وعلى جنوده أمرهم. ولعلي على هذا الحال أدنو من الأسد بنصيحة فأصيب عنده منزلة وجاهاً.

قال كليلة: فما الذي أنت فيه الآن مجمع؟

قال دمنة: أريد أن أتعرّض للأسد عند هذه الوهلة. فإن الأسد ضعيف الرأي، وقد التبس عليه وعلى جنوده أمرهم. ولعلي على هذا الحال أدنو من الأسد بنصيحة فأصيب عنده منزلة وجاها.

قال كليلة: وما يدريك أن الأسد قد التبس عليه أمره؟

قال دمنة: أعرف ذلك بالرأي والحرص، فإن ذا الرأي ربما عرف باطن أمر صاحبه بما يظهر منه، حتى ربما عرف ذلك في هيئته وشكله.

قال كليلة: كيف ترجو المكانة عند الأسد ولست صاحب سلطان ولا لك علم بخدمة السلاطين ومعاشرتهم وآدابهم.

قال دمنة: إن الرجل القوي الشديد البطش لا يعيبه الحمل الثقيل، والضعيف لا تغني عنه الحيلة شيئاً ولا تضر العاقل الغربة، ولا يمتنع من المتواضع اللين الجانب أحد.

قال كليلة: فإن السلطان لا يتوخى بكرامته أفضل من بحضرته ولكنه يؤثر بذلك من دنا منه. ويقال إن مثل السلطان في ذلك مثل الكرم الذي لا يتعلق بأكرم الشجر، إنما يتعلق بمن دنا منه. فكيف ترجو المنزلة من الأسد ولست تدنو منه؟

قال دمنة: لقد فهمت ما ذكرت وأنت صادق. ولكني أعلم أن الذين هم أقرب إلى السلطان منا قد كانوا وليست لهم منازلهم. ثم دنوا منه بعد البعد فبلغوا المنازل. فأنا ملتمس بلوغ منازلهم ومكانهم جهدي بالدنو منه. وقد كان يقال إنه لا يواظب على باب السلطان أحد فيلقي عنه الأنفة ويحتمل الأذى ويكظم الغيظ ويرفق بالناس إلا وصل إلى أعلى درجة من السلطان.

قال كليلة: قد فهمت: فهبك قد وصلت إلى الأسد، فما توفيقك الذي ترجو أن تنال به المنزلة عنده والحظوة لديه؟

قال دمنة: لو قد دنوت منه عرفت أخلاقه ثم انحططت في هواه ورفقت بمتابعته وقلة الخلاف عليه. فإذا أراد أمراً هو في نفسي صواب زينته له وبصّرته ما فيه وشجعته له حتى يزداد به سروراً. وإذا أراد أمراً أخاف عليه ضرره وشَيَّنْه بصّرته ما فيه من الضرر والشين، وما في تركه من النفع والزين، ودخلت عليه بالرفق واللين. فأنا أرجو أن يزداد لي الأسد بذلك خيراً وأن يرى في ذلك مني ما لم ير من غيري. فإن الرجل الأديب الرفيق لو شاء أن يبطل حقاً ويحق باطلاً أحياناً لفعل، كالمصور الماهر الذي يصور في الجدار تصاوير فترى

كأنها خارجة من الجدار وليست بخارجه، وأخرى تراها كأنها داخلة وليست بداخلة فيه. فإذا أبصر الأسد فضلي وعرفه وعرف ما عندي كان هو أحرص على كرامتي وتقربي منه.

قال كليلة: أما إذا كان هذا رأيك فإني أحذرك صحبة السلطان فإن صحبته خطر عظيم. وقد قالت العلماء: في أمور ثلاثة لا يجتزئ عليها إلا الأهوج ولا يسلم منها إلا القليل؛ منها صحبة السلطان، ومنها شرب السم للتجربة، ومنا ائتمان النساء على الأسرار. وإنما شبّهت العلماء السلطان بالجبل الوعر الصعب المسلك الذي فيه كل ثمرة طيبة، وهو معدن النمور والأسد والذئاب وكل سبع مخوف، والارتقاء إليه شديد والمقام فيه أخوف.

قال دمنة: صدقت فيما وصفت غير أنه من لم يركب الأهوال لم يدرك الرغائب، ومن ترك الذي لعله يبلغ فيه حاجته هيبة له ومخافة لما لعله يتوقى فليس ببالغ جسيماً. وقد قيل في أعمال ثلاثة لا يستطيعها أحد إلا بمعونة من ارتفاع الهمة وعظم الخطر: منها صحبة السلطان ومنها تجارة البحر ومنها مناجزة العدو. وقد قالت العلماء في الرجل الفاضل المروءة إنه لا ينبغي أن يُرى في مكانين ولا يليق به غيرهما، إما مع الملوك مكرّما وإما مع النساك متبتّلاً، كالفيل إنما يرغب ببقائه وجماله في مكانين، إما في بريةٍ وحشياً وإما مركباً للملوك.

قال كليلة: فخار الله لك فيما عزمت عليه. وأما أنا فإني مخالفك برأيك هذا.

ثم إن دمنة انطلق حتى دخل على الأسد وسلّم عليه. فقال الأسد لمن عنده: من هذا؟ قالوا: هذا فلان بن فلان. فقال الأسد: قد كنت أعرف أباه. فأدناه الأسد ثم قال له: أين كنت؟ فقال دمنة: لم أزل مرابطاً بباب الملك رجاء أن يحضر أمرٌ أعين الملك فيه. فقد تكثر عنده الأمور التي ربما احتيج فيها إلى من لا يؤبه له، فإنه لا يكاد يخلو أحد، وإن كان صغير القدر والمنزلة، أن يكون عنده منفعة وإن صغرت. فإن العود المنثور في الأرض ربما انتفع به المنتفع تأكله أذنه فيحكها به. فالحيوان العالم بالضر أحرى أن يُنتفع به.

فلما سمع الأسد كلام دمنة أعجبه وظنّ أن عنده نصيحة ورأيا، فأقبل على قرابته فقال لهم: إن الرجل ذا المروءة والعلم يكون خامل المنزلة غامض الأمر، ثم تأبى مروءته وعقله ألا يتبين ويعرف كالشعلة من النار التي يصونها صاحبها وتأبى إلا ارتفاعاً.

فلما عرف دمنة أن الأسد قد أعجب به قال: أيها الملك إن رعيتك ومن بحضرتك حذروا أن يرفعوا ما عندهم إليك، ولا تنزلهم منازلهم إلى بذلك كالزرع المدفون في الأرض من الحنطة والشعير وسائر الأنواع لا يدري أحد ما أجناسها حتى تكون هي التي تخرج وتظهر. وحقٌ على السلطان أن يبلغ كل امرئ مرتبته على قدر نصيحته ورأيه وما يجد عنده من المنفعة والأدب. فإنه كان يقال: في أمرين لا ينبغي لأحد، وإن كان ملكا، أن يضع واحداً منهما في غير موضعه ولا يزيله في منزلته، وهما حلية الرجلين وحلية الرأس. ومن ضبّب الياقوت واللؤلؤ بالرصاص فليس ذلك مما يصغّر باللؤلؤ والياقوت ولكنها تعد جهالة ممن فعل ذلك. وكذلك يقال: لا يصحبنّ الرجل صاحباً لا يعرف ليمينه من شماله موضعاً. وإنما يستخرج ما عند الرجال ولاتها وما عند الجند قادتها وما في الدين وتأويله وعلماؤه وفقهاؤه. وقد قيل: إن أشياء ثلاثةٌ فضل ما بينها متضارب وإن كان يجمعها اسم واحد: فضل المقاتل على المقاتل، والعالم على العالم، والمتكلم على المتكلم. وإن كثرة الأعوان إذا لم يكونوا متحيزين مضرّة في العمل. وجاء العمل بصالح الأعوان لا بكثرتهم، كالرجل الذي يحمل الياقوت فلا يثقل عليه حمله وهو واجد به حاجته. وكذلك العمل الذي بلوغه بالرفق لا يصلحه العنف وإن استظهر به. والوالي حقيق ألا يحتقر مروءة رجل وإن صغرت منزلته. وإن الصغير ربما عظم فعظّم كالعصب يؤخذ من الميتة فيستعمل في القوس فيصير إلى حد كرامة عند الملك لحاجته إليه في القوة والبأس، ويستعمل في السروج فيصير مركباً للملوك والأشراف.

وأحب دمنة أن ينال المنزلة والكرامة من الملك وأن يعلم القوم أن ذلك ليس من قبل معرفة الأسد إياه ولكن لمروءته في نفسه ورأيه فقط، فقال: إن السلطان لا يقرّب الرجال لقرب آبائهم منه، ولا يباعدهم لبعدهم ولكنه ينزلهم على قدر ما عند كل امرئ منهم من المنافع. فإنه ليس شيء أقرب إلى الرجل من جسده فيعتل عليه بعضه فلا يدفع عنه تلك العلة إلا بدواء يؤتى به من بعد. والجرذ في البيت جار مجاور، فلما صار مؤذياً عوديَ ونفيَ. والبازيّ وحشيّ فلما صار نافعاً اقتني واتخذ حتى أن الملك يحمله على يده.

فلما فرغ دمنة من كلامه هذا ازداد به الأسد عجباً وأحسن عليه الرد والثناء وقال لجلسائه: إنه لا ينبغي للوالي أن يلحّ في تضييع حق ذي الحق ووضع ذي المنزلة عن منزلته، بل ينبغي للوالي أن يستدرك ما مضى من

تفريطه في ذلك ولا يغترّ برضا المفعول به وإقراره بذلك. فإن الناس في ذلك رجلان: رجل أصل طباعه الشراسة، فهو كالحية إن وطئها الواطئ فلم تلدغه لم يكن جديراً أن يغرّه ذلك فيعود إلى وطئها فلتدغه.

ورجل أصل طباعه السهولة، فهو كالصندل البارد الذي إذا أفرط في حكه عاد حاراً مؤذيا.

ثم إن دمنة لما استأنس بالأسد خلا به وقال له: إني قد رأيت الملك أقام بمكانه هذا زمنا لا يبرح منه فأنى ذلك؟

قال الأسد وكره أن يعلم دمنة أن ذلك منه جبن: لم يكن ذلك ليأس.

فبينما هما يتحاوران إذ خار الثور خواراً شديداً هيّج روح الأسد حتى أخبر دمنة بما في نفسه، فقال: هذا الصوت الذي أصمع لا أدري ما هو. غير أني أظن أن جثة صاحبه على قدر صوته، وأن قوته على قدر جثته. فإن كان ذلك كذلك فليس لنا هنا مكان ولا قرار.

قال دمنة: فهل راب الملك شيء غير هذا الصوت؟

قال الأسد: لم يريني شيء غيره.

قال دمنة: فليس الملك بحقيق أن يبلغ منه هذا الصوت إلى أن يدع مكانه. فإنه يقال: إن السكرَ الضعيف آفته الماء، وإن العقل آفته الصلف، والمروءة آفتها النميمة، والقلب الضعيف آفته الصوت الشديد والجلبة. وإن في بعض الأمثال بياناً من أن ليس كل الأصوات تُهاب.

قال الأسد: فما هذا المثل؟

مثل الثعلب والطبل

قال دمنة: زعموا أن ثعلباً جائعاً أتى على أجمة فيها طبل ملقى إلى جانب شجرة. فإذا هبت الريح تحركت أغصان الشجرة وأصابت الطبل فصوّت صوتاً شديدا. فسمع الثعلب ذلك الصوت فتوجه نحوه حتى انتهى إلى الطبل. فلما رآه ضخما قال في نفسه: إن هذا لخليق بكثرة الشحم واللحم. فعالجه أشد العلاج حتى شقّه. فلما رآه أجوف، قال: لعلّ أفشل الأشياء أعظمها جثة وأعظمها صوتا.

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أن هذا الصوت الذي يروّعنا لو انتهينا إليه وجدناه أيسر مما في أنفسنا. وإن شاء الملك بعثني نحو هذا الصوت وأقام هو مكانه حتى أرجع إليه ببيان خبره. فوافق الأسد دمنة على قوله فإذن له.

فانطلق دمنة نحو المكان الذي فيه الثور. فلما فصل دمنة من عند الأسد فكّر الأسد في أمره فندم على إرساله دمنة حيث أرسله، وقال في نفسه: ما أصبت بائتماني دمنة على ما ائتمنته عليه وإطلاعه على سري بعد أن كان مطروحاً على بابي. فإن الرجل الذي يحضر باب السلطان إذا كانت قد أطليت جفوته من غير جرم، أو كان متعنّتاً عليه عند سلطانه، أو معروفاً بالحرص والشره، أو كان أصابه ضرّ وضيق فلم ينتعش، أو حيل بينه وبين ما كان في يديه من سلطان أو مال، أو كان يلي عملاً ففرق وانتقص منه وشورك بينه وبين آخر، أو كان اجترم جرماً يخاف العقوبة عليه، أو كان شريراً لا يحب الخير، أو كان وقف على خزاية، أو كان جنى جناية في نظرائه، أو كان أبلى هو ونظراؤه بلاءً حسناً ففضلوا في الجزاء، أو كان له عدو مشاحن ففضّل عليه في المنزلة والجاه، أو كان غير موثوق به في الدين والهوى، أو كان يرجو في شيء مما ينفعه، أو هو لعدو السلطان سلماً ولسلمه حرباً. فكل هؤلاء ليس السلطان حقيقاً أن يعجّل الاسترسال إليهم والثقة بهم والائتمان لهم. وإن دمنة ذو دهاء وأرب، فقد كان ببابي مطروحاً فلعله قد احتمل بذلك ضغنا يحمله على أن يخزنني ويتعبني. ولعله إن صادف صاحب الصوت أقوى مني سلطاناً يرغب فيما عنده فيميل معه عليّ ويدلّه على عورتي.

فلم يزل الأسد يفكر في ذلك حتى استخفه الفكر من مكانه فجعل يمشي ويقعد وينظر إلى الطريق حتى رفع له دمنة مقبلاً. فلما رآه قد أقبل وليس معه أحد اطمأنت نفسه ورجع إلى مكانه، إرادة أن لا يظن دمنة أن شيئاً استخفه من مكانه.

فلما دخل دمنة على الأسد قال له: ما صنع؟ قال: رأيت ثوراً هو صاحب الصوت الذي سمعت. قال الأسد: فما قوته؟ قال: لا شوكة له، قد دنوت منه وكلمته وحاورته محاورة الأكفاء فلم يستطع لي شيئاً. قال الأسد: لا يغرّنك ذلك منه ولا يصغرنّ عندك أمره، فإن الريح الشديدة لا تحطم الحشيش الضعيف وهي تحطم عظام الشجر والقصور. وكذلك الصناديد يقصد بعضها بعضاً. قال دمنة: لا يهابنّ الملك منه شيئاً ولا يكبرن أمره في نفسه. فإن الملك إن شاء الله أن آتيه به فيكون له عبداً سامعاً مطيعاً فعلت.

ففرح الأسد بقوله وقال: دونك، فقد شئت ذلك. ثم إن دمنة انطلق إلى الثور فقال له غير هيّاب ولا متعتع: إن الأسد أرسلني إليك لآتيه بك، وأمرني إن أنت عجّلت الإيصال إليه طائعاً أن أؤمنك على ما سلف من ذنوبك في تأخرك عنه وتركك لقياه، وإنت أنت تلكّأت أن أسرع إليه الرجعة فأخبره بذلك.

قال الثور: ومن هذا الأسد الذي أرسلك إليّ وأين هو؟

قال دمنة: هو ملك السباع ومنزله بمكان كذا وكذا مع جنوده من السباع.

فرعب الثور من ذكر الأسد والسباع وقال لدمنة: إن أنت جعلت لي الأمان على نفسي انطلقت معك إليه. فأعطاه دمنة الأمان وما وثق به منه.

ثم أقبلا جميعاً حتى دخلا على الأسد فأحسن الأسد مقابلة الثور وقال: قدمت هذه البلاد وما أقدمكما؟ فقصّ عليه شتربة قصته.
فقال الأسد: إن مكرمك ومحسن إليك وما صحبتني. فدعا له الثورة وأثنى عليه وأقام معه وقرّبه الأسد وأكرمه ولاطفه واختبره فوجد منه رأياً وعقلاً فائتمنه على أسراره واستشاره في أموره، فلم يزده طول المقام عنده إلا عجباً به ورغبة فيه وتقريباً منه حتى صار أخصّ أصحابه عند منزلة.

فلما رأى دمنة أن الأسد استخص الثور لنفسه دونه ودون أصحابه، وأنه صاحب خلواته وحديثه ولهوه حسده كل الحسد، وبلغ منه كل مبلغ، فشكا ذلك إلى أخيه كليلة وقال: ألا تعجب لعجز رأيي وصنيعي بنفسي ونظري فيما ينفع الأسد وإغفالي نفع نفسي وضرّها، حتى جلبت إليه من غلبني على منزلتي.

قال كليلة: أصابك ما أصاب الناسك.

قال دمنة: وكيف كان ذلك؟

مثل الناسك واللص والثعلب وامرأة الإسكاف

قال كليلة: زعموا أن ناسكاً أصاب من بعض الملوك كسوة فاخرة فبصُرَ به لص من اللصوص فرغب في الكسوة التي كسيها الناسك، فانطلق إليه قائلاً: إني أريد أن أصحبك وأتعلم منك وآخذ من أدبك. فصحبه متشبّهاً بالنساك. وكان يرفق بالناسك ويتلطف في خدمته ويوقره حتى أصاب منه غفلة فاحتمل تلك الكسوة فذهب بها. فلما فقد الناسك الرجل والثياب عرف أنه صاحبه، فطلبه في مظانّه حتى توجه في طلبه نحو مدينة من المدائن. فمرّ في طريقه على وعلين يتناطحان فطال انتطاحهما حتى سالت الدماء منهما. فجاء الثعلب يلغ في تلك الدماء. فبينما هو مكبّ عليها إذ التفّ عليه الوعلان ينطحانه وهو غافل فقتلاه.

ومضى الناسك حتى انتهى إلى المدينة فدخلها ممسياً. ولم يجد مأوىً ولا مبيتاً إلا بيت امرأة أرملة فنزل بها. وكان لتلك المرأة عبد يتاجر بمالها، فعرفت أنه يخونها ويضرها فاضطغنت عليه واحتالت لقتله ليلة أضافت الناسك. فسقت العبد من الخمر صرفاً حتى غلب فنام. فلما استثقل نوما عمدت المرأة إلى سمّ كانت قد هيّأته فجعلته في قصبة لتنفخه في أنفه. فوضعت إحدى طرفي القصبة في أنفه والطرف الآخر في فيها. فبدره من قبل أن تنفخ في القصبة عطاس خرج من أنفه فطار ذلك السم في حلق المرأة فوقعت ميتة، وذلك كله بعين الناسك. ثم أصبح غادياً في طلب ذلك اللص فأضافه رجل إسكاف وقال لامرأته: انظري هذا الناسك فكرّميه وأحسني القيام عليه فإنه قد دعاني بعض أصحابي إلى دعوة. فاطلق الإسكاف.

وكان بين المرأة وزوجة رجل حجّام صداقة فأرسلت إليها تدعوها إلى وليمة وتخبرها أن زوجها عند أصحابه، وأنه لا يرجع إلا سكران في منتصف الليل، فلهمي لنقضي بعض ساعات في القصف. إلا أن الإسكاف عاد بعد

قليل وطلب العشاء وكانت امرأته تقاعدت عن تهيئته لتستعد لاستقبال صديقتها امرأة الحجّام. فاعتذرت له فلم يقبل عذرها فأقبل عليها وضربها ضرباً مبرحاً وأوثقها إلى سارية في البيت وذهب ونام لا يعقل.

ثم جاءت امرأة الحجام بعد ساعة لمسامرة صديقتها امرأة الإسكاف فوجدتها مربوطة، فقالت لها: إن زوجي عاد قبل أوانه وربطني بهذه السارية فإن شئت أن تحسني إليّ وتحليّني ربطتك مكاني حتى أعد الوليمة كما وعدتك. ففعلت امرأة الحجام ذلك. فاستيقظ الإسكاف قبل رجوع امرأته فناداها في الظلام مراراً باسمها فلم تجبه امرأة الحجام مخافة أن يعرف صوتها. ثم دعاها وسمّاها مراراً. كل ذلك وامرأة الحجّام لا تجيبه فازداد غضبا، وقام إليها بالسكين واحتزّ أنفها وقال لها: خذا هذا جزاء عنادك، وهو لا يشك في أنها امرأته.

ثم رجعت امرأة الإسكاف فرأت صنع زوجها بامرأة الحجام فساءها ذلك وحلت وثاقها وأوثقت نفسها مكانها وأخذت الأخرى أنفها وانطلقت إلى بيتها خائبة. كل ذلك بعين الناسك وسمعه.

ثم إن امرأة الإسكاف رفعت صوتها فدعت ربها وتضرعت إليه وجعلت تبتهل وتقول: اللهم إن كان زوجي قد ظلمني فأعي عليّ أنفي صحيحاً. فقال لها زوجها: ما هذا الكلام يا ساحرة. فقالت: قم أيها الظالم فانظر إلى عملك وتغيير الله عليك ورحمته إياي، فها قد عاد إلي أنفي صحيحاً. فقام وأوقد ناراً ونظر إلى امرأته فوجد أنفها صحيحاً فباء بالذنب إلى ربه واعتذر إلى امرأته وسألها ان ترضى عنه.

أما امرأة الحجام فلما انتهت إلى بيتها حارت في أمرها وقالت: ما عذري عند زوجي وعند الناس في جدع أنفي؟ فلما كان السَّحر استيقظ زوجها فناداها أن ائتيني بمتاعي فإني أريد أن أحجم بعض أشراف المدينة. فلم تأته من متاعه بشيء إلا بالموسى. فغضب الحجام فرماها بالموسى في الظلمة فرمت بنفسها إلى الأرض وصرخت وولولت: أنفي.. أنفي. فلم تزل تصيح حتى جاء أهلها وذو قرابتها فانطلقوا بزوجها إلى القاضي فقال له: ما حملك على جدع أنف امرأتك؟ فلم يكن له حجة يحتج بها فأمر القاضي بالحجام أن يعاقب.

فلما قدّم للعقوبة قام الناسك فتقدم إلى القاضي وقال له: لا يشتبهنّ عليك أيها القاضي، فإن اللص ليس هو من سرقني، وإن الثعلب ليس الوعلان قتلاه، وإن الأرملة ليس السم قتلها، وإن امرأة الحجام ليس زوجها جدعها، بل نحن جميعاً فعلنا ذلك بأنفسنا. فسأله القاضي عن تفسير ذلك فأخبره، فأمر القاضي بإطلاق الحجام.

قال كليلة لدمنة: وأنت أيضا فإنما فعلت ذلك بنفسك.

قال دمنة: قد سمعت هذا المثل وهو شبيه بأمري. ولعمري ما ضرني أحد سوى نفسي، ولكن ما الحيلة الآن؟

قال كليلة: أخبرني أنت عن رأيك في ذلك؟

قال دمنة: أما أنا فلست ألتمس اليوم إلا أن أعود إلى منزلي. فإن خلالاً ثلاثاً للعاقل حقيق بالنظر فيها والاحتيال له: منها النظر فيما مضى من الضر والنفع فيحترس من الضر الذي أصابه أن يعود إليه ويعمل الطيب لالتماس النفع الذي مضى عليه ويحتال لاستقباله. ومنها النظر فيما هو مقيم عليه من المنافع والمضار فيعمل في تلك المنافع والاستثمار منها لئلا تزول عنه، والخروج من تلك المضار جهده. ومنها النظر في مستقبل ما يرجو من قبل النفع وما يتخوف من قبل الضر ثم التأني لما يرجو من ذلك والتوقي لما يخاف منه. وإنما نظرت في الأمر الذي أرجو أن تعود به منزلتي التي كنت عليها فلم أجد لذلك إلا الاحتيال على الثور حتى يفارق الحياة. فإن ذلك صالح لأمري، وعسى مع ذلك أن أكون خيراً للأسد منه، فإنه قد أفرط في أمر الثور إفراطاً قد هجّن رأيه فأضغن عليه عامة قرائبه.

قال دمنة: بلى إن الأسد قد أغرم بالثور إغراما شديدا حتى استخف بغيره من نصحائه وقطع عنهم منافعه. وإنما يؤتى السلطان من قبل ستة أشياء: منها الحرمان والفتنة والهوى والفظاظة والزمان والخُرق. فأما الحرمان فإنه يحرم صالح الأعوان والنصحاء والساسة من أهل الرأي والنجدة والأمانة، ويبعد من هو كذلك منهم. وأما الفتنة فهو يجر الناس إلى وقوع الفتن والحرب بينهم. وأما الهوى فالإغرام بالنساء والحديث أو بالشراب أو بالصيد وما أشبه ذلك. وأما الفظاظة فإفراط الحدة حتى يجمح اللسان بالشتم واليد بالبطش في غير موضعهما. وأما الزمان فهو ما يصيب الناس من الشر والموتان والغربق ونقص الثمرات وأشباه ذلك. وأما الخرق فإعمال الشدة في موضع اللين، واللين في موضع الشدة. وغن الأسد قد أغرم بالثور إغراماً شديدا، وهو الذي ذكرت لك أنه خليق أن يشينه ويضره في أمره.

قال كليلة: وكيف تطيق الثور وهو أشد منك وأكرم على الأسد وأكثر أصدقاء.

قال دمنة: لا تنظرن إلى صغري وضعفي، فإن الأمور ليست تجري على القوة والشدة والضعف. وكم من صغير ضعيف قد بلغ بحيلته ودهائه ورأيه ما يعجز عن الأسد. أولم يبلغك أن غراباً احتال لأسود حتى قتله برفقه ورأيه.

قال كليلة: وكيف كان ذلك؟

مثل الغراب والأسود وابن آوى

قال دمنة: زعموا أن غراباً كان له وكر في شجرة في الجبل وكان قربه حجر ثعبان أسود. وكان إذا أفرخ الغراب في كل سنة ذهب الأسود إلى وكره فأكل فراخه. فلما فعل ذلك به مرات وبلغ من الغراب كل مبلغ، شكا أمره إلى صديق له من بني آوى، فقال له: أردت أن أستأمرك في شيء هممت به إن واطأتني عليه. فقال: وما هو؟ قال: أريد أن آتي الأسود فأفقأ عينيه. قال ابن آوى: بئس الحيلة احتلت، فالتمس حيلة تظفر بها من الأسود في غير إهلاك لنفسك ولا مخاطرة. وإياك أن يكون مثلك مثل المكّاء الذي أراد قتل السرطان فقتل نفسه.

قال الغراب: وكيف كان ذلك؟

مثل المكّاء والسرطان

قال ابن آوى: كان المكاء معششا في أجمة مخصبة كثيرة السمك فعاش هناك ما عاش. ثم كبر فلم يستطع الصيد فأصابه جوع شديد وجهد فالتمس الحيل وقعد متحازناً، فرآه سرطان من بعد فدنا منه وقال له: ما لي أراك قد علتك الكآبة؟ قال المكاء: وكيف لا أكون كذلك وإنما كانت عيشتي إلى اليوم مما أصيد هاهنا من السمك كل يوم سمكة أو سمكتين فكنت أعيش بذلك، وكان ذلك لا ينقص السمك كثيرا. وإني رأيت اليوم صيادين أتيا هذا الموضع فقال أحدهما لصاحبه: أرى في هذه الأجمة سمكا كثيرا نصيد لمدة. فقال صاحبه: إني قد عرفت في ما أمامنا مكانا فيه السمك أكثر، وانا أحب أن نبدأ به، فإذا فرغنا منه انصرفنا إلى ما هاهنا فنقيم عليه حتى نفرغ منه. وقد علمت أنهما إذا رجعا مما توجها له انصرفا إلينا فلم يدعا في هذه الأجمة سمكة إلا صاداها. فإذا كان ذلك كذلك فهو موتي.

فانطلق السرطان إلى جماعة السمك فأخبرهن بذلك فأقبلن إلى المكاء يستشرنه فقلن له: إنا قد أتيناك نستشيرك فأشر علينا، فإن ذا العقل لا يدع مشورة عدوه إذا كان ذا رأي في الأمر يشير بما فيه نفعه أو ضره. وأنت ذو رأي، ولك في بقائننا صلاح ونفع، فأشر علينا. قال المكاء: أما قتال الصيادين ومكابرتهما فلا طاقة لي بهما، ولا أعلم حيلة. إلا أني قد علمت موضعا فيه غدير كثير الماء، وفيه قصب. فلو استطعتن التحول إلى ذلك الغدير كان فيه صلاحكن وخصب بكن. قلن: وكيف لنا بالتحول إلا أن تجتاز بنا إليه؟ قال: فإني سأفعل ولكن في ذلك إبطاء، ولعل الصيادين لا يحتبسان عني حتى أفرغ من نقلكن. فجعل المكاء يحمل كل يوم سمكتين فينطلق بهن إلى بعض التلال فيأكلهن ولا يشعر بذلك بقيتهن حتى كان ذات يوم وقال له السرطان: إني قد أشفقت من مكان هذا فاحملني إلى ذلك الغدير. فحمل المكاء السرطان حتى أتى بعض الأماكن التي كان يأكل السمك فيها. فنظر السرطان فإذا عظام كثيرة من عظام السمك، فعلم أن المكاء صاحبها وأنه يريد به مثل ما صنع بالسمك، فقال في نفسه: إن اللاقي إذا لقي عدوه في الموطن الذي يعلم أنه مقتول فيه إن قاتل أو لم يقاتل فإنه حقيق ألا يلقي بنفسه في التهلكة، ولكن يقاتل كرماً وحفاظاً. فأهوى السرطان بكلبتيه إلى عنق المكاء فعصره عصرة وقع منها إلى الأرض ووقع السرطان معه فمات المكاء وخرج السرطان يدب حتى رجع إلى السمك فأخبرهن الخبر.

قال ابن آوى للغراب: إنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أن بعض الحيل مهلكة للمحتال، ولكني أدلك على أمر إن أنت قدرت عليه كان فيه هلاك الأسود وراحتك منه.

قال الغراب: وما ذلك؟

قال: أن تطير فتنظر لعلك أن تظفر بحلي من حلي النساء نفيس عند أهله فتختطفه ثم تطير به قريبا، فلا تبرح واقفا وطائرا حتى لا تفوت العيون وتطلبك النساء وتنتهي بالحلي إلى جحر الأسود فترمي به عنده. فإذا انتهى

الناس إلى حليهم أخذوه وأراحوك من الأسود. فانطلق الغراب حتى أشرف على امرأة في حجرة لها قد وضعت ثيابها وحليها وهي تغتسل فاختطف من حليها عقدا، فلم يزل يطر به ويقع حيث يراه الناس حتى انتهى إلى جحر الأسود فرمى به عليه، فهجم الناس على الأسود فقتلوه وأخذوا العقد.

قال دمنة لكليلة: إنما ضربت هذا المثل لتعلم أن الحيلة تفعل ما لا تفعل القوة.

قال كليلة: إن الثوة لو لم يكن جمع مع شدته رأيا لكان ذلك، ولكنه مع نجدته ذو رأي وعقل فكيف ذلك به؟

قال دمنة: إن الثور شديد في قوته ورأيه ولكنه بي مغتر ولي آمن. فأنا خليق أن أصرعه كما صرعت الأرنب الأسد.

قال كليلة: وكيف كان ذلك؟

مثل الأرنب والأسد

قال دمنة: زعموا أن أسداً كان في أرض كثيرة الماء والخصب، وكان ما بتلك البلاد من الوحش في سعة من الماء والمرعى. إلا أن ذلك لم يكن ينفعهما من خوف الأسد. فائتمرت تلك الوحوش واجتمعت إلى الأسد فقلن له: إنك لا تصيد الدابة منا إلا في تعب ونصب. وإنا قد رأينا لنا ولك فيه راحة، فإن أنت أمنتنا فلم تخفنا جعلنا لك كل يوم دابة ترسل بها إليك عند غدائك. فرضي الأسد بذلك وصالحهن عليه وقررن ذلك له. ثم غن أرنباً أصابتها القرعة فقالت لهن: ما ضركن إن أنتن رفقتن بي فيما لا يضركن لعلي أن أريحكن من الأسد، فقلن: وما الذي تأمرين من الرفق بك؟ قالت: تأمرن من ينطلق معي ألا يتبعني لعلي أن أبطئ على الأسد بعض الإبطاء حتى يتأخر غداؤه. قلن: فلك ذلك. فانطلقت الأرنب متأنية حتى إذا جاوزت الساعة التي كان الأسد يأكل فيها تقدمت إليه تدب رويدا. وقد جاع الأسد حين أبطأ عنه غداؤه فغضب وقام من مربضه يتمشى حتى إذا رأى الأرنب قال لها: من أي جئت وأين الوحوش؟

قالت: كإني رسول الوحوش أرسلتني إليك وقد بعثنّ معي لك بأرنب. فلما كنت ههنا قريبا منك استقبلني أسد فأخذها مني وقال: أنا أولى بهذه الأرض ووحشها. فقتلت له: إن هذه غداء الملك أرسلت بها إليه الوحوش فلا تغصبنّه. فغضب الأسد وقال: انطلقي معي فأريني هذا الأسد. فانطلقت بالأسد إلى جب ذي صاف عميق فقالت: هذا مكان الأسد وأنا أفرق منه إلا أن تحملني في حضنك فلا أخافه حتى أريكه. فاحتضنها الأسد وقدمته إلى الماء الصافي فقالت له: هذا الأسد وهذه الأرنب. فنظر الأسد فرأى ظله وظل الأرنب في الماء فلم يشك في قولها، فوضع الأرنب ووثب لقتاله فغرق في الجب وأفلتت الأرنب وعاد إلى الوحوش فأعلمتهن صنيعها بالأسد.

قال كليلة: إن أنت قدرت على هلاك الثور في شيء ليس على الأسد فيه مضرة فشأنك به. فإن مكان الثور قد أضر بك وبي وبغيرنا من جنود الملك. وإنت أنت لم تستطع ذلك إلا بشيء ينغص الأسد فلا تشترين ذلك بهذا، فإنه غدر منك ومنا ولؤم.

ثم إن دمنة ترك الدخول على الأسد أياما ثم أتاه على حال خلوة وفراغ منه متحازنا. فقال الأسد: ما لي أراك اليوم خبيث النفس ولم أرك منذ أيام؟ قال: ما يخفى عليك. قال الأسد: خير. قال: ليكن الخير. قال الأسد: هل حدث شيء؟ قال دمنة: حدث ما لم يكن الأسد يريده ولا أنا. قال الأسد: وما ذلك؟ قال دمنة: هو كلام غليظ فظيع لا يصلح ذكره إلا على فراغ. قال الأسد: فهذه حال خلوة وفراغ فأخبرني بما عندك.

قال دمنة: إن كل كلام يكرهه سامعه لم يتشجع عليه قائله. فإن كان نصحاً فهو من قائله جرأة إلا أن يثق بعقل صاحبه المقول له ذلك. فإذا كان المقول له عاقلاً احتمل ذلك واستمع له لأنه ما كان فيه من نفع فهو للسامع. فأما القائل فإنه لا نفع له إلا أداء الحق والنصيحة. وإنك أيها الملك ذو الفضيلة في الرأي والعقل، فأنا متشجع لثقتي بك على أن أخبرك بما يكرهه الملك لأنك تعرف نصيحتي وإيثاري إياك على نفسي. فإنه ليعرض في نفسي أنك غير مصدق ما أنا ذاكر لك. ولكن إذا ذكرت أن أنفسنا، معشر السباع، معلقة بنفسك لم أجد بداً من أداء الحق الذي يلزمني. وإن أنت لم تسألني أو خفت أن لا تقبله مني فإنه يقال: إن من كتم السلطان نصيحته أو كتم الأطباء مرضه أو كتم الإخوان فاقته فقد خان نفسه.

قال الأسد: ما ذلك الأمر؟

قال دمنة: أخبرني الأمين الثقة أن شتربة خلا برؤوس جندك فقال لهم: "قد عجمت الأسد وبلوت رأيه وقوته ومكيدته فاستبان لي أن ذلك كله منه ضعف، وأن لي وله شأنا". فلما بلغني هذا عرفت أن شتربة خوّان كافر غدار بك قد أكرمته الكرامة كلها وجعلته نظيراً لنفسك. وقد تطلعت نفسه إلى أن ينزل بمثل منزلتك، وأنك لو زلت عن مكانك صار ملكنا. فهو لا يدع جهداً إلا بلغه فيك. فإنه قد كان يقال: إذا عرف الملك رجلاً قد كاد أن يساويه في المنزلة والرأي والهيئة والمال والمنع فليصرعه. فإنه إن لم يفعل ذلك كان هو المصروع. وأنت أيها الملك أعلم بالأمور وأبلغ فيها. وإني أرى أن تحتال لهذا الأمر قبل تفاقمه ولا تنتظر وقوعه. فإني لا أدري هل تقدر على استدراكه بعد ذلك أم لا. وقد كان يقال إن الرجال ثلاثة: حازمان وعاجز. فأحد الحازمين من إذا نزل به البلاء لم يدهش ولم يعيَ بحيلته ورأيه ومكيدته التي يرجو بها المخرج مما نزل به ولم يذهب قلبه شعاعا. وأحزم من هذا المتقدم ذو البعد في الرأي الذي يعرف الأمر مقبلاً قبل وقوعه فيعظمه إعظامه ويحتال له حيلة كأنه رأي عين فيحسم الداء قبل أن يبتلى به ويدفع الأمر قبل وقوعه. فأما العاجز فهو المتردد في أمره المتواني في رأيه المتمني فيما بينه وبين نفسه حتى ينزل به الأمر. وهو مفرد مضيّع حتى يهلك. ومثل ذلك مثل السمكات الثلاث.

قال الأسد: وكيف كان ذلك؟

مثل السمكات الثلاث

قال دمنة: زعموا أن غديراً كان فيه ثلاث سمكات عظام، وكان ذلك الغدير بفجوة من الأرض لا يقربها أحد. فلما كان ذات يوم اجتاز من هناك صيادان فأبصرا الغدير فتواعدا أن يرجعا بشبكتهما فيصيدا تلك السمكات الثلاث التي فيه. فسمعت السمكات قولهما. وإن سمكة منهن كانت أعقلهن ارتابت وتخوّفت وحاولت الأخذ بالحزم فخرجت من مدخل الماء الذي كان يخرج من الغدير إلى النهر فتحوّلت إلى مكان غيره. وأما الثانية التي كانت دونها في العقل فإنها تأخرت في معالجة الحزم حتى جاء الصيادان فقالت: قد فرّطت وهذه عاقبة التفريط. فرأتهما وعرفت ما يريدان فوجدتهما قد سدّا ذلك المخرج فقالت: قد فرّطت فكيف الحيلة على هذا الحال للخلاص، وقلما تنجح حيلة العجلة والإرهاق. ولكن لا نقنط على حال ولا ندع ألوان الطلب. ثم إنها، للحيلة، تماوتت فطفت على الماء منقلبة على ظهرها فأخذها الصيادان يحسبان أنها ميتة فوضعاها على شفير النهر الذي يصب في الغدير فوثبت في النهر فنجت من الصيادين. وأما العاجزة فلم تزل في إقبال وإدبار حتى صيدت.

وأنا أرى أيها الملك معالجة الحزم في الحيلة كأنك تراه رأي العين فتحسم الداء قبل أن تُبتلى به وتدفع الأمر قبل نزوله.

قال الأسد: قد فهمت مثلك ولكني لا أظن الثور يغشّني ولا يبتغي لي الغوائل بعد حسن بلائي عنده وصنيعي إليه، وإنه لا يستطيع أن يتذكر مني سيئة أتيتها إليه ولا حسنة رددتها عنه.

قال دمنة: إنه لم يفسد عقله عليك إلا فضل إكرامك إياه حتى بلغ في نفسه ما طمع في مرتبتك. فإن اللئيم العاجز لا يزال مناصحاً نافعاً حتى يُرفع إلى المنزلة التي ليس هو لها بأهل، فإذا بلغها رغب عنها ومنته نفسه وما فوقها بالغش والخيانة. وإن اللئيم الكفور لا يخدم السلطان ولا ينصح له إلا عن فرق أو حاجة. فإذ استغنى وأمن وعاد إلى جوهره وأصله كذنب الكلب الأعقف الذي يُربط ليقوّم لا يزال مستقيماً ما دام مربوطاً. فإذا أطلق عاد لانحنائه وعوجه.

واعلم أيها الملك أن من لم يقبل من نصحائه ما يثقل عليه في ما ينصحون له فيه لم يحمد غبّ رأيه، وكان كالمريض الذي يدع ما تنعت له الأطباء ويعمد لشهوة نفسه. وإن من الحق على وزير السلطان الإبلاغ في التحضيض له على ما يشتهيه ويريده والكف عما يضره ويشينه. وخير الإخوان والأعوان أقلهم مصانعة في النصيحة. وخير الأعمال أجملها عاقبة. وخير النساء الموافقة لبعلها. وخير الثناء ما كان على أفواه الأخيار. وخير الأصدقاء من لا يخاصم. وخير الأغنياء من لا يكون للحرص أسيرا. ثم قال: لو أن امرأ توسد الحيات وافترش النار كان أخلق لأن يهنئه النوم منه إذا أحس من صاحبه عداوة يريد بها نفسه يغدو بها عليه ويروح. وأعجز الملوك آخذهم بالهوينا. وأقلهم نظراً في الأمور أشبههم بالفيل الهائج الذي لا يلتفت إلى شيء، فإن حدث به أمر تهاون به.

قال الأسد: لقد أغلظت في القول، وقول الناصح مقبول وإن غلظ. ولكن شتربة وإن كان عدوا كما تقول فليس يستطيع لي ضراً. وكيف يستطيع ذلك وهو آكل عشب وأنا آكل لحم؟ وإنما هو لي طعام ولست أرى علي منه خوفاً ولا أجد إلى الغدر به سبيلا بعد الأمان الذي جعلت له، وبعد حرمة النصيحة وما كان من إكرامي إياه وحسن ثنائي عليه عند جميع جندي. فإني إذا فعلت ذلك جهّلت نفسي وغدرت بذمتي.

قال دمنة: لا تغترنّ بقولك "هو لي طعام". فإن النور إن لم يستطعك بنفسه احتال لك بغيره. وقد كان يقال: إن أضافك ضيف ساعة وأنت لا تعرف أخلاقه فلا تأمنه على نفسك أن يصل إليك منه أو في سببه شرّ كما أصاب القملة في ضيافة البرغوت.

قال الأسد: وما أصاب القملة؟

مثل القملة والبرغوت

قال دمنة: زعموا أن قملة لزمت فراش رجل من الأشراف زماناً وكانت تصيب من دمه وهو نائم وتدب عليه دبيباً رفيقاً، وإن برغوتاً ضافها ذات ليلة في فراش ذلك الشريف فلذعه لذعة أيقظته. فأمر الرجل بفراشه فنُظر فيه فطفر البرغوت فذهب وأخذت القملة ففصعت.

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أن صاحب السوءات لا يسلم من شره. وإن ضعف عن ذلك بنفسه جاءت المعاريض بسببه. فإن كنت لا تخاف الثور خفت عليك مع أني قد أعرف أن لا بدّ له من مناظرتك، وأنه لا يكل أمره إلى غير نفسه.

فوقع في نفس الأسد قول دمنة وقال له: ماذا تأمرني به؟

قال دمنة: إن الضرس المكسور المأكول لا يزال صاحبه منه في أذىً وألم حتى يفارقه، والطعام الذي غثت النفس عنه وقلقت منه فالراحة في قذفه، والعدو المخوف داؤه فقده.

قال الأسد: قد تركتني وأنا أكره مجاورة شتربة إياي. وإني مرسل إليه فذاكرٌ له ما وقع في نفسي من أمره ثم آمره بالانصراف حيث أحب.

فكره دمنة ذلك وعرف أنه إن كلم الأسد والثور وسمع منه جوابه وعذره عرف كذبه ولم يخف عليه أمره.

فقال دمنة للأسد: أما إرسالك إلى الثور ومذاكرتك إياه ما كان من ذنبه فلا أراه حزما. فانظر أيها الملك في ذلك. فإنه لا يزال لك من أمرك الخيار ما لم تكشف ما وقع في نفسك منه، لأني أخاف إن كشفت له ذلك أن يعالجك بالمكابرة. فإن قاتلك قاتلك مستعداً، وإن فارقك له عليك فصل في الغدر، مع أن أهل الحزم من الملوك لا يعلنون عقوبة من لم يعلن ذنبه ولكن لكل ذنب عقوبة. فلذنب السر عقوبة السر ولذنب العلانية عقوبة العلانية.

قال الأسد: إن الملك إذا عاقب أحداً أو أهانه على ظنة يظنها وعلى غير استيقان بجرمه فنفسه عاقب وإياها أهان.

قال دمنة: أما إذا كان هذا فلا يدخلن عليك إلا وأنت مستعد، ولا يصبن منك غرة فإني لا أحسبك لو نظرت إليه حين يدخل عليك إلا ستعرف أنه قد هم بعظيمة. ومن علامة ذلك أنك ترى لونه متغيراً وترى أوصاله ترعد وتراه يلتفت يميناً وشمالاً وترى قرنيه قد هيّأهما، فعل الذي يهم بالنطح.

قال الأسد: سأكون منه على حذر. وإن أنا رأيت منه هذه العلامات التي ذكرت وعلمت أن ليس في امره شك.

فلما فرغ دمنة من الأسد وعرف أنه قد أوقع في نفسه ما طلب، وأن الأسد سيحذر الثور ويتهيّأ له، أراد أن يأتي الثور فيعرفه بالأسد. ثم أحب أن يكون انطلاقه بأمر الأسد لئلا يبلغه من غيره فيتهمه. فقال للأسد: هل آتي الثور فأطلع عليه وأنظر ما حاله وأسمع من كلامه، ولعلي أتسقط منه شيئاً أعلمك به. فإذن له الأسد في ذلك.

فانطلق دمنة حتى دخل على الثور شبيهاً بالمكتئب. فلما رآه الثور رحّب به وقال له: لم أرك منذ أيام فما حبسك؟ أسلام؟

قال دمنة: ومتى كمان من أهل السلام من لا يملك نفسه ومن كان أمره بيد غيره ممن لا يوثق بـه ولا ينفك على خوف وخطر فلا يأتي عليه ساعة إلا وهو خائف على نفسه ودمه.

قال الثور: وما الذي حدث؟

قال دمنة: حدث الذي قدّر. فمن ذا يغالب القدر؟

ومن ذا بلغ جسيماً فلم يبصر؟ ومن ذا اتبع الهوى فلم يعطب؟ ومن ذا جاور النساء فلم يفتن؟ ومن ذا طلب إلى الناس فلم يهن؟ ومن ذا واصل الأشرار فسلم؟ ومن ذا صحب السلطان فلم يغتب؟ ولقد أصاب القائل الذي قال: إنما مثل السلطان في قلة وفائه لمن صحبه وسخاء نفسه عن من فقد منهم كمثل صاحب فندق كلما ذهب واحد جاء آخر.

قال شتربة: أسمع كلاماً وأخاف أن يكون قد أرابك من الأسد ريب.

قال دمنة: لقد رابني منه ريب وليس ذلك لنفسي. قد علمت حقك علي وود ما بيني وبينك وما كنت جعلت لك من نفسي وذمتي أيام أرسلني إليك الأسد. ولا أجد بداً من حقك وإطلاعك على ما اطلعت عليه مما أخاف عليك.

قال شتربة: وما ذلك.

قال دمنة: أخبرني الصادق المؤتمن أن الأسد قال لبعض أصدقائه وأصحابه: لقد أعجبني سمن الثور وليس بي إليه حاجة ولا أراني إلا أن آكله وأطعم من لحمه. فلما بلغتني مقالته هذه عرفت كفره وسوء عهده وأقبلت إليك لأعلمك بذلك فأقضي الذي يجب لك عليّ، فتحتال رفقاً لأمرك.

فلما سمع شتربة كلام دمنة وتذكّر ما كان من دمنة لما جعل له من العهد والمثاق وفكّر في أمر الأسد ظن أن دمنة قد صدقه ونصح له.

فقال شتربة لدمنة: ما كان ينبغي للأسد أن يغدر بي وما أذنبت إليه ذنباً ولا إلى أحد من جنده ولكنه حمل عليّ بالكذب وشبّه عليه. فإن الأسد قد صحبه قوم سوء وجرت منهم أمور تصدّق عنده ما بلغه من غيرهم. وكذلك صحبة الأشرار ربما أورثت حزناً كثيراً طويلاً وسوء ظنٍّ بالأخيار حتى تدعوه التجربة في ذلك إلى الخطإ كخطإ البطة التي رأت في الماء ضوء الكوكب فظنته سمكة فحاولت أن تصيدها. فلما حرمت ذلك مراراً عرفت أنه ليس بشيء. ثم جازت مسال الغدير في تلك الليلة فرأت في ذلك المكان سمكة فظنت أنها مثل التي قبلها فلم تصدها ولم تطلبها.

فإن كان الأسد بلغه عني شيء فصدق به فهلاّ جرّب واختبر فيجري عليّ ما اختبر من غيري. وإن كان لم يبلغه عني شيء فأراد بي سوءاً من غير علية فذلك العجب. وقد كان يقال إن من العجب أن تطلب رضا صاحبك وتشتهي رضاه فلا يرضى. وأعجب من ذلك أن تستتمّ رضاه ثم يسخط. وإذا كان السخط من غير علة انقطع الرجاء لأن العلة إذا كانت موجودة في ورودها كان الرضا مأمولاً في صدورها. وقد تذكرت فلا أعلم مما بيني وبين الأسد جرماً إن كان إلا صغيراً. فلعمري ما يستطيع أحد أطال صحبة صاحب أن يتحفظ في كل شيء ويحترس حتى لا تكون منه فارطة صغيرة ولا كبيرة يكرهها صاحبه. ولكن ذا العقل وذا الوفاء إذا سقط صاحبه وأذنب نظر في سقطته وذنبه بقدر مبلغ ما كان منه وخطره، أعمداً كان ذلك أم خطأ. وهل في الصفح عنه أمر يخاف ضرره وشينه أم لا. ثم لا يؤاخذ صاحبه بشيء يجد إلى الصفح عنه سبيلاً. فإن كان الأسد تعنت عليّ ذنباً فإني لا أعلمه. إلا أني ربما خالفت عليه في بعض رأيه نظراً مني ونصيحة، فعسى أن يكون أنزل ذلك مني على الجرأة عليه وعلى مخالفته إذ يقول "لا" فأقول "نعم" أو أن يقول "نعم" فأقول "لا". ولست أجدني مخصوصاً في هذه المقالة لأني لم أخالفه في شيء من ذلك قط على رؤوس جنده ولا عند خاصته، ولكن كنت أخلو به فألتمس ما أكلمه من ذلك كلام القانت لربه الموقن له. وعرفت أنه من طلب الرخص من النصحاء عند المشاورة، ومن الأطباء عند المرض، ومن الفقهاء في الشبهة أخط منافع الرأي وازداد في الرأي المريض وجعل الوزر في الدين.

فإن لم يكن هذا فعسى ذلك أن يكون من بعض سكرات السلطان. فإن من سكراته أن يرضى عن من استوجب السخط، ويسخط على من استوجب الرضا من غير سبب معلوم. وكذلك قالت العلماء: خاطر من لجج وأشد منه مخاطرة صاحب السلطان، فإن هو صحبه بالوفاء والاستقامة والمودّة والنصيحة فهو خليق لأن يعثر فلا ينتعش أو يعود وقد أشفى على الهلة إن انتعش.

وإن لم يكن هذا فلعل بعض ما أعطيته من الفضل جعل فيه هلاكي. وبعض المحاسن آفة لصاحبها. فإن الشجرة الحسنة ربما كان فسادها في طيب ثمرتها إذا تدلت أغصانها فتجذب حتى تكسر وتفسد، وإن الطاووس ربما صار ذنبه الذي هو حسنه وجماله وبالاً عليه. فإذا احتال إلى الخفة والنجاة ممن يطلبه شغله عن ذلك ذنبه، والفرس الجواد القوي ربما أهلكه ذلك فجُهد وأتعب واستعمل لما عنده من الفضل حتى يهلك. وكذا الرجل ذول الفضل، ربما كان فضله سبب هلاكه لكثرة من يحسده ويبغي عليه من أهل الشر. وأهل الشر أكثر من أهل الخير بكل مكان. فإذا عادوه وكثروا عليه أوشكوا أن يهلكوه.

فإن لم يكن هذا، فهو إذا القدر الذي يسلب الأسد شدته وقوته حتى يدخلوه القبر. وهو الذي يحمل الضعيف على ظهر الفيل. وهو الذي يسلط الحوّاء على الحية فينزع حمتها فيلعب بها كيف شاء. وهو الذي يعجز الأريب ويحزّم العاجز ويثبّط الشهم ويشهّم الثبط ويوسع على المقتر ويقتر على الموسر ويشجع الجبان ويجبن الشجاع عندما تعتريه المقادير من معاريض العلل.

قال دمنة: إن إرادة الأسد لما يريد بك ليست بشيء مما ذكرت من إغراء الأشرار ولا غير ذلك، ولكنه للغدر والفجور. فإنه جبار غدار أول طعامه حلاوة وآخره مرارة، بل أكثره سم مميت قاتل.

قال شتربة: صدقت، لعمري لقد طعمت طعاماً فاستلذته فأراني قد انتهيت إلى الذي فيه الموت. وما كان لولا الجبر مقامي مع الأسد فهو آكل لحم وأنا آكل عشب. فقبحاً للحرص وقبحاً للأمل، فهما قذفاني في هذه الورطة واحتبساني عن مذهبي كاحتباس النحل فوق النيلوفر إذا وجدت ريحه واستلذت به وأغفلت منهاجها الذي ينبغي لها أن تطير فيه قبل انضمام النيلوفر فتلج فيه فتموت. ومن لم يرض بالكفاف من الدنيا وطمحت نفسه إلى الفضول والاستكثار، ولم ينظر في ما يتخوّف أمام كان كالذباب الذي ليس يرضى بالشجر والرياحين حتى يطلب المال الذي يسيل من أذن الفيل الهائج فيضربه الفيل بأذنيه فيقتله. ومن بذل نصيحته واجتهاده لمن لا يشكر له هو كمن بذر بذره في السباخ أو أشار على الميت أو سارّ الأصم.

قال دمنة: بأي شيء أحتال لنفسي إن أراد الأسد قتلي. فما أعرفني بأخلاق الأسد ورأيه فأعرفني بأنه لو لم يرد إلا الخير ثم أراد أصحابه بمكرهم وفجورهم هلاكي عنده لقدروا على ذلك. فإنه لو اجتمع المكرة الظلمة على البريء الصحيح كانوا خلقاء أن يهلكوه، وإن كانوا ضعفاء وكان قوياً، كما أهلك الذئب الغراب وابن آوى والجمل حين اجتمعوا عليه بالمكر والخِلابة.

قال دمنة: وكيف كان ذلك؟

مثل الذئب والغراب وابن آوى والجمل

قال الثور: زعموا أن أسداً كان في أجمة مجاورة طريقاً من طرق الناس له أصحاب ثلاثة: ذئب وابن آوى وغراب. وأن أناساً من التجار مروا في ذلك الطريق فتخلف عنهم جمل لهم فدخل الأجمة حتى انتهى إلى الأسد فقال له الأسد: من أين أقبلت؟ فأخبره بشأنه. فقال له: ما تريد؟ قال: أريد صحبة الملك. قال: فإن أردت صحبتي فاصحبني في الأمن والخصب والسعة.

فأقام الجمل مع الأسد حتى إذا كان يوم توجّه الأسد في طلب الصيد فلقي فيلاً فقاتله قتالاً شديدا. ثم أقبل الأسد تسيل دماؤه مما جرحه الفيل بنابه فوقع مثخناً لا يستطيع صيداً. فلبث الذئب وابن آوى والغراب أياماً لا يصيبون شيئاً مما كانوا يعيشون به من فضول الأسد، وأصابهم جوع وهزال شديد فعرف الأسد ذلك منهم، فقال: جهدتم واحتجتم إلى ما تأكلون. فقالوا: ليس همّنا أنفسنا ونحن نرى بالملك ما نرى ولسنا نجد للملك بعض ما يصلحه.

قال الأسد: ما اشك في مودتكم وصحبتكم ولكن إن استطعتم فانتشروا فعسى أن تصيبوا صيداً فتأتوني به. ولعلي أكسبكم ونفسي خيراً. فخرج الذئب والغراب وابن آوى من عند الأسد، فتنحوا ناحية وائتمروا بينهم وقالوا: ما لنا ولهذا الجمل الآكل العشب الذي ليس شأنه شأننا ولا رأيه رأينا؟ ألا نزيّننّ للأسد أن يأكله ويعطعمنا من لحمه؟

قال ابن آوى: هذا ما لا تستطيعان ذكره للأسد، فإنه قد أمّن الجمل وجعل له ذمة. قال الغراب: اقيما مكانكما ودعاني والأسد.

فانطلق الغراب إلى الأسد. فلما رآه قال له الأسد: هل حصّلتم شيئاً. قال له الغراب: إنما يجد من به ابتغاء ويبصر من به نظر. أما نحن فقد ذهب منا البصر والنظر لما أصابنا من الجوع. ولكن قد نظرنا إلى أمر واتفق عليه رأينا، فإن وافقتنا عليه فنحن مخصبون.

قال الأسد: ما ذلك الأمر؟ قال الغراب. هذا الجمل الآكل العشب المتمرغ بيننا في غير صنعة..

فغضب الأسد وقال: ويلك ما أخطأ مقالتك وأعجز رأيك وأبعدك من الوفاء والرحمة. وما كنت حقيقاً أن تستقبلني بهذه المقالة. ألم تعلم أني أمّنت الجمل وجعلت له ذمة؟ ألم يبلغتك أنه لم يتصدق المتصدق بصدقة أعظم من أن يجير نفساً خائفة وأن يحقن دما؟ وقد أجَرْت الجمل ولست غادراً به. قال الغراب: إني لأعرف ما قال الملك. ولكن النفس الواحدة يُفتدى بها أهل البيت، وأهل البيت يفتدى بهم القبيلة، والقبيلة يفتدى بها المصر، والمصر فدى الملك إذا نزلت به الحاجة. وإني جاعل للملك من ذمته مخرجاً فلا يتكلف الأسد أن يتولى غدراً ولا يأمر به، ولكنا محتالون حيلة فيها وفاء للملك بذمته وظفر لنا بحاجتنا. فسكت الأسد. فأتى الغراب أصحابه فقال: إني قد كلّمت الأسد حتى أقرّ بكذا وكذا، فكيف الحيلة للجمل إذا أبى الأسد أني يليَ قتله بنفسه أو أن يأمر به؟ قال صاحباه: برفقك ورأيك نرجو ذلك.

قال الغراب: الرأي أن نجتمع والأسد والجمل ونذكر حال الأسد وما أصابه من الجوع والجهد، ونقول: لقد كان إلينا محسنا ولنا مكرما فإن لم ير منا اليوم خيراً وقد نزل به ما نزل اهتماماً بأمره وحرصاً على صلاحه أنزل ذلك منا على لؤم الأخلاق وكفر الإحسان. ولكن هلموا فتقدموا إلى الأسد فنذكر له حسن بلائه عندنا وما كنا نعيش به في جاهه، وأنه قد احتاج إلى شكرنا ووفائنا. وأنا لو كنا نقدر له على فائدة نأتيه بها لم ندّخر ذلك عنه. فإن لم نقدر على ذلك بأنفسنا له مبذولة. ثم ليعرض عليه كل واحد منا نفسه وليقل: كلني أيها الملك ولا تمت جوعا. فإذا قال ذلك قائل أجابه الآخرون وردّوا عليه مقالته بشيء يكون له فيه عذر فيسلم وتسلمون إلا الجمل، ونكون قد قضينا ذمام الأسد.

ففعلوا ذلك ودعوا الجمل إلى نادي الأسد، ثم تقدموا إليه فبدأ الغراب وقال: أحق أن تطيب أنفسنا لك، فإنا بك كنا نعيش وبك نرجو عيش من بعدنا من أعقابنا. وإن أنت هلكت ليس لأحد منا بعدك بقاء ولا لنا في الحياة خير. فأنا أحب أن تأكلني، فما أطيب نفسي لك بذلك. فأجابه الذئب والجمل وابن آوى أن اسكت فما أنت وما في أكلك شبع للملك. قال ابن آوى: أنا مشبع الملك. قال الذئب والجمل والغراب: أنت منتن البطن خبيث اللحم فنخاف إن أكلك الملك أن يقتله خبث لحمك. قال الذئب: لكني لست كذلك فليأكلني الملك. قال الغراب وابن آوى والجمل: قد قالت الأطباء: من أراد قتل نفسه فليأكل لحم الذئب فإنه يأخذه منه الخناق. وظن الجمل أنه إذا قال مثل ذلك يلتمسون له مخرجاً كما صنعوا بأنفسهم ويسلم ويرضى الأسد. قال الجمل: لكن أيها الملك لحمي طيب ومريء وفيه شبع للملك. فقال الذئب وابن آوى: صدقت وتكرمت وقلت ما نعرف. فوثبوا عليه فمزقوه.

وإنما ضربت لك هذا المثل عن الأسد وأصحابه لعلمي بأنهم إن اجتمعوا على هلاكي لم أمتنع منهم. ولو كان رأي الأسد فيّ غير ما هو عليه لم يكن في نفسه إلا الخير. فإنه قد قيل: إن خير السلطان من أشبه النسر حوله الجيف لا من أشبه الجيف حولها النسور. ولو أن الأسد لم يكن في نفسه إلا الرحمة والحب لم تلبس عليه الأقاويل إذا إذا كثرت فتذهب برقته ورحمته حتى يستبدلهما بالشرارة والغلظة. ألا ترى أن الماء ألين من القول وأن الحجر أشد من القلب، وليس يلبث الماء إذا طال تحدره على الحجر الصلد أن يؤثر فيه.

قال دمنة: فماذا تريد أن تصنع؟

قال شتربة: ما إن أرى إلا أن أجاهده. فإنه ليس للمصلي في صلاته الدهر ولا أرى للمتصدق في صدقته ولا للورع في ورعه مثل الجهاد إذا جاهدوا على الحق. فإنه من جاهد عن نفسه ودافع عنها كان أجره في ذلك عظيماً وذكره رفيعاً إن ظفر أو ظُفر به.

قال دمنة: لا أرى ذلك، فإنه لت ينبغي القتال مع الأعداء إلا بعد ذهاب الحيل وانقطاعها. فإن معالجة القتال قبل الاستعداد بغيٌ وخفة. وقد قيل: لا تحقرنّ عدواً وإن كان حقيراً ضعيفاً مهيناً، ولا سيما إذا كان ذا حيلة يقدر على

أعوان، فكيف بالأسد مع جرأته وشدته، فإنه من احتقر ضعيفاً لضعفه أصابه ما أصاب المتوكل بالبحر مع الطيطوى.

قال شتربة: وكيف كان ذلك؟

مثل الموكّل بالبحر مع الطيطوى

قال دمنة: زعموا أن طائراً من طيور البحر يدعى الطيطوى كان وطنه على بعض سواحل البحر مع زوجته. فلما كان أوان إفراخهما قالت الأنثى للذكر: إنه قد آن لي أن أبيض، فالتمس لي مكاناً حصيناً أبيض فيه. قال الذكر: ليكن ذلك في مكاننا هذا فإن الماء والعشب منا قريب، ومكاننا هذا جامع لكل ما نحب، وهو أرفق بنا. قالت الأنثى: ليحسن نظرك فيما تقول، فإنا على غرر في مكاننا هذا. فإن البحر لو قدم لذهب بفراخنا. قال الذكر لا أظن أن البحر يحمل علينا لما يخاف من الموكّل بالبحر ووكيل البحر لا يجترئ علي.

قالت الأنثى: ما أشد بغيك في هذه المقالة! أما تستحي نفسك من تهددك للموكل بالبحر وعنادك إياي وأنت تعرف نفسك. وحق ما يقال إنه ليس شيء أقل معرفة لنفسه من الإنسان. فاسمع كلامي وانتقل بنا من هذا المكان قبل وقوع ما لا نحب وقوعه بنا. فأبى الذكر أن يطاوعها. فلما كثرت عليه ولم يسمع منها قالت: إن من لا يسمع من أصحابه وأصدقائه يصيبه ما أصاب السلحفاة التي لم تقبل قول أصحابها. قال الذكر: وكيف كان ذلك؟

مثل البطتين والسلحفاة

قالت الأنثى: زعموا أن عيناً كان فيها بطتان وسلحفاة وكان بينهم للجوار ألفة، فنقص في بعض الأزمنة ماء تلك العين نقصاناً فاحشاً. فلما رأت البطتان نقصان الماء قالتا: ينبغي لنا ترك هذه العين والتحول منها فودّعتا السلحفاة وقالتا: السلام عليك فإنا ذاهبتان. قالت السلحفاة: إنما اشتد نقصان هذا الماء على مثل هذه الشقية التي لا تقدر أن تعيش إلا بالماء. فأما أنتما فإنكما تعيشان حيث توجهتما فاحتالا لي واذهبا بي معكما. قالتا: إنا لن نقدر على أن نذهب بك معنا إلا أن تشترطي لنا إذا جعلناك في الهواء ورآك الناس فذكروك ألا تيجبيهم. ففعلت ذلك واشترطت ألا تجيب أحداً. ثم قالت: وكيف السبيل لكما إلى حملي. قالتا: تعضين في وسط عود ونأخذ بطرفيه ونعلو بك في الهواء. فرضيت بذلك وحملتاها واستعلتا بها. فلما رآها الناس تنادوا وقالوا: انظروا إلى العجب، سلحفاة بين بطتين في الهواء. فلما سمعت السلحفاة مقالتهم وتعجّبهم منها قالت: فقأ الله أعينكم، فلما فتحت فاها بالنطق وقعت إلى الأرض فماتت.

قال الطيطوى: قد سمعت مقالتك فلا تخافي البحر. فأفرخت الأنثى مكانها. فلما سمع الموكّل بالبحر قوول الطيطوى ذكر مدّ البحر فذهب بفراخه مع عشه فغيّبهم. فقالت الأنثى لما فقدت فراخها للذكر: إنني قد كنت أعرف في بدء أمرنا أن هذا كائن وأنه سيرجع علينا قلة عرفانك لنفسك، فانظر إلى ما أصابنا من الضرر.

قال الطيطوى الذكر: أوما قد قلت في أول أمري وأنا أقول في آخره: إن جعل علينا البحر فسيرى صنيعي في ذلك. واجترأ فذهب إلى أصحابه فشكى إليهم ما لقي من الموكل بالبحر وما أصابه، وقال: إنكم إخواني وأهلي وثقتي في طلب ظلامتي فأعينوني واحتالوا لي، فإنه عسى أن ينزل بكم غداً ما نزل بي اليوم، فقالوا له: إنا أعوانك على ذلك ما استعنتنا، ولكن ما عسى أن نقدر عليه من الموكل بالبحر.

قال الطيطوى: يا معشر الطيور سيدتنا العقاب العنقاء فلا نزال نتضرع وننادي بأعلى أصواتنا حتى ترانا فتنتقم لنا من الموكّل بالبحر. فأجابوا إلى قول الطيطوى وصرخوا إلى العنقاء فظهرت لهم وقالت: ما جمعكم ولم دعوتني. فشكوا إليها ما لقوا من الموكل بالبحر وقالوا: إنك سيدتنا والملك الذي يقتعدك أقوى من الموكل بالبحر ليقاتله. فلما عرف الموكل بالبحر ضعفه عند قوة ذلك الملك الذي يقتعد العنقاء عجّل فردّ الفراخ.

وإنما حدثتك بهذه الأحدوثة لتعلم أنه لا ينبغي لأحد أن يخاطر بنفسه وهو لا يستطيع، فإن قتل قيل: قد أضاع نفسه، وإن ظفر قيل: القضاء. ولكن العاقل يعاجل الحيل ويؤخر القتال ويتقدم قبل ذلك بما استطاع من رفق وتمحّل.

قال الثور: فما أنا بمقاتل الأسد، ولا نصب له العداوة سرا ولا علانية، ولا أتغير عن أحسن ما كنت عليه حتى يبدو لي منه ما أخاف به على نفسي.

قال دمنة وقد كريه قوله: لا أتغير للأسد عن أحسن ما كنت عليه. وظن أن الأسد إن لم يرَ من الثور العلامات التي ذكرها له فإنه متهمه، فقال للثور: إنك لو قد نظرت إلى الأسد استبان لك منه ما يريد.

قال الثور: وكيف أعرف ذلك؟

قال دمنة: إن رأيت الأسد حين ينظر إليك منتصباً مقعياً رافعاً صدره مشدّداً نحوك نظره صاراً أذنيه فاغراً فاه يضرب بذنبه الأرض فاعلم أنه يريد قتلك.

قال الثور: إن رأيت منه هذه العلامات فما هي في أمره من شك.

ثم إن دمنة لما فرغ من تحميل الأسد على شتربة ومن تحميل شتربة على الأسد توجه نحو كليلة. فلما انتهى إليه قال له كليلة: إلى أين انتهى عملك؟

قال دمنة: قد قارب الفراغ على الذي أحب وتحب فلا تشكّنّ في ذلك ولا تظنن أن المودة بين الأخوين تثبت إذا احتال لقطع ما بينهما ذو الحيلة الرفيق.

ثم إن كليلة ودمنة انطلقا ليحضروا قتال الأسد فوافقا شتربة داخلاً عليه. فلما رآه الأسد انتصب مقعياً وصرّ أذنيه وفغر فاه وضرب الأرض بذنبه. فلم يشكّ الثور أنه واثب عليه فقال في نفسه: ما صاحب السلطان في قلة ثقته به وما يتخوف من بوادره وتغير ما في نفسه له عندما يؤتى إليه من البغي والطعن والكذب إلا كصاحب الحية إذا جاورها في مبيته ومقيله فلا يدري ما يهيج منها، أو كمجاورة الأسد في عرينه، أو كالسابح في الماء الذي فيه التمساح فلا يدري متى هو مساوره. ففكر الثور في هذا وهو يتأهب لقتال الأسد إن هو أراده.

فلما نظر الأسد عند دغره منه وما داخله من سوء الظن رأى فيه بعض العلامات التي ذكرها له دمنة فلم يشك إلا أنه إنما جاءت لقتاله، فواثبه الأسد ونشب بينهما القتال. واشتد قتال الثور حتى طال وسالت الدماء منهما جميعا حتى هلك الثور.

فلما رأى كليلة الأسد قد بلغ منه ما بلغ وسالت الدماء قال لدمنة: انظر إلى حيلتك ما أنكرها وأسوأ عاقبتها. قد هلك الثور وتفرّقت كلمة الجند ووقعت ملامتهم مع ما استبان من خرقك الذي ادعيت فيه الرفق. أوما تعلم أن أخرق الخرق من كلف صاحبه القتال وهو عنه غني؟ وربما أمكنت الرجل فرصته في القتال فيتركها مخافة التعرض للمخاطرة والنكبة، ورجاء أن يقدر على صاحبه بغير قتال. وإذا كان وزير السلطان يأمر بالمحاربة فيما يقدر عليه بالملاينة والظفر بالحاجة فهو أشد له عداوة من لسانه. وكما أن اللسان تدركه الزمانة عن نهكة الفؤاد. كذلك النجدة تدركها الزمانة عن خطإ الرأي. فإن النجدة والرأي إذا فقد أحدهما صاحبه لم يكن للآخر عنه غنى عند المحاربة، وللرأي على النجدة فضل. فإن أموراً كثيرة يجزئ بها الرأي دون البأس ولا يجزئ البأس شيئاً يستغنى به عن الرأي. ومن أراد المكر ولم يعرف وجه الأمر الذي يأتيه منه كان عمله كعملك. وكان لي علم ببغيك وتعجبك برأيك. ولم أزل مذ رأيت وسمعت كلامك أتوقى معرّة تجنيها عليّ وعلى نفسك. فإن العاقل يبدأ بالنظر في الأمور والأعمال قبل ملامستها. فما رجا منها أن يتم على ما يريد أقدم عليه وما خاف ألا يتم انصرف عنه ولم يتلبّس به. ولم يمنعني من لائمتك في أول أمرك وتوقيفك على عيوبك. إلا أنه كان أمراً لم أستطع إظهاره وابتغاء الشهود عليك والأعوان وعرفت أن قولي لا يزيدك خيراً ولا يردك عن سوء.

فأما الآن حين استبان لي عجز رأيك وخرق عملك ورأيت سوء عاقبة أمرك فأخبرك عن نفسك وأوقفك على عيوبك. من ذلك أنك تحسن القول وتسيء العمل. وقد قيل: لا شيء أهلك من صاحب يحسن القول فلا يحسن العمل. وإنما غرّ الأسد منك أنك تحسن الكلام فأهلكته لأنك لا تحسن الفعل. ولا خير في القول إلا مع الفعل، ولا في النظر إلا مع الخبرة، ولا في المال إلا مع الجود، ولا في الصديق إلا مع الوفاء، ولا في العفة إلا مع الورع، ولا في الصديق إلا مع الوفاء، ولا في الصدقة إلا مع حسن النية، ولا في الحياة إلا مع الصحة والأمن والسرور. وقد شرطت أمراً لا يداريه إلا العاقل الرفيق كالمريض الذي تجتمع عليه وجوه مختلفة من الأمراض والأدوية فلا يستطيع دواءه إلا الطبيب الرفيق.

واعلم أن الأدب يذهب عن العاقل السكر ويزيد الأحمق سكراً كما أن النهار يزيد على كل ذي بصر بصراً، والخفافيش يسوء به بصرها. وذو العقل لا تبطره منزلة أصابها ولا شرف بلغه كالجبل الذي لا يتزلزل وإن

اشتدت الريح. والسخيف تبطره أدنى منزلة كالحشيش الذي يحركه نسيم الريح. وقد اذكرت أمراً سمعته يذكر من أمر السلطان أنه إذا كان صالحاً وكان وزراؤه وزراء سوء امتنع خيره من الناس فلم يستطع أحد أن ينتفع منه بمنفعة ولا صحة. وإنما مثله في ذلك مثل الماء الصافي الطيب الذي في التمساح، لا يستطيع أحد أن يدخله وإن كان سابحاً وكان إلى دخوله محتاجا. وإنما حيلة الملوك وزينتهم وقرابتهم إذا كثروا وصلحوا. إنك أردت ألا يدبر أمر الأسد غيرك، وإنما السلطان بأصحابه كالبحر بأمواجه. والخرق التماس الرجل الإخوان بغير وفاء، والأخذ بالرياء ومودة النساء بالغلظة، ونفع الناس بضرّ نفسه، والعلم والفضل بالدعة والحفظ. ولكن ما نفع هذه المقالة وما حد هذه العظة، وأنا أعلم أن الأمر في ذلك كما قال الرجل لطائر: لا تطلب تقويم ما لا يستقيم ولا تأديب ما لا يرعوي.

قال دمنة: وكيف كان ذلك؟

مثل القرود والطائر والرجل

قال كليلة: زعموا أن جماعة من القرود كانوا في جبل من الجبال فأبصروا ذات ليلة يراعة تطير فظنوا أنها شرارة فجمعوا حطباً فوضعوه عليها ثم أقبلوا ينفخون. وكان قريباً منهم شجرة فيها طائر فجعل يناديهم: إن الذي رأيتم ليس بنار. فأبوا أن يسمعوا منه فنزل إليهم ليعلمهم. فمر عليه رجل فقال: أيها الطائر لا تلتمس تقويم ما لا يستطيع ولا تأديب ما لا يتأدب، فإنه من عالج ما لا يستقيم بالمعالجة ندم. فإن الحجر الذي لا ينقطع لا تجرّب عليه السيوف. والعود الذي لا ينحني لا يعالج انحناؤه. ومن عالج ما لا يستقيم ندم. فأبى ذلك الطائر أن يسمع من ذلك الرجل وينتفع بشيء من قوله حتى دنا من القردة ليفهمهم أمر اليراعة أنها ليست بنار. فتناوله بعض القرود فقطع رأسه.

فهذا مثلك في قلة انتفاعك بالأدب والموعظة. وأنك يا دمنة قد غلب عليك الخب والعجز. والخبّ والعجز خلتا سوء. والخب أشدهما عاقبة، فأشبههما أمراً بالخب شريك المغفل.

قال دمنة: وكيف كان ذلك؟

مثل العلجوم والحية

قال أبو الخب: زعموا أن علجوماً جاورته حية وكان إذا أفرخ العلجوم ذهبت الحية إلى عشه فأكلت فراخه. وكان العلجوم قد وافقه مكانه فلم يتسطع تركه وحزن لما لقي من الحية. ففطن لذلك سرطان دنا منه فسأله: ما يحزنك؟ فأخبره ما لقي. فقال له السرطان: أفلا أدلك على أمر تستفي به من الحية. قال: وما ذلك؟ فأومأ السرطان إلى جحر قبالته فقال: أترى ذلك الجحر؟ فإن فيه ابن عرس وهو عدو للحيات. فاجمع سمكاً كثيراص ثم ضع شيئاً منه عند جحر الحية إلى جحر ابن عرس. فإن ابن عرس يأكل من السمكات الأول فالأول حتى ينتهي إلى جحر الحية فيقتلها. ففعل العلجوم ذلك وانتهى ابن عرس إلى الحية فقتلها. ثم جعل يرجع إلى ذلك المكان للعيادة يلتمس طعاما حتى وقع على عش العلجوم لقرب جواره من جحر الحية فأكل العلجوم وفراخه.

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أن من لم يتثبت في حيلته ويدبرها أوقعته في أشد ما يحتال لغيره. قال الخب: قد سمعت هذا المثل فلا تهابنه لأنه أيسر أمراً مما تظن. فتابع الشيخ ابنه وانطلق إلى الشجرة فدخل فيها، وغدا القاضي والخب والمغفل إلى الشجرة وسألها القاضي: هل عندك شهادة؟ فأجابه الشيخ من جوف الشجرة أن نعم، المغفل صاحب الدنانير. فاشتد عجب القاضي واستنكره وجعل ينظر ويتفطن، هل طاف بالشجرة أحد. وبصر بذلك الجوف فنظر فيه فلم ير شيئاً لأن الرجل قد كان ارتفع عن المكان الذي تناله فيه العين. فأمر القاضي بالحطب فجمع، ودعا النار فدخّن في ذلك الجوف وتصبّر أبو الخبر ساعة ثم نزل به الجهد فصاح ونادى واستغاث. فأمر القاضي فأخرج بعد ما أشفى على الموت. فعوقب الخب ثم غرّم ثم انقلب بأبيه على ظهره ميتاً وانطلق المغفل بالدنانير.

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أن صاحب المكر والخديعة ربما كان هو المغبون. وأنت يا دمنة جامع للخب والخديعة والعجز من ثمرة مكرك هذا الذي ترى، مع أنك لست بناج من العقوبة. وكذلك تكون عاقبة أمر من كان مثلك، فإنك ذو وجهين ولسانين. وإنما عذوبة ماء الأنهار ما لم تنته إلى البحور، وصلاح أهل البيت ما لم يفسد بينهم مفسد، وبقاء الإخاء بين الأخوان ما لم يدخل بينهم ذو لسانين. فإن ذا اللسانين ليس شيء أشبه منه بالحية لأن الحية ذات لسانين، ويجري من لسانك بينهم كسمّها. ولم أزل لذلك السم من لسانك خائفاً مشفقاً أن

يعرّني بشيء كارهاً لقربك، ذاكراً لموعزة قرابة وصحبة ومواصلة. فإن الفاجر من الأصحاب كالحية يربيها صاحبها ويمسحها ثم لا يكون له منها إلا اللسع. وكان يقال: الزم ذا العقل والكرم واسترسل إليه وإياك وفراقه، ولا بأس عليك أن تصحبه وإن كان غير محمود الخلقة. ولكن احترس من شين أخلاقه وانتفع بكرمه وانفعه بعقلك، وفرّ الفرار كله من اللئيم الأحمق. وإني بالفرار منك والاجتناب لك لجدير. وكيف يرجو أحد غيرك وفاء وكرماً وقد صنعت لملكك الذي أكرمك وشرّفك ما صنعت. بل مثلك في ذلك مثل التاجر القائل: إن أرضاً يأكل جرذها مئة منّ حديداً غير مستنكر فيها أن تختطف بزاتها الفيلة.

قال دمنة: وكيف كان ذلك؟

مثل الخبّ والمغفل

قال كليلة: زعموا أن خباً ومغفلاً أصابا في طريق بدرة فيها ألف دينار، وكانا شريكين في تجارة. فبدا لهما أن يرجعا إلى منازلهما. فلما دنوا من مدينتهما قعدا لاقتسام الدنانير. فقال المغفل للخب: خذ نصفها واعطني النصف. وكان الخب قد وطّن نفسه على أن يذهب بها كلها. فقال: لا نقتسمها، فإن الشركة والتفاوض أقرب إلى المخالصة والصفاء. ولكن خذ منها نفقة وآخذ أنا مثلها وندفن البقية في مكان حريز، فإذا احتجنا إلى النفقة جئنا جميعاً فأخذنا حاجتنا.

قال المغفل: نعم. فأخذا من الدنانير شيئا يسيراص ودفنا البقية في أصل شجرة عظيمة من شجر الدوح. ثم إن الخبّ خالفه إلى الدنانير وأخذها وسوّى الأرض على موضعها. فقال المغفل بعد ذلك بأشهر للخب: قد احتجنا إلى نفقة فانطلق بنا إلى الدنانير نأخذ منها نفقة. فانطلقا جميعا حتى أتيا الشجرة فاحتفرا المكان الذي كانت فيه الدنانير فلم يجدا فيه شيئاً، فأقبل الخب على شعره وينتفه وعلى صدره يضربه وصاح وقال: لا يثقنّ أحد بأحد ولا يغترّن بأخ ولا صاحب. خالفت إلى الدنانير فأخذتها. فجعل المغفل يتنصّل ويلعن، ولا يزداد الخب إلى شدة عليه فيقول له: من أخذها غيرك؟ هل شعر بنا أحد سوانا؟

ثم إن الخب أخذ المغفل فانطلق به إلى القاضي فاقتص عليه قصته وزعم أن المغفل هو الذي أخذ الدنانير. فقال له القاضي: هل لك بيّنة؟ قال الخب؟ نعم تشهد لي الشجرة التي كانت الدنانير في أصلها. فعجب القاضي من ادعائه شهادة الشجرة وأنكر ما قال فأمر به أن يكفل نفسه. وقال للكفيل: وافني به غدا ليطلعنا على ما ادعى من شهادة الشجرة.

فانصرف الخبّ إلى بيته فقصّ على أبيه القصة وقال: يا أبت إني لم أستشهد الشجرة لما كنت رأيت فيها وإنما اتكلت عليك فيما ادعيت به. فإن شئت فقد أحرزنا الدنانير وكسبنا مثلها من قبل المغفل. قال أبو الخب. وما ذلك الذي تأمرني به: قال الخب: إني قد توخيت بالدنانير شجرة عظيمة من شجر الدوح جوفاء فيها مدخل لا يُرى فدفنتها في أصلها في خالفت إليها فأخذتها وادعيت على المغفل زوراً. فأنا أحب أن تذهب الليلة فتدخل في ذلك المكان، فإذا جاء القاضي فسأل الشجرة شهادتها تكلمت من جوفها وقالت: المغفل أخذ الدنانير. قال أبو الخب: يا بني إنه رُبّ متحيل أوقعته حيلته في شر فإياك أن يكون تمحلك شبيهاً بتمحل العلجوم. قال الخب: وكيف كان ذلك يا أبت؟

مثل التاجر المستودع حديداً

قال كليلة: زعموا أنه كان بأرض كذا وكذا تاجر مقلّ فأراد التوجه في وجه من الوجوه ابتغاء الرزق. وكان له مئة منّ من حديد فاستودعها رجلا من معارفه ثم انطلق. فلما رجع بعد حين طلب حديده، وكان الرجل قد باعه واستنفق ثمنه، فقال له: كنت وضعت حديدك في ناحية من البيت فأكله الجرذان. قال التاجر: إنه قد كان يبلغني أن ليس شيء أقطع للحديد من أسنانها وما أهون هذه الرزيّة فاحمد الله على صلاحك. ففرح الرجل لما سمع من التاجر وقال له: اشرب اليوم عندي. فوعده أن يرجع إليه. فخرج التاجر من عنده فلقي ابناً له صغيراً فحمله وذهب به إلى بيته فخبّأه ثم انصرف إلى الرجل وقد افتقد الغلام وهو يبكي ويصرخ.

فسأل التاجر: هل رأيت ابني: قال له: لقد رأيت حين دنوت منكم بازياً اختطف غلاماً فعسى أن يكون هو. فصاح الرجل وقال: يا عجباً، من رأى أو سمع أن البزاة تختطف الغلمان. قال التاجر: ليس بمستنكر أن أرضاً يأكل جرذها مئة منّ حديد قد تختطف بزاتها الفيلة، فكيف غلاماً. قال الردل: أكلت الحديد وسمًّا أكلت فاردد ابني وخذ حديدك.

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أنك إذ غدرت بملكك ذي البلاء الحسن عندك فلا أشك بغدرك بمن سواه. فلا طمع لذي عقل في وفائك لأحد. وقد علمت أنه ليس للمروءة عندك موضع. فإنه لا شيء أضيع من مودة تمنح لمن لا وفاء له، أو بلاء حسن يصطنع عند من لا شكر له، أو أدب صالح يؤدّب به من لا يستمع له، أو سرّ يستودعه من لا حصافة له. ولست في شك من تغير طباعك لأني أعرف أن الشجرة المُرّة لو طلبت بالعسل والسمن لم تثمر إلا مراً. وقد خفت صحبتك على رأيي وأخلاقي. فإنّ صحبة الأخيار تورث الخير وصحبة الأشرار تحدث كل شرّ كالريح إذا مرّت على النتن احتملت نتناً وإذا مرّت على الطيب احتملت طيباً. وقد عرفت ثقل كلامي عليك فلم تزل السخفاء تستخف العلماء واللؤماء تعيب الكرماء وذوو العوج يُضرّ وعجهم باستقامة من خالطهم.

فانتهى كلام كليلة إلى هذا وقد فرغ الأِد من الثور. فلما قتله راجع رأيه وفكر فيما صنع بعد سكون غيظه وضاق به ذرعاً وقال في نفسه: لقد كان الثور ذا عقل وخلق ولا أدري لعله كان بريئاً مبغياً عليه، وقد فجعت نفسي بفجيعة ما أصبت منها عوضاً. فحزن وندم وعرف دمنة ذلك من الأسد فترك محاورة كليلة وتقدم إليه فقال له: ما يحزنك أيها الملك وقد أظفر الله يدك وأهلك عدوك.

فقال الأسد: حزنت على عقل الثور وكرم خلقه وذكرت صحبته وحرمته فداخلني له رأفة.

قال دنة: لا ترحمنّه أيها الملك. فإن العاقل لا يرحم من يخاف غائلته. وإن الملك الحازم ربما أبغض الرجل وكرهه ثم يقبل عليه فيقرّبه ويوليه الأمور لما يعرف عنده من الغناء والعقل، كما يقبل الرجل على الدواء البشع الكريه رجاء منفعته. وربما أحب الرجل وعز عليه فأقصاه وابعده مخافة ضرّه كفعل الرجل تلسع الحية إصبعه فيقطعها ويرمي بها مخافة أن ينتشر سمّها في جسده كله فيقتله.

فأقرّ الأسد بقوله. ثم إن الأسد فحص عن أمر الثور وعما كان من قول دمنة وبغيه عليه فاستبان الأسد كذب دمنة وسوء عمله وخيانته له فقتله شرّ قتل. فهذا حديث الأخوين المتحابين يقطع بينهما الخؤون الكذوب.

باب الفحص عن أمر دمنة

قال الملك للفيلسوف: قد سمعت حديثك في محال العدو المحتال كيف أفسد اليقين بالشبهة حتى أزال المودة وأدخل العداوة، فحدثني إن رأيت كيف اطلع الأسد على ذنب دمنة حتى قتله وكيف كانت معاذيره ومدفعه عن نفسه.

قال بيدبا الفيلسوف: إنا وجدنا في كتب خبر دمنة أن الأسد لما قتل شتربة ندم على معالجته بالقتل وتذكر حرمته. وكان من جنود الأسد وقرابته نمر كان من أكرم أصحابه عليه، وأخصّم عنده منزلة، وأطولهم به خلوة بالليل والنهار. وكان الأسد بعد قتله شتربة يطيل مسامرة أصحابه ليقطع عنه بحديثهم بعض ما قد داخله من الكآبة والحزن بقتله الثور. وإن النمر لبث في سمره ذات ليلة حتى مضت هدأةٌ من الليل. ثم خرج من عنده منصرفا إلى منزله. وقد كان منزل كليلة ودمنة قرب منزل الأسد فدنا النمر من منزلهما ليصيب قبساً يستضيء به وكانا مترافقين.

فسمع النمر محاورتهما ونصت لهما حتى سمع كلامهما كله، ووجد كليلة قد أقبل على دمنة يعذله ويقبّح له رأيه وفعله ويعظّم له جرمه ويوبّخه بغدره. وكان فيما أنبه به أن قال: إن الذي هيجت بين الأسد والثور من العداوة بعد المودة والفرقة بعد الألفة والشحناء بعد السلامة بسخافة عقلك وقلة وفائك لمظهر أمرك ومطلع طلعه، ولازمك من بغيه ما تستوبل عاقبته وتستمر مذاقته. فإن الغدر وإن لان عاجلُه واستحليت فروعه مرّ العاقبة بعيد المهواة وخيم المزلقة، وإني باجتنابك وترك مقارنتك والاقتداء بك لحقيق، فلست بآمن على نفسي من معرّتك وشرهك وغدرك. وقد قالت العلماء: اجتنب أهل الريبة لئلا تكون مريباً. فإني تارك مقارنتك ومتباعد منك ومغترب عنك لسوء أخلاقك التي بها أنشبت العداوة بين الملك ووزيره الناصح المأمون، فلم تزل بتشبيهك وتمويهك بالباطل حتى حملته على القسوة وأورطته الورطة فقتله مظلوماً بريئاً.
قال دمنة: قد وقع من الأمر ما لا مردّ له فدع تضييق الأمور عليّ وعلى نفسك فإني سأعمل في التغييب عن موقع الأمر في نفس الأسد. فقد كرهت ما مضى مني. والحسد والحرص حملاني على ما صنعت.

فلما سمع النمر ذلك من كلامهما انصرف خفيّاً مسرعاً حتى دخل على اللبوءة أم الأسد فأخذ عليها عهداً ألا تفشي سرّه إلى الأسد ولا إلى غيره. فعاهدته على ذلك فأخبرها بالقصة على وجهها من قول كليلة وإقرار دمنة.

فلما أصبحت أم الأسد أقبلت حتى دخلت على الأسد فوجدته مكتئباً حزيناً لقتله شتربة فقالت: إن حزنك غير رادّ عليك مدبراً ولا سائق إليك نفعاً، وأنت غنيّ عن أن تجعله للبلاء عوناً عليك فتضعف به فؤادك وتنهك به جسمك وتحمل به المضرة على نفسك، وأنت بحمد الله بتحصيل الأمور رفيق بصير بصادرها وواردها. فإن علمت أن لك في الحزن فرجاً فحمّلنا منه مثلما أنت فيه. وإنت علمت أن لك في الحزن فرجاً فحمّلنا منه مثلما أنت فيه. وإنت علمت أنك لا تُرجع به مدبراً ولا تسوق به إليك نفعاً فارغب عنه وانظر فيما يعود عليك نفعه. وإن اعتبار ما بلغك عن شتربة حتى يصحّ لك حقيق ذلك من باطله ليسير.

فقال الأسد: فكيف لي بذلك؟

قال أم الأسد: إن العلماء قد قالوا من أراد أن يعرف محبه من مبغضه وعدوه من صديقه فليعتبر ذلك من نفسه. فإن الناس على مثل ذلك له كما هو عليه لهم وإن أقنع ما شهد على امرئ نفسه. فلنا من قولك دليل على أن قلبك يشهد عليك بأنك عملت ما عملت بغير علم ولا يقين. وذلك فاعلم أنه رأس الخطأ. ولو كنت حين بلغك عن الثور ما بلغك كففت نفسك وملكت غيظك ثم عرضت ما بلغك عنه على قلبك بحسن النظر لاكتفيت بقلبك دليلاً على تكذيب ما أتاك عنه، لأن القلوب تتكافأ فيما يتلاقى بعضها من بعض في سرّها وعلانيتها. فقس أمرك وأمر الثور بموقع أمر كان في نفسك جنايته وموقعه اليوم بعد موته.

فقال الأسد: لقد أكثرت الفكر وحرصت على التجني على الثور بعد قتلي إياه لعلي آخذه في ذنب واحد كان فيما بيني وبينه أقوّي به تهمتي فما يزداد ظني به إلا حسناً وله وداً. ولست أتذكّر منه شرارة خلق أقول هي حملته على أن ابتدأني بالحسد ولا نقص رأي أتهمه به على طلب مغالبتي، ولا أتذكر مني إليه أمراً سيئاً أرى أنه دعاه إلى عداوتي. فإني أحب أن أفحص عن أمره وأبالغ في البحث عنه وإن كنت أعرف أن ذلك غير مصلح ما فرط مني. ولكني أحب أن أعرف موقعي الذي أنا عليه فيما صنعت من الخطأ أو الصواب. فأخبريني هل سمعت من أمره شيئاً تذكرينه لي.

قالت أم الأسد: نع قد بلغني أمر استكتمنيه بعض أهلك. ولولا ما قالت العلماء في إذاعة السر والتضييع للأمانات وأنت تترك ما لا نفع فيه وما منجى لأخبرتك بما علمت.

قال الأسد: إن العلماء لأقاويلهم وجوه كثيرة ومعان مختلفة وأحوال متصرفة، وليس في كل الوجوه أمر بالكتمان ولكل أمر موضع وخبر. فإذا كان في موضعه صلح العمل به ونفع، وإن كان في غير موضعه ضر وأفسد. فمما تعظم مضرّته ولا يرضى استقالته كتمان ما ينبغي له أن يعلن عذراً في إسراره ولا سعة في السكوت عنه. فإني أرى أن مطلعك عليه قد ألقى على نفسك وزره وحمّلك خيره وشرّه وأنت حقيقة بإظهاره، وحمله الوجل على نفسه من كتمانه، فألقي ما استودعت منه عنك بإفشائه إليّ وإظهاره.

قالت أم الأسد: قد عرفت الذي قلت وإنه كما قلت وإن كان في ما ذكرت ما يحملن يعلى كثير من الكلام لعلمي بموقع هذا الأمر في نفسك. فلا أراك إن كنت على ما أرى من الرأي أن يمنعك من العزم والمبالغة في نكال أهل الجريمة والغدر في اعتقاد الألفة والثقة والتصديق. فحدثني إن كان في نفسك مني حرج.

قال الأسد: ما في نفسي حرج ولا أنتِ عندي نمّامة ولا أنا في نصحك مرتاب ولا أرى عليك في ذلك من ضرر في إفشاء ذلك الأمر إليّ.

قالت أم الأسد: بل ضرر منه عليّ في خلال ثلاث: أما واحدة فانقطاع ما بين وبين صاحب هذا السر من المودة لإباحتي بسره، وأما الأخرى فخيانتي لما استُحفظت من الأمانة، وأما الثالثة فوجل من كانوا يسترسلون إلي قبل اليوم مني وقطعهم أسرارهم عني.

قال الأسد: الأمر على ما قلت وما أنا عمّا كرهت بالمفتش، وما يختلج في صدري الارتياب بنصحك، فأخبرني بجملة الأمر إن كرهت أن تخبريني باسم صاحب السر ما أسرّ إليك منه.

فأخبرته بجملة ذلك الحديث ولم تسمّ من ذكره لها. وكان فيما قالت أن قالت: إنه لا ينبغي للولاة والرؤساء استبقاء الخونة الفجرة أهل الغدر والنميمة والمحال والإفساد بين الناس بفساد صلاحهم. وأول من نفى عن الناس من يفسدهم وساق إليهم من يصلحهم القادة المتولّون لأمورهم. وأنت بقتل دمنة حقيق، فإنه قد كان يقال: إن إفساد أجلّ الأشياء من قبل خصلتين: إذاعة السر وائتمان أهل الغدر. وإن الذي أنشب العداوة بينك وبين شتربة أنصح الوزراء وخير الإخوان حتى قتلته غدر دمنة وجهالته ومكره وخيانته. وقد اطلعت على مكنونه وبدا لي ما كان يُخفي عليك وعلمته نحو ما كان يذكر من حديثه إياك قبل اليوم. فالراحة لك ولجندك وإن ظهر منه ما كان يكتم وعلن منه ما كان يبطن بقتله، فاقتله عقوبة لجريمته وإبقاءً على جندك فيما يُستقبل من شرّه. فإنه ليس على مثلها إن انتعش بمأمون. ولعلك أيها الملك أن ترْكن إلى ما أمر به الملوك من العفو عن أهل الجريمة. فإن رأيت ذلك فاعلم أنه ليس في من بلغ جرمه جرم دمنة لأنه لا ذنب له أكثر مما جنى دمنة علانية وسراً بخلابته ومكره وتحميل الملك على البريء من وزرائه السليم صدره الناصح جيبه، حتى انطوى منه على حسده وقتله على شبهة.

ثم قالت: إني لست أجهل قول العلماء لتعظيم الفضل في العفو عن أهل الجرائم. ولكن الفضل في ذلك إنما هو دون النفوس أو جناية العامة التي يقع فيها الشين وتحتج بها السفهاء عندما يكون من أعمالهم السيئة واستعد بها الملك بالأمر الذي يضل خطره فيه إن كان إلى العامة.

فأمر الأسد أمه بالانصراف عنه وبعث حين أصبح إلى جنوده فأُدخل عليه وجوههم. فأرسل إلى أمه فحضرت المجلس ثم دعا بدمنة فأُتي به. فلما أقام بين يديه قلب الأسد يده بالتمثيل به. فلما رأى دمنة ذلك أيقن بالهلكة فالتفت إلى بعض من يليه فقال له بصوت خفيّ: هل حدث من حديث أحزن الملك أو هل كان شيء جمعكم له كما أرى؟

قال دمنة: ما أرى الأول ترك للأخير مقالاً في شيء من معاريض الأمور. وقد جرى في بعض ما يقال أنّ أشدّ الناس اجتهاداً في توقي الشر أكثرهم فيه وقوعاً، ولا يكون للملك وجنوده المثل السوء. وقد علمت أن ذلك إنما قيل في صحبة الأشرار. إنه من صحبهم وهو يعلم عملهم لم ينجّه من شرورهم توقيه إياها. ولذلك انقطعت النساك بأنفسها واختارت الوحدة في الجبال على مخالطة الناس وآثرت العمل لله على العمل لخلقه لأنه ليس أحد يجزي بالخير خيراً إلى الله. فأما من دونه فقد تجري أمورهم على فنون شتى يكون مع ذلك في أكثرها الخطأ. وما أحد بأحق بإصابة الصواب من الملك الموفق الذيا لا يصانع أحداً لحاجة به إليه ولا لعاقبة يتخوّفها منه. وإن كان أحق من ذلك من عظمت فيه رغبة الملوك من محاسن الصواب فمكافأة أهل البلاء الحسن عندهم. وما بلاء أبين حسناً من نصيحة. ولقد علم وعلمت وعلم جميع من حضر أنه لم يكن بيني وبين الثور أمر أضطغين عليه فيه حقداً ولا أبغي له غائلة، وما كان بذلك من ضرّ ولا نفع. ولكني نصحت الملك فيه وأعلمته ما اطلعت عليه من أمره حتى أبصر مصداق ما ذكرت له وكان فيه أفضل رأياً وأشد حزماً وعزماً. ولقد أعرف أنه قد تخوّف مثلها مني غير واحد من أهل الغش والعداوة فنصبوا نصبي وأجمعوا على طلب هلاكي. وما كنت أتخوّف أن يكون جزائي على النصيحة وحسن البلاء أن يحزن الملك على تركه إياي حيّاً.

فلما سمع الأسد قول دمنة قال: أخرجوه عني وادفعوه إلى القضاء، فليفتشوا عن أمره، فإني لست أحبّ أن أحكم على محسن ولا مسيء إلا بظهور وجه الحق والعدل.

فسجد دمنة للأسد ثم قال: أيها الملك إنه ليس أكشف للعمى ولا أوضح للشبهة ولا أشد استخراجاً لغامضات الأشياء من الاجتهاد والمبادرة فيما يصاب به ذلك. وقد علمت أيها الملك أن النار تكون مستكنّة في الشجر والحجارة فلا تخرج ولا تصاب منفعتها إلا بالعمل والطلب. ولو كنت مجرماً لتخوّفت التكشّف عن جرمي كما قد أصبحت لعلمي ببراءتي، أرجو أن يخرج الفحص والتكشف صحة أمري. وكذلك كل شيء طابت رائحته أو نتنت فاليوم يزيده فووحاً وظهوراً. ولو كنت أعرف مع ذلك لنفسي ذنباً أو جرماً لوجدت في الأرض مذهباً ولما لزمت باب الملك أنتظر ثواب عملي. ولكني أحب أن يأمر الملك من يلي الفحص عن أمري أن يرفع إليه في كل يوم ما يكشف من عذري وبراءتي ليرى فيّ رأيه ويعارض بعض أمري ببعض ولا يعمل في أمري بشبهات أهل البغي والعداوة، فإن الذي رأى الملك من تشبيههم عليه ما قد استبان من عداوة الثور لجدير أن يمنعه من الإقدام على قتلي بعد الذي علم من نصيحتي وحوطتي عليه ومن رأيه الذي قد علمه الملك من منزلتي في نفسي من خساسة الحال وصغر الخطر. وإني لست أستطيع أن أدفع نفسي عن نسبة العبودية ولا أطمع فيما يطمع فيه من فوقي. فإني وإن كنت عبد الملك فإن لي من عدله نصيباً أعرف أن الملك معطينيه من نفسي في حياتي وبعد موتي. فإن كان الملك أجمع على دفعي إلى من يبحث عن أمري وينظر في براءتي فإني أرغب إلى عدله ولا يغفل أمري وأن يأمر برفع معاذيري إليه يوماً بيوم. فإن كان الملك للبلاء المقدور عليّ وقلة استطاعتي لامتناع

من القدر غير متروّ في أمري ولا متبحّث عن شأني ولا صارف العقوبة عني لقول أهل الشرارة والمحال على غير ذنب سلف مني، فلم يبق لي ناصرٌ ألجأ إليه إلا الله فإنه كاشف الكرب. وقد قالت العلماء: إنه من صدّق فيما يشبّه عليه بما ينبغي الشك فيه وكذّب بما ينبغي أن يصدّق فيه أصابه ما أصاب المرأة التي بذلت بمالها لعبدها بتشبيهه عليها.

قال الأسد: وكيف كان ذلك؟

مثل المرأة والمصوّر والعبد

قال دمنة: زعموا أنه كان بمدينة باثرون في أرض تدعى كشمير تاجر يدعى حبلاً وكانت له امرأة ذات حيلة ودهاء تختلس من ماله فتبيعه لشؤونها. وكان إلى جانب بيتها مصوّر ماهر بالتصاوير يواطئها على اختلاس المال. فقال المرأة للرجل في بعض أحيانه التي كان يأتيها فيها: إن استطعت أن تحتال بصناعة اطّلع بها على مجيئك إذا جئتني بالليل من غير نداء ولا رمي ولا شيء يرتاب به يكون رفق ذلك بي وبك. فقال المصور: عندي في ذلك من الحيل ما يسرّك، وهو أن عندي ملاءة بتهاويل الصور، وجهها الواحد شبيه باليقق الأبيض الشبيه بضوء القمر، والوجه الآخر حالك السواد شبيه بالظلمة الحندسية منظراً. فبياضها يدعوك في الليلة الظلماء بضوئه وسوادها يبدو لك في الليلة المقمرة، فقال: إذا رأيتها فاعلمني أني صاحبك فتأتيني بالمال دون نداء. فدخل عبد للتاجر وهما يتفاوضان في ذلك فسمع قولهما، فأراد أن يصيب شيئاً من المال المختلس. فلما كان بعد ذلك وكان العبد صديقاً لأمة المصور طلب إليها أن تعيره الملاءة ليريها صاحباً له ويسرع إلى ردها. فأعطته الملاءة فلبسها ولقي المرأة على نحو ما كان يأتيها المصور. فلما رأته لم ترتب بشيء من شأنه فبذلت له حصة من المال ثم رجع العبد بالملاءة إلى الأمة فوضعتها في موضعها. وكان المصور عن بيته غائباً. فلما مضت هدأة من الليل رجع المصور إلى بيته ولبس الملاءة وأتى بها المرأة. فلما رأت الملاءة دنت منه فقالت: ما شأنك أسرعت راجعاً وقد أخذت المال في أول الليل. فلما سمع المصور كلامها خبت نفسه وانصرف نحو منزله، ثم دعا جاريته فتوعّدها بالضرب فأخبرته بالأمر على وجهه، فأحرق المصور الملاءة وندم على صنعه إياها.

وإنما ضربت لك هذا المثل أيها الملك لتعلم أن الشبهة كذب وأن الكذب يعيب صاحبه. ولست أنت حقيقاً بقتل البريء ذي الصحبة لوشي الوشاة وتحامل الخونة عليه. ولست أقول أيها الملك هذا كراهة للموت فإنه، وإن كان كريهاً، فلا منجى منه، وكل حي ميت. ولو كانت لي مائة نفس وأعلم أن رضا الملك في إتلافهن لطلبت له بهن نفساً. فإن ظننت أيها الملك أن لك بقتلي روحاً وفرجاً فإن العلماء قد قالوا: من اقترف خطيئة أو ذنباً فأسلم نفسه للقتل تكفيراً عن إثمه عفا الله عنه ونجا من الشرّ في الآخرة. فإني وإن كنت أعلم أن الله قد باعد الملك من الجور والاعتداء وإهلاك النفس البريئة بوشي الأشرار وتحميل الفجّار، فإني أحب أن لا يعجّل بأمر دون الفحص والترويه.

فبينما دمنة يقول معذرته إذ اعترض له أحد الحضور من بعض جلساء الملك فقال: أيها الملك إن دمنة ليس ما يقول تعظيماً لحق الملك ولا توفيراً لفضله، ولكنه يريد أن يدفع عن نفسه ما قد نزل به من سوء عمله.

قال دمنة: وهل، وليك، على امرئ في العذر لنفسه عيب؟ وهل أحد أقرب إلى الإنسان من نفسه؟ إذا لم يلتمس لها العذر فمن يلتمسه لها؟ وقد أحق بنصيحتي من نفسي، أو من أحق أن أنصح عنه منها؟ وقد قالت العلماء: إن المستهين لنفسه المبغض لها هو لغيرها أقطع وأبغض ولمن سواها أغش وأرفض. وقولك هذا مما يستدل به من حضر على قلة عقلك لما قلت ولجهالتك لما يدخل عليك فيه. ولقد ظهر منك ما لا تملكه من الحسد والبغضاء، وعرف من سمع قولك أنك لا تحب أحدا، وأنك عدو نفسك فمن سواها. فمثلك لا يصلح أن يكون إلا مع البهائم فضلاً من أن تحضر مجلس الملك أو تكون ببابه.

فلما سمع المقول له هذه المقالة من دمنة سكت فلم يحرْ جواباً وخرج مستحياً.

فقال أم الأسد لدمنة: إن من العجب انطلاقك بالقول مجيباً لمن تكلّم وقد كان منك ما كان.

قال دمنة: علام تنظرين بعين واحدة وتسمعين بأذن واحدة لشقاوة جدي؟ كذا كل شيء قد تنكّر وتغير. فليس ينطق أحد بحق ولا يقوم به ولا يتكلم إلا بالهوى. ومن بباب الملك لثقتهم به وطمأنينتهم إليه وتعطفه عليه لا يتّقون أن يتكلّموا بأهوائهم فيما رافق الحق أو خالفه وهو لا يغير عليهم ولا ينهاهم.

قالت أم الأسد: انظر إلى هذا الفاسق الفاجر الذي ركب الأمر العظيم كم يأخذ بأعين الناس ويبرّئ نفسه.

قال دمنة: إن الفاسق الفاجر من يذيع ولم يدفنه، والرجل الذي يلبس لباس المرأة والمرأة التي تلبس لباس الرجل، والضيف الذي يزعم أنه رب البيت، ومن ينطق في مجتمع عند الملك بما لا يسأل عنه.

قالت أم الأسد: يا شقي، أما تعلم من نفسك سوء عملك ومكرك وفجورك.

قال لها دمنة: الشقي الذي يرتكب المنكر ولا يريد لأحد خيراً ولا يدفع عن نفسه المكروه.

قالت أم الأسد: أيها الخائن الفاجر، إنك لتجترئ على مثل هذا القول. عجباً للملك أن يتركك حياً.

قال دمنة: إن الخائن الفاجر الذي يؤتى بالنصيحة ويمكّن من عدوه ثم لا يشكر ذلك ولا يعرفه لمن أتاه به، ولكن يريد قتله على غير ذنب.

قالت أم الأسد: لسمع موعظتك وضربك الأمثال لمن كلّمك أعجب عندي من الذي سلف من خلابتك ومكرك وحسدك.

قال دمنة: هذا موضع العظة إن قبلت وموضع الأمثال إن نفعت.

قالت أم الأسد: أيها الغادر الفاجر إن في سوء عملك لشاغلاً لو عقلت من ضرب الأمثال.

قال دمنة: إنما الغادر من أخاف من عمل في أمنه وعادى من كشف له عداوة أعدائه.

قالت أم الأسد: كأنك ترجو أيها الكاذب أن تنجو بتسطير المقال مما اجترمت.

قال دمنة: إن الكاذب من كافى بالإحسان إساءة بالخير شراً وبالأمن خوفاً. وأما أنا فقد أنجزت ما وعدت ووفيت العهد.

قالت أم الأسد: ما وعد الذي أنجزت وعهدك الذي وفيت؟

قال دمنة: سيدى يعلم أني لو كنت كاذباً لم أجترىء على الكلام عنده بالباطل وانتحال الكذب.

فلما رأت أم الأسد أن كلام دمنة لا يزيد الأسد إلا لينا ارتابت وداخلها الخوف شفقاً على أن يرى بعض ما يقول دمنة في براءته وعذره فقالت للأسد: إن الصمت على حجج الخصم لشبيه بالإقرار بحقيقة ما يقول. ومن هنالك قالت العلماء: أقرّ صامت. ثم قامت وهي غضبانة تريد الخروج.

فأمر الأسد بدمنة فجعلت الجامعة في عنقه وحبس وأمر بالفحص عنه.

فقالت أم الأسد له: إني لم أزل أسمع بمكر دمنة منذ زمان، ثم حقق عندي ما سمعت من إفكه وافتعاله المعاذير وكثرة مخارجه بغير صدق ولا براءة. فإنك إن أمكنته من الكلام دافعك عن نفسه بالحجج الكاذبة. وفي قتله لك ولجنودك راحة عظيمة، فاجل قتله. ولا تأخذك فيه هوادة ولا توقفك عنه شبهة؛ فإن الصغير والكبير من جندك عرفوا بنميمة دمنة وعلموا بفضائحه خاصة في أمر البريء الناصح وخير الوزراء شتربة. فقد استعاد الكذب وهو منه خلقٌ راسخٌ وطبيعة لازمة. والراحة لك ولجندك ترك المناظرة والقتل له بذنبه.

قال الأسد: إن من شأن بطانة الملوك وقرابتهم التنافس في المنازل بينهم ودخول البغي والحسد من بعضهم على بعض ولا سيما على ذي الرأي والنبالة منهم لخاصته. وقد علمت أن مكان دمنة قد ثقل على غير واحد من جنودي وأهلي، فلست أدري لعلّ الذي أرى وأسمع من جماعتهم وإجماعهم عليه لبعض ذلك. وأنا أكره العجلة في أمره. فإن العلق الصالح لا يستهلك إلا في حقه وموقع القدر فيه لمن استهلكه. ولا أجدني معذوراً باتباع نفسي والمعاجلة له دون الفحص والثبات. ولكن كوني بخير واسلمي فإني قد بدا لي من الرأي ما ينبغي.

فانصرفت أم الأسد بسكون جأشها وطيب نفسها وأخذ الأسد مضجعه.

ولما أدخل دمنة السجن وغلظ عليه الوثاق أخبر كليلة أن دمنة دق ردّ إلى السجن فداخلته له رقة وأدركته فيه رحمة لطول الصحبة والممالحة والإخاء الذي كان بينهما. فانطلق له مستصفياً حتى لقيه في السجن. فبكى كليلة لما نظر إليه وإلى ما هو فيه من الغم والضيق والبلاء، ثم قال له: إن ما أنت فيه لكافيك من عظتي، ولكن لا يمنع ذلك إنذارك والنصيحة لك. فإن لكل مقال موضعاً. ولو كنت قصّرت في عظتك حين احتجت إلى ذلك مني في حال العاقبة لكنت اليوم شريكك في الذنب، ولكن الإعجاب بنفسك دخل بك مدخلاً قهر رأيك وغلب على عقلك. وقد كنت أضرب لك مثلاً قول العلماء: "إن المحتال يموت قبل أجله"، وليس قولهم "يموت قبل أجله"، انقطاع الحياة، ولكنهم أرادوا دخول الأشياء التي تفسد الحياة كنحو ما أنت فيه مما الموت أروح منه.

قال دمنة: لم تزل منذ كنت تقول الحق بجهدك وقد كنت تعظني وتنصحني ولكنّ شدة النفس والحرص على طلب المنزلة فيّلا رأيي وسقّها نصحك عندي، كالمريض المولع بالطعام الذي عرف أنه يغلّط مرضه ويضرّ بجسمه فيدع معرفته وينقاد لشهوته. وقد عرفت أني زرعت لنفسي هذا البلاء، والزرع إنما ينبت لأوانه وزمانه وإن تقدم في زرعه. وهذا أوان حصاد ما زرعت لنفسي. وإنما يشتد عليّ البلاء لخوفي أن تتهم في أمري لما كان بيني وبينك، وأخاف مع ذلك إن بسطت عليك العقوبة أن تعترف بما كنت اطلعت عليه من أمري. وأما الأخرى فإنك ممن لا يتهم في صدق مقالته على البعيد فكيف على من منزلته مثل منزلتي.

قال كليلة: عرفت، وقالت العلماء إن الأجساد لا تصبر على حلول العذاب ولا تمتنع عنده من القول بكل ما تستطيع أن تدفعه. وإني لأرى إذ نزلت بك هذه النازلة أن تبوء بذنبك وتعترف بإساءتك فتخرج نفسك من تبعة الآخرة بالتوبة مما صنعت، فإنك لا محالة هالك. فلا تجمع على نفسك هلاك العاجل والآجل. ولخير لك أن تعذّب في الدنيا بجرمك من أن تعذّب في جهنّم مع الإثم.

فقال دمنة: صدقت ونصحت وأنا مفكر فيما ذكرت. ولكن العمل فيه شاق مهول وعقاب الأسد شديد أليم.
فانصرف كليلة إلى منزله مغموماً تحدس نفسه بكل بلاء وشر. فلم يزل كذلك حتى هاج عليه بطنه فمات قبل أن يصبح. وكان في السجن فهد محبوس كان نائماً قريباً من دمنة وكليلة حتى اجتمعا في السجن، فاستيقظ بكلامهما فسمع كل ما دار بينهما من معاتبة كليلة لدمنة على سوء فعله وإقرار دمنة بإثمه فحفظ ذلك وكتمه فلم يذكره.

فأصبحت أم الأسد فذكرت للأسد أمر دمنة وعذره وقالت: إن استبقاء الفجار بمثابة قتل الأبرار، وإن من استبقى فاجراً شاركه في فجوره أو برّا شاركه في برّه.

فلما سمع الأسد كلام أمه أمر القاضي والنمر بتعجيل النظر في أمر دمنة والمسألة عنه في عامة الناس، وأن يرفعا إليه ما يلحق بدمنة من ذنب أو سبيل، وما ادعى دمنة من عذر ومخرج.

فخرج النمر والقاضي نظران في ذلك من أمره وبعثا إلى دمنة من يأتي به. فلما أتوا به توسط محفل مجلسهم فانتصب قائماً فهجر النر بصوته وقال: إنكم قد علمتم معشر الجند ما دخل على الملك من الحزن في قتل شتربة شفقاً من أن يكون أحد أنهى إليه باطلاً في أمره وشبّه عليه دمنة بالكذب في السعاية به. وقد نصبا للنظر في ذلك، وأنتم محقون ألا تكتموه سراً ولا تدّخروه نصحاً ولا تخفوا عليه جرماً. فليقل كل امرئ منكم بما يعلم وليتكلم به على رؤوس الجمع والأشهاد، فإنه لا يجب أن تفرط بده بعقوبة أحد لهوىً له أو لغيره من غير استحقاق المعاقب للعقوبة بجنايته.

قال القاضي: قد سمعتم الذي قيل لكم فلا ينبغي لأحد منكم كتمان شيء مما علم من خصال ثلاث: إحداهن الصدق فيما استشهدتم عليه وألا تجعلوا العظيم من الحق صغيراً. فأي عظيم أعظم من ستر ذنب من أورط الأخيار واستزلهم وأهلك بعضهم ببعض بسعايته كذباً ومينا. فالكاتم عليه ليس بريئاً من ضرّ جنايته ولا بعيداً من أن يكون شريكاً له في عمله. والثانية معاقبتنا المذنب مقمعة لأهل الريبة، مصلحة للملك والرعية. والثالثة أن الأشرار إذا نفوا من الأرض زاد ذلك الرعية تواصلاً والصالحين سروراً وأهل التناصح اغتباطاً. فليقل كل امرئ منكم ما علم لكيما يكون القضاء في ذلك على الحق لا على الهوى والظن.

فلما قصّ قائلهم قوله سكت من حضر فلم ينطق منهم أحد بكلمة لأنهم لم يعلموا من أمره علماً واضحاً يتكلمون به، وكرهوا القول بالظنون خوفاً من أن يدخل قولهم حكماً أن يوقع قتلاً. فلما رأى دمنة سكوتهم تكلم فقال: إني

لو كنت مجرماً لسررت بسكوتكم عن القول في أمري إذ لم تعلموا لي جرماً لأن كل من لم يعلم له جرماً فلا سبيل عليه، فهو البريء المعذور. ولك قول عاقبة عاجلة أو آجلة. فمن عرّضني لعطب بغير علم أو قال في أمري بالشبهة والظن أصابه من عاقبة قوله ما أصاب المتطبب الذي انتجب علم ما لما علم له به.

قال القاضي: وكيف كان ذلك؟

مثل المتطبب الكاذب

قال دمنة: زعموا أنه كان ببعض مدائن السند متطبب ذو وفق وعلم، كثير الحظوة فيما يجري على يديه من أسباب العافية فيما يعالج به الناس من طبّه وأدويته. فمات ذلك المتطبب وانتفع الناس بما في كتبه. وإن رجلاً سفيهاً ادعى علم الأدوية وأشاع ذلك في الناس. وكان لملك تلك المدينة ابنة لها داء ثقيل فبعث الملك يطلب الأطباء فذكر له متطبب على رأس فراسخ يوصف بعلم الطب فبعث إليه. فلما جاءه الرسول وجده قد ذهب بصره من الكبر، فذكروا له علة الجارية وما تجد، فوصف لها دواء له اسم معروف يقال له زمهران. فقالوا له: اخلط لنا هذا الدواء. قال: لست أبصر لأجمع أخلاطه على معرفتي. فأتاهم ذلك السفيه المدعي علم الطب فأعلمهم أنه عارف بذلك الدواء، عالم بالأخلاط والعقاقير، بصير بطبائع الأدوية المفردة والمركّبة. فأمر الملك بإخراج كتب المتطبب الميت إليه وإدخاله الخزانة ليأخذ مما فيها من أخلاط الأدوية. فلما دخل وعرضت عليه أخلاط الأدوية وهو لا يدري ما هي ولا معرفة له بها، أخذ منها أشياء بغير علم ولا معرفة إلا على الظن والشبهة فوقع في سم قاتل، فأخذه وخلطه بأخلاطه تلك ثم سقى الجارية، فلم تلبث إلا ساعة حتى ماتت. فأخذه الملك فسقاه من دوائه الذي خلطه فمات لوقته.

قال دمنة: إنما ضربت لكم هذا المثل لتعرفوا ما يدخل على القاتل بالجهالة والعامل بالشبهة من الإثم. ثم تكلم سيد الخنازير صاحب مائدة الملك إتباعاً لهوى أم الأسد، فقال: إن أحق من لم يسأل عنه العامة ولم يشكل أمره على الخاصة لهذا الشقي الذي قد ظهرت فيه علامات الشر وسمات الفجور وقد عرف العلماء ما الحكم فيها.

قال رأس القضاة: وما تلك العلامات والسمات؟ فأطلعنا على ما ترى في صورة هذا الشقي. فجهر سيد الخنازير بصوته وقال: إن العلماء قد قالوا: إن من صغرت عينه اليسرى وهي لا تزال تختلج، ومال أنفه بعض الميل إلى شقّه الأيمن وبعد ما بين حاجبيه، وكانت منابت شعر جسده ثلاث شعرات ثلاث شعرات، وإذا مشى كان أكثر نظره إلى الأرض ويلتفت تارة بعد تارة، فإن ذلك مستجمع للغدر وطباع الآثام والبغي على الصالحين. وهذه العلامات كلها في دمنة.

فلما قضى قوله أكثر دمنة التعجب من كلامه وقال: إن الأمور يحكم بعضها بعضاً وإن حكم الله صواب لا خطأ فيه ولا جور فيه ولا عدوان. ولو كانت هذه العلامات التي ذكرتها وأشباهها ينابب بها عن العدل والمعرف بالحق، لم يتكلف الناس الحجج ولم كان جزاء أهل الإحسان وجزاء أهل الفجور إلى على هذه العلامات. وهذا لم يوجب عليّ شيئاً لأن هذه العلامات تخلق مع صاحبها حين يخلق وتولد معه حين يولد. وإن كنت تزعم أن الخير والشر إنما يكونان بالعلامات فكذلك إذاً لا حمد للمحسن ولا ذمّ على المسيء، ولا أجدني في هذا أيضاً إلا معذوراً، ولا أراك تنطق إلا بعذري وتذكر براءتي وأنت لا تدري ولا تفكر فيما تقول وإنما أنت في هذا كرجل قال لامرأته: أبصري عيبك يا سفيهة ثم عيبي غيرك.

فسُئِل دمنة كيف كان ذلك؟

مثل الرجل والمرأتين

قال دمنة: زعموا أن مدينة كانت تدعى بورخشت دخلها الأعداء مرة فقتلوا ممن كان فيها عالماً وسبوا نساءهم واقتسموا السبي. فأصاب جندي من العدو رجلاً حرّاثاً مع امرأتين. فكان ذلك الرجل يعرّيهم من الكسوة ويصومهم عن المطعم والمشرب. فانطلق الحرّاث يوماً من الأيام مع الرجل والمرأتين ليحتطبوا فوجدت إحداهما خرقة فاستترت بها فقالت الأخرى لبعلها: ألا تنظر إلى هذه كيف تمشي بخرقتها. فقال زوجها: ويلك ألا تبصرين نفسك فتستري مثلها ثم تكلمي.

فأمرك أنت أعجب فيما قد عرفت من قذارة جسمك ونجاستك وجرأتك على ذلك من الدنو إلى طعام الملك والقيام عليه وبين يديه كالبريء من العيب والنقيّ من الدنس، ولست بالمطلع على عيبك دون أهل العقل من أهل

المجلس. ولم يمنعني من إبداء عيبك قبل اليوم إلا مودة كانت ما بيني وبينك. فأما إذ قد طعنت عليّ وابتدأتني بالظلم لما انطويت عليه من عداوتي وقذفتني على غير علم بالباطل بمحضر الجند، فإني قائل بما أعلم من عيبك مبدي الذي أخفيت من دنسك الذي لم يكن معه داع أن تخدم الملك ولا أن تخدم الذي تحته. فحقّ على من عرفك حق المعرفة أن يمنع الملك من استعمالك ويدفعه إلى عزلك عن طعامه.

فلما سمع سيد الخنازير ذلك من دمنة كفّ وتلجلج لسانه واستحيا وكفّ جميع من حضر من الجمع عن القول في شيء من أمره.

وكان بين الحضور شعهر قد جرّبه الأسد فوجد فيه أمانة وصدقاً فاتخذه في خدمته وأمره أن يحفظ جميع ما يجري بينهم ويطلعه عليه. فدخل على الأسد وأعلمه بحديثهم من أوّله إلى آخره دون أن يكتم عنه شيئاً. فلما سمع الأسد ذلك أمر بعزل سيد الخنازير عن عمله ومنعه من الدخول عليه ورؤية وجهه، ثم أمر بدمنة أن يردّ إلى السجن. وكتب ما جرى في محاكمته وختم عليه النمر.

وكان لكليلة في حاشية الأسد صديق يدعى روزبة بينه وبين كليلة إخاء ومودة. وكان عند الأسد وجيهاً وعليه كريماً، فانطلق إلى دمنة وأخبره بموت كليلة الذي قضى إشفاقاً من أن يتلطّخ بشيء من أمر أخيه وحذراً عليه. فبكى دمنة وحزن وقال: ما أصنع بالدنيا بعد مفارقة الأخ الرحيم والصديق الحميم. لقد صدق القائل إن الإنسان إذا ابتلي ببليّة أتاه الشر من كل جانب واكتنفه الهم والحزن من كل مكان. ثم التفت إلى روزبة قائلاً: ولكن أحمد الله تعالى إذ لم يمت كليلة حتى أبقى لي أخاً مثلك. قد وثقت بنعمة الله وإحسانه إليه فيما رأيت من اهتمامك بي ومراعاتك إياي. وقد علمت أنك رجائي وركني فيما أنا فيه. فأريد من فضلك أن تنطلق إلى مكان كذا وكذا فتنظر ما جمعته أنا وأخي كليلة بحيلتنا وسعينا ومشيئة الله تعالى فائتنا به.

ففعل روزبة بما أمره دمنة وأتى بمال كثير وضعه بين يديه. فأعطاه دمنة أكثره وقال: إنك على الدخول والخروج على الأسد إذا شئت أقدر من غيرك فتفرّغ لشأني واصرف اهتمامك إليّ واسمع ما أذكر به عند الأسد إذا رفع إليه ما جرى بيني وبين الخصوم، وما يبدو من أم الأسد من حقي، وما ترى من موافقة الأسد لها ومخالفته إياها في أمري، واحفظ ذلك كله وأعلمني به.

فأخذ روزبة ما أعطاه دمنة وانصرف إلى منزله.

فلما أصبح الأسد من الغد جلس حتى إذا مضى من النهار ساعات استأذن علي أصحابه فأذن لهم فدخل القاضي وطائفة من الوجوه ووضعوا بين يديه كتاب ما قال دمنة في معاذيره. فقبض الأسد ذلك الكتاب وأمرهم بالانصراف عنه.

ثم أرسل إلى أمه فقرأ عليها ذلك الكتاب فشقّ عليها ما سمعت ونادت بأعلى صوتها: إن أنا أغلظت لك أيها الملك فلا تغضب.

قال الأسد: لست أغضب فقولي ما أحببت.

قالت: ما أراك تعرف ما يضرّك مما ينفعك. وإني لأحسب دمنة في طول تصريفك النظر في أمره سيهيّج عليك ما لا تقعد له ولا تقوم. ولهذا كنت أنهاك عن سماع كلام هذا المجرم المسيء لدينا قديماً الغادر بذمتنا. ثم قامت وخرجت وهي غضبانة.

فخرج روزبة في إثرها مسرعاً حتى أتى دمنة فأخبره بما قالت أم الأسد. فلما كان في الغد بعث القاضي إلى دمنة فأخرجه وشاور عليه ثم قال: يا دمنة قد أنبأني بخبرك الأمين الصادق وليس ينبغي لنا أن نفحص عن شأنك أكثر من هذا لأن العلماء قالوا إن الله تعالى جعل الدنيا سبباً ومصداقاً للآخرة، ولأنها دار الرسل والأنبياء الدالين على الخير الهادين إلى الجنة الداعين إلى معرفة الله تعالى. وقد ثبت شأنك عندنا وأخبرنا عنك من وثقنا بقوله. إلا أن سيدنا الأسد أمرنا بالعود إلى أمرك والفحص عن شأنك وإن كان عندنا بيّناً.

قال دمنة: أراك أيها القاضي لم تتعوّد العدل في القضاء وليس في عدل الملوك دفع المظلومين ومن لا ذنب لهم إلى قاض غير عادل، بل يأمرون بمحاكمتهم والذود في حقوقهم. والعلماء لم يقولوا في حقي شيئا.

فقال له القاضي: إنه وإن سكت جميع من حضرك ولم يقولوا شيئاً فإن ظنونهم قد اجتمعت على أنك مجرم ولا خير لك في الحياة بعد استقرار تهمتك في قلوبهم، فلا أرى شيئاً خيراص لك من الإقرار بذنبك فتخرج لعتقك من تبعة الآخرة ويعود لك حسن قول في أمرك لخصلتين: إحداهما قوتك على المخارج وافتعال المعاذير التي تدفع بها عن نفسك، والأخرى إقرارك بذنبك اختياراً للسلامة في الآخرة عن سلامة الدنيا. فإن العلماء قد قالت: إن الموت فيما يجمل خيرٌ من الحياة فيما يقبح.

فأجابه دمنة: إن القضاة لا تقضي بظنونها ولا بظنون العامة ولا الخاصة. وقد علمت أن الظن لا يغني من الحق شيئاً. فإني وإن ظننتم جميعاً أني صاحب هذا الجرم فإني أعلم بنفسي منكم، وعلمي بنفسي يقين لا شك فيه. وإنما قبح أمري في أنفسكم لأنكم ظننتم أني سعيت بغير زوراً، فما عذري عندكم لو سعيت بنفسي كاذباً عليها فأسلمتها لتقتل على معرفة ببراءتها؟ فهي أعظم الأنفس عليّ حرمة وأكرمها حقا. ولو فعلت ذلك بأدناكم أو أقصاكم لم يسعني ذلك في ديني ولم يجمل بي في خلقي. فاكفف إذن عني هذه المقالة. فإن كانت هذه منك نصيحة فقد أخطأت موضعها، وإن كمانت منك خديعة فإن أقبح الخداع ما فطن له. وليس الخداع ولا المكر من أخلاق صالح القضاة. وإلا فاعلم أن قولك هذا حكم منك وسنة لأن كل أمر أمرت به القضاة يحكم بصوابه أهل الصواب ويتخذونه سنة ويصير خطأه عدلاً لأهل الأدغال. وإن من شقاء جدي أيضاً أنك لم تزل في أنفس الناس فاضلاً في رأيك وفي حكمك حتى أنسيت ذلك في أمري فتركت علم القضاة وانصرفت إلى العمل بالظنون التي تختلف بها الحالات في الأمور. أو ما بلغك عن العلماء أنهم قالوا: من ادعى علم ملا لا يعلم وشهد بالغيب أصابه ما أصاب البازيار القاذف عبد مولاه.

قال القاضي: وكيف كان ذلك؟

قال دمنة: زعموا أنه كان في بعض المدن رجل من المرازبة مذكور وكان له عبد صالح جعله وكيله يأتمنه على كل خزائنه. وكان للرجل بازيار ماهر خبير بسياسة البزاة وعلاجها. وكان البازيار عند المرزبان بمكان جليل بحيث أدخله داره وأجلسه مع أهله. فاتفق أن البازيار حسد عبد الرجل وفكّر له الشر ليطرده مولاه. فعمل الحيلة في بلوغ غرضه فضاقت عليه أبواب الحيل وتعذّرت عنه الأسباب. فخرج يوماً إلى الصيد على عادته، فأصاب فرخي ببغاء فأخذهما وجاء بهما إلى منزله ورباهما، فلما كبرا فرّق بينهما وجعلهما في قفصين وعلّم أحدهما أن يقول: رأيت الوكيل يختلس مال سيده خفية. وعلّم الآخر أن يقول: هذا صحيح ثم أدبهما على ذلك مدة حتى حذقاه وأتقناه.

فلما بلغ منهما ما أراده إلى أستاذه. فلما رآهما أعجباه ونطقا بين يديه فأطرباه. إلا أنه لم يعمل ما يقولان لأن البازيار كان علّمهما ذلك بلغة العجم التي يجهلها المرزبان. وكان هذا مولعاً بالببغاءين يلهو بهما. وحظي البازيار عنده بذلك حظوة عظيمة وأمر امرأته بالمراعاة لهما والاحتياط عليهما والتعاهد لطعامهما وشربهما.

واتفق بعد مدة أن قدم على المرزبان قوم من أعاظم أعاجم بلخ فتأنق لهم بالطعام والشراب وقدم لهم من اصناف الفواكه والتحف شيئاً كثيراً. ولما فرغوا من الأكل وشرعوا في الحديث أشار إلى البازيار أن يأتي بالببغاءين فأحضرهما. فلما صاحا بين يديه وسمعهما الضيوف عرفوا ما يقولان ونظر بعضهم إلى بعض.

فسألهم الرجل عما قالتا فامتنعوا أولا، فألح عليهم بالسؤال إلى أن أقروا قائلين: إنما تقولان كذا وكذا بحق عبدك وكيل أموالك. فلما قالوا ذلك أمرهم المرزبان أن يكلموا الطيرين بغير ما نطقا به ففعلا ذلك ولم يجدوهما تعرفان غير ما تكلمتا به، وبان للرجل والجماعة براءة الوكيل مما رمي به وثبت كذب البازيار الذي علمهما ذلك فانتهره الوكيل: أيها العدو لنفسه أأنت رأيتني أختلس مال سيدي وأخفيه؟ قال: نعم أنا رأيتك. فلما قا لذلك وثب باز عن يده إلى عينيه ففقأهما. فقال العبد. بحق أصابك هذا، إنه لجزاء من الله تعالى لشهادتك بما لم تره عيناك.

وإنما ضربت لك هذا المثل أيها القاشي لتزداد علماً بوخامة عاقبة الشهادة بالكذب في الدنيا والآخرة. فلما سمع القاضي والحضور احتجاج دمنة كتبوا ذلك كله ورفعوه إلى الأسد، فنظر فيه ودعا أمه فعرض ذلك عليها فكان من قولها أن قالت: لقد صار اتهامي بأن يحتال لك دمنة بمكره ودهائه حتى يتلك أن ينقض عليك أمرك أعظم من اهتمامي بما سلف من ذنبه إليك من الغش والسعاية بوزيرك وصفيّك حتى قتلته بغير ذنب. فوقع قولهما في نفس الأسد فقال لها: أخبرني عن الإنسان الذي أنبأك بما سمع من كلام كليلة ودمنة، فإن قتلته ذلك حجة على دمنة.

قالت: إني أكره أن أفشي سراً استظهرت عليه بركوب ما نهت عنه العلماء من كشف الأسرار، ولكني سأطلب إلى الذي ذكر لي ذلك أن يحللني من ذكره لك أو أن يفوه هو بما علم وما سمع.

ثم انصرفت فأرسلت إلى النمر فأتاها، فذكرت له فضل منزلته عند الأسد وما يحق عليه من تربيته وحسن معاونته على الحق وإخراج نفسه من الشهادة التي لا يكتمها مثله مع ما يحق عليه من نصرة المظلومين والمعاونة على تثبيت حجّتهم يوم القيامة. فلم تزل به حتى جاء فشهد على دمنة بما سمع من كلامه وكلام كليلة.

ولما شهد النمر على دمنة بذلك، أرسل الفهد المسجون الذي سمع قول كليلة لدمنة ليلة دخل عليه في السجن أن عندي شهادة فأخرجوني لها. فبعث إليه الأسد فشهد على دمنة بما سمع من قول كليلة وتوبيخه إياه بدخوله بين الأسد والثور بالكذب والنميمة حتى قتله الأسد وإقرار دمنة بذلك.

قال له الأسد: فما منعك أن تكون أعلمتنا بشهادتك عن دمنة حين سمعت ذلك منه.

قال الفهد: منعني من ذلك أن شهادتي وحدي لم تكن توقع حكماً ولا تحجّ خصماً، فكرهت القول في غير منفعة.

فاجتمعت على دمنة شهادتان فأرسلهما الأسد إلى دمنة ثم بكّته الشاهدان في وجهه بمقالته فأمر به الأسد فغلّظ عليه الوثاق ثم ترك في السجن حتى مات جوعاً. فهذا ما صار إليه أمر دمنة وكذلك تكون عواقب البغي ومواقع أهل الحسد والكذب.

باب الغراب والمطوقة والجرذ والسلحفاة والظبي

قال الملك لبيدبا: قد سمعت مثل المتحابين يقطع بينهما الخؤون المحتال. فاضرب لي مثل إخوان الصفا، وكيف يكون بدء تواصلهم واستماع بعضهم من بعض.

قال العالم العاقل: إنه لا يعدل بصالح الإخوان شيء من الأشياء لأن الإخوان هم الأعوان على الخير كله والمؤاسون عند الشدائد. ومن أمثال ذلك مثل الغراب والحمامة المطوقة والجرذ والسلحفاة والظبي.

قال الملك: وكيف كان ذلك؟

قال الفيلسوف: زعموا أنه كان بأرض من الأرضين مكان كثير الصي يتصيد فيه الصيادون، وكان في ذلك المكان شجرة عظيمة كبيرة الغصون متلفة الورق، وكان فيها وكر غراب. فبينما الغراب ذات يوم على الشجرة إذ أبصر رجل من الصيادين قبيح المنظر، سيء الحال، على عاتقه شرك يحمله، وفي يده عصا، مقبلاً نحو الشجرة، فذُعر منه الغراب وقال: لقد ساق هذا الرجل إلى هذا المكان أمر فسأنظر ماذا يصنع. فأقبل الصياد فنصب شركه ونثر حبّه وكمن في مكان قريب، فلم يلبث إلا قليلاً حتى مرت به حمامة يقال لها المطوقة، وكانت سيدة حمام كثير وهنّ معها. فأبصرت المطوقة وسربها الحبّ ولم يبصرن الشرك فوقعن فيه جميعاً. ثم أقبل الصياد إليهن مسرعاً فرحاً بهن. وانفردت كل حمامة منهن عن ناحيتها تعالج نفسها لتفرّ. فقالت لهن المطوقة: لا تتخاذلن في المعالجة، ولا تكونن نفس واحدة منكن أهم إليها من نفس صاحبتها، ولكن لنتعاون جميعاً لعلنا نقتلع الشرك فينجي بعضنا بعضاً. ففعلن ذلك واقتلعن الشرك، فطرن به في السماء وتبعهن الصياد، وظن أنهن لن يتجاوزن قريباً حتى يثقلهن الشرك فيقعن.

فقال الغراب: لأتبعهن حتى أنظر إلى ما يصير أمرهن وأمر الصياد. والتفتت المطوقة فرأت الصياد يتبعهن، لم ينقطع رجاؤه منهن، فقالت لصواحبها، إني أرى الصياد جاداً في طلبكن، فإن استقمتنّ في الفضاء لن تخفين عليه. ولكن توجّهن إلى الخير والعمران، فإنه لن يلبث أن يخفى عنه منتهاكن فينصرف آئساً منكن. وأنا أعرف فيما بلينا به مكاناً قريباً من العمران والريف فيه جحر جرذ، وهو صديق لي، فلو انتهينا إليه قطع عنا هذا الشرك وما عنّفنا منه.

فتوجهن حيث قالت المطوقة، فخفين من الصياد، وانصرف آئساً منهن. ولم ينصرف الغراب بل أراد أن ينظر هل لهن حيلة يحتلنها للخروج من الشرك فيتعلمها، وتكون له عدة لأمر إن كان.

فلما انتهت المطوقة بهن إلى الجرذ أمرت الحمام بالوقوع فوقعن، ووجدن حول جحر الجرذ منئة ثقب أعدها للمخاوف، وكان مجرباً للأمور داهية. فنادته المطوقة باسمه، وكان اسمه أيزك، فأجابها الجرذ من جحره قائلا: من أنت؟ قالت أنا خليلتك المطوقة. فأقبل إليها مسرعاً. فلما رآه في الشرك قال لها: ما أوقعك في هذه الورطة وأنت من الأكياس؟

قالت المطوقة: ألم تعلم ما يفعل الجهل في عقل المرء؟ فإن الغباوة أوقعتني في هذه الورطة، وهي التي رغّبتني في الحب وأعمت بصري عن الشرك حتى لججت في أنا وأصحابي. وليس أمري وقلة امتناعي من مصائب الدهر بعجيب، فقد لا ينجو منها من هو أقوى مني وأعظم شأناً. قد تُكسف الشمس والقمر إذا قضي عليهما ذلك، وقد تصاد الحيتان في الغمر ويستنزل الطير الذي يحول دون الحازم وطلبته.

ثم إن الجرذ أخذ بقرض العقد التي كانت فيها المطوقة. فقالت له المطوقة: ابدأ بعقد صواحبي ثم أقبل على عقدي. فأعادت عليه القول مرارا، كل ذلك والجرذ لا يلتفت إلى قولها، ثم قال لها: قد كررت علي هذه المقالة كأنك ليست لك بنفسك رحمة ولا ترين لها حقا.

فقالت المطوقة: لا تلمني على ما أمرتك به، فإنه لم يحملني على ذلك إلا أني تلكفت الرئاسة على جماعة هؤلاء الحمام، فلذلك لهن علي حق، وقد أدّين إليّ حقي في الطاعة والنصيحة، وبطاعتهن ومعونتهن نجّانا الله من صاحب الشرك. وتخوّفت، إن أنت بدأت بقطع عقدي، أن تملّ وتكسل عند فراغك من ذلك عن بعض ما بقي من عقدهن. وعرفت أنك، إن بدأت بهن وكنت أنا الآخرة، أنك لا ترضى، وإن أدركك الفتور والملل أن تدع معالجة قطع وثاقي عني.

قال الجرذ: وهذا مما يزيد أهل المودة لك والرغبة فيك رغبة ووداً.

ثم أخذ الجرذ في قرض الشبكة حتى فرغ منها، وانطلقت المطوقة وحمامها إلى مكانهن راجعات آمنات.

فلما رآى الغراب صنيع الجرذ وتخليصه الحمام، رغب في مصادقة الجرذ وقال: ما أنا من مثل ما أصاب الحمام بآمن، ولا أنا عن الجرذ ومودته بغنىً.

فدنا من جحر الجرذ، ثم ناداه باسمه فأجابه الجرذ: من أنت؟

قال: أنا غراب كان من أمري كيت وكيت، وإني رأيت من أمرك ووفائك لأخلائك الحمام ما رأيت، فتبين لي صفاء ودّك وحسن صداقتك فرغبت في إخائك، وجئتك لذلك.

قال الجرذ: ليس بيني وبينك سبب تواصل، وإنما ينبغي للعاقل أن يطلب ما يجد إليه سبيلاً ويترك ما طلب ما لا يكون، لئلاً يعد جاهلاً فيشيه رجلاً أراد أن يجري السفن في البرّ والعجل على الماء. وكيف يكون بيني وبينك تواصل وإنما أنا طعام لك؟

قال الغراب: اعتبر بعقلك أن أكلي إياك، وإن كنت لي طعاماً، لا يغني عني شيئا، وأن بقاءك ومودتك أيسر لي وآمن ما بقيت. ولست حقيقاً إذ جئت أطلب مودتك أن ترجعني خائباً، فإنه قد زهر لي حسن خلقك، وإن كنت لا تلتمس ظهوراً. فإن ذا العقل لا يخفى فضله وإن هو أخفى ذلك جهده، كالمسك الذي يكتم وختتم ثم لا يمنع ذلك ريحه من الفيوح، وعبيره من الانتشار. فلا تغلّبنّ عليك خلقك، ولا تمنعني ودّك وملاطفتك.

قال الجرذ: إن أشد العداوة عداوة الجوهر، وهما عداوتان: منها عداوة متحاذية متكافئة كعداوة الفيل والأسد، فإنه ربما قتل الأسد الفيل، وربما قتل الفيل الأسد. ومنها عداوة الجوهر يحصل ضرّها من أحد الجانبين على الآخر كعداوة ما بيني وبين السنّور وكعداوة ما بيني وبينك، فإن العداوة مني ليس بضر مني عليكما، ولكنها للضر عليّ منكما. وليس لعداوة الجوهر من صلح، فإن الماء، وإن أسخن وأطيل إسخانه، فليس يمنعه ذلك من إطفاء النار إذا صبّ عليها. وإنما صاحب المصالح كصاحب الحية يحملها في كمّه. وليس يستأنس العاقل إلى العدو، ولا يسترسل إليه، وإن كان عاقلاً آريبا.

قال الغراب: قد فهمت ما تقول، وأن حقيق أن تأخذ بفضل خليقتك وتعرف صدق مقالتي ولا تصعّب الأمر فيما بني وبينك بقولك: "ليس لنا إلى التواصل سبيل". فإن العقلاء الكرماء يبتغون إلى كل معروف وصلة وسبيلاً.

والمودة بين الصالحين بطيء انقطاعها، سريع اتصالها. ومثل ذلك مثل الكوز من الذهب الذي هو بطيء الانكسار، هيّن الإعادة والإصلاح إن أصابه كسر. والمودة بين الأشرار سريع انقطاعهما، بطيء اتصالها، كالكوز من الفخار يكسره أدنى عيب، ثم لا وصل له أبدا. والكريم يود الكريم على لقاء واحد أو معرف يوم، واللئيم لا يصل أحداً إلا عن رهبة أو رغبة. وأنت كريم وأنا إلى ودك محتاج، وأنا لازم بابك وغير ذائق طعاما حتى تؤاخيني وتواصلني.

قال الجرذ: قد قبلت إخاءك. فإني لم أردد ذا حاجة قط عن حاجته، وإنما ابتدأتك بما ابتدأتك به للاعتذار عن نفسي. فإن أنت غدرت بي لا تقل: وجدت الجرذ ضعيف الرأي، سريع الانخداع.

ثم خرج من جحره، فقام عند الباب، فقال له الغراب: ما يحبسك عند باب الجحر؟ وما يمنعك من الخروج إلي والاستئناس بي؟ أفي نفسك ريبة بعد؟

قال الجرذ: إن أهل الدنيا يتعاطون بينهم أمرين، يتواصلون عليهما، وهما ذات النفس وذات اليد. فأما المتبادلون ذات النفس فهم الأصفياء المتخالصون. وأما المتبادلون ذات اليد فهم المتعاونون والمستمتعون الذين يستمع بعضهم بالانتفاع من بعض. ومن كان يصنع المعروف التماس الجزاء أو اكتساباً لبعض منافع الدنيا، فإنما مثله فيما يعطي ويمنع مثل الصياد وإلقائه الحب للطير لا يريد به نفعها، ولكن يريد نفع نفسه. فتعاطي ذات النفس أفضل من تعاطي ذات اليد. فإني قد وثقت بذات النفس ومنحتك مثل ذلك من نفسي. وليس يمنعني من الخروج إليك سوء ظن، ولكني قد عرفت أن لك أصحاباً جوهرهم كجوهرك، وإنما رأيهم فيّ ليس كرأيك، فأنا أخاف أن يراني بعضهم معك فيهلكني.

قال الغراب: إن من علامة الصديق أن يكون لصديق صديقه صديقاً، ولعدو صديقه عدوا، وإنه ليس لي بصاحب ولا صديق من لم يكن له محبا. وإنما تهون عليّ قطيعة من كان كذلك، لأن زارع الريحان إذا نبت في ريحانه شيء من النبات الذي يضرّ به ويفسده اقتلعه واقتلع من ريحانه معه.

ثم إن الجرذ خرج إلى الغراب، فتصافحا وتعانقا وتصافيا، واستأنس كل واحد منهما بصاحبه، فأقاما على ذلك أياما إلى ما شاء الله.
ومضت بينهما على ذلك مدة من الدهر، حتى قال الغراب يوماً للجرذ: إن جحرك قريب من طريق الناس، وأنا أخشى على نفسي من ذلك، وقد عرفت مكاناً ذات عزلة وخير وبركة، ولي فيه صديق من السلاحف، وهناك عين كثيرة السمك، وأنا واجد عندها ما آكل، وأريد أن أنطلق إليها فأعيش معها آمنا.

قال الجرذ: وأنا أحب أن أنطلق معك فإني لمكاني هذا كاره.

قال الغراب: وما تكره من مكانك؟

قال الجرذ: إن لي أخباراً وقصصاً سأقصها عليك لو انتهينا إلى المكان الذي تريد.

فأخذ الغراب بذنب الجرذ، فطار به حتى بلغ حيث أراد. فلما دنا من المكان الذي فيه السلحفاة، ورأت السلحفاة غراباً ومعه جرذ ذعرت منه، ولم تعلم أنه صاحبها، فغاصت في الماء، فوضع الغراب الجرذ، وقعد على شجرة فنادى السلحفاة باسمها، فعرفت صوته وخرجت إليه، ورحّبت به وسألته من أين أقبل. فأخبرها الغراب بقصته وقصة الصياد حين تبع الحمام، وخلاص المطوقة بواسطة الجرذ، وما كان من أمره بعد ذلك وأمر الجرذ حتى انتهينا إليها.

فلما سمعت السلحفاة شأن الجرذ تعجبت من عقله ووفائه، ورحبت به وقالت: ما ساقك إلى هذه الأرض؟

فقال الغراب للجرذ: ارو لنا الأخبار والقصص التي زعمت أنك تحدثني بها فاقصصها الآن إذ سألتك السلحفاة عنها، فإن السلحفاة منك بمثل منزلتي.

قصة الجرذ والناسك

بدأ الجرذ في قصصه وقال: كان أول منزل نزلته في مدينة من المدائن في بيت رجل من النساك. ولم يكن للناسك عيال. وكان يُؤتى كل يوم بسلة من الطعام، فيأكل منها حاجته ثم يضع بقية الطعام فيها ويعلقها في البيت. فكنت أرصد الناسك حتى يخرج، فإذا خرج وثبت إلى السلة فلم أدع فيها طعاماً إلا أكلته، ورميت به على الجرذان. وجهد الناسك مراراً ليعلق تلك السلة معلّقاً لا أناله فلم يقدر على ذلك. ثم إن ضيفاً نزل بالناسك ذات ليلة فتعشيا جميعاً، حتى إذا كان عهد الحديث قال الناسك للضيف: من أي أرض أنت وأين توجهك الآن؟ وكان الضيف رجلاً قد طاف الأرض، ورأى العجائب فأخذ يحدث الناسك بما وطئ من البلدان ورأى من الأمور. وجعل الناسك من خلال ذلك يصفق بيديه أحياناً لينفّرني عن السلة. فغضب الضيف وقال: أحدثك وتصفّق كأنك تهزأ بحديثي، فما حملك على أن تسألني؟ فاعتذر الناسك للضيف وقال: إني قد أنصت لحديثك، ولكني قد صفّقت لأنفّر الجرذان عن سلة طعامي، ولقد تحيّرت في أمرها. لست أضع في البيت طعاماً إلا أكلته.

قال الضيف: أجرذ واحد هو أم أكثر؟

قال الناسك: بل جرذان كثيرة، وفيها جرذ واحد هو الذي غلبني فلا أستطيع له حيلة.

قال الضيف: ما هذا الأمر؟ إنه ليذكرني قول الرجل الذي قال لامرأته: لأمر ما باعت هذه المرأة السمسم مقشوراً بغير مقشور.

قال الناسك: وكيف كان ذلك؟

مثل البائعة السمسم المقشور بغير المقشور

قال الضيف: نزلت مرة على رجل بمدينة كذا وكذا، فتعشّيا ثم فرش لي وانقلب الرجل وزوجته إلى فراشهما، وبيني وبينهما خُصّ من قصب. فسمعت الرجل وامرأته في بعض الليل يتكلمان، فإذا الرجل يقول لامرأته: أريد أن أدعو غداً رهطاً ليأكلوا عندنا. فقالت امرأته: كيف تدعو الناس إلى طعامك وليس في يديك فضل عن عيالك، وأنت رجل لا تستبقي شيئاً ولا تدّخره. قال الرجل: لا تندمي على شيء أنفقناه وأطعمناه، فإن الجمع والإدّخار ربما كانت عاقبة صاحبه كعاقبة الذئب.

قالت المرأة: وكيف كان شأن الذئب؟

مثل الذئب ووتر القوس

قال الرجل: خرج رجل من القناصين غادياً بقوصه ونشّابه يبتغي الصيد والقنص، فلم يجاوز بعيداً حتى رمى ظبياً فصرعه واحتمله، ورجع به إلى أهله. فعرض له في طريقه خنزير فحمل خنزير على الرجل حين نظر إليه. فوضع الرجل الظبي وأخذ قوسه، فرمى الخنزير رمية نفذت من وسطه. وأدرك الخنزير الرجل فضربه بنابه ضربة أطارت منه القوس والنشابة عن يده، ووقعا جميعاً ميّتين. فأتى عليهما ذئب جائع، فلما رأى الرجل والظبي والخنزير وثق بالخصب في نفسه فقال: ينبغي أن أدّخر ما استطعت، فأنا جاعل ما وجدت ذخراً وكنزاً، ومكتف يومي هذا بوتر القوس. ثم دنا من القوس ليأكل وترها. فلما قطع اوتر اضطربت القوس وانقلبت فأصابت المقتل من حلقه فمات.

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلمي أن الحرص على الجمع وخيم العاقبة.

قالت المرأة: نِعم ما قلت، وعندنا من الأرزّ والسمسم ما فيه طعام لستة رهط أو سبعة، فأنا غادية على صنع الطعام، فادع من أحببت عند الغداء. فأصبحت المرأة وأخذت السمسم فقشرته ثم بسطته في الشمس ليجف، وقالت لزوجها: اطرد عن هذا السمسم الطير والكلاب. وذهبت المرأة لبعض شأنها وصنعتها، فغفل الرجل، فذهب كلب إلى ذلك السمسم فجعل يأكل منه. فبصرت به المرأة فقدّرته وكرهت أن تطعمه أحداً من زوارها، فانطلقت به إلى السوق فأبدلته بسمسم غير مقشور مثلاً بمثل. ففعلت ذلك وأنا في السوق أرى ما تصنع، فسمعت رجلاً يقول: لأمر ما أعطت هذه سمسماً مقشوراً بسمسم غير مقشور.

وكذلك قولي في هذا الجرذ الذي تذكر أنه يثب إلى السلة حيث وضعتها. فالأمر ما يقوى على ذلك دون أصحابه، فالتمس لي فأساً. فأتى بها الضيف وأنا حينئذ في جحر غير جحري أسمع كلامهما، وكان جحري في موضع فيه ألف دينار ولا أدري من وضعها، فكنت أفترشها وأفرح بها وأعز بمكانها كلما ذكرتها. وإن الضيف احتقر جحري حتى انتهى إلى الدنانير فأخذها وقال للناسك: هذه كانت تقوّي ذلك الجرذ للوثوب حين كان يثب، لأن المال جُعل زيادة للقوة والرأي، وسترى أن الجرذ لن يعود بعد اليوم قادراً على ما كان يقدر عليه فيما مضى. فسمعتُ قول الضيف فعرفت في نفسيَ الانكسار، وتقاصر إعجابي بنفسي وانتقلت من جحري إلى جحر غيره، وأصبحت أعرف انحطاط منزلتي عند الجرذان وقلة توقيرهنّ إياي، بعد أن كلفنني ما عودتهنّ من الوثوب إلى السلة فعجزت عند ذلك، فزهدن فيّ وجعلن يقلن فيما بينهن: "هلك أخو الدهر ويوشك أن يحتاج إلى أن يعوله بعضكن"، فرفضنني بأجمعهن ولحقن بأعدائي وأخذن في عيبي وانتقاصي عند كل من ذكرنني عنده، فقلت في نفسي: ما التبع والإخوان والأهل والصديق والأعوان إلا تبعاً للمال. وما أرى المروءة يظهرها إلا المال. ولا الرأي ولا القوة إلا بالمال. ووجدت من لا مال له إذا أراد أن يتناول أمراً قعد به الفقر عما يريد، فانقطع عن بلوغ غايته كما ينقطع ماء أمطار الصيف في الأودية، فلا يصل إلى البحر ولا إلى نهر حتى تنشّفه الأرض.

ووجددت أن من لا مال له من الإخوان لا أهل له ولا ولد له، ولا ذكر له. بل يعتبر كمن لا عقل له عند الناس ولا دنيا ولا آخرة. وإذا أصابت الرجل الفقير الحاجة نبذه إخوانه، وهان على ذوي قرابته، فربما اضطرّته المعيشة وما يحتاج إليه لنفسه وعياله إلى طلب ذلك بما يغرر فيه بدينه، فيهلك، فإذا هو قد خسر الدنيا والآخرة. فالفقر رأس كل بلاء وداع صاحبه إلى مقت الناسن وهو مع ذلك مسلبة للعقل والمروءة، ومذهب للعلم والأدب، ومطيّة للتهمة، ومقطعة للحياء. ومن انقطع حياؤه ذهب سروره ومقت. ومن مقت أودى، ومن أودى حزن، ومن حزن فقد عقله واستنكر حفظه وفهمه. ومن أصيب في عقله وحفظه وفهمه كان أكثر قوله فيما يكون عليه لا له.

ووجدت الرجل إذا افتقر اتهمه من كان له مؤتمناً وأساء به الظن من كان يظن به حسناً. وليس من خلة هي للغني مدح ولا هي للفقير عيب. فإن كان شجاعاً سمي أهوج، وإن كان جواداً سمي مفسداً، وإن كان حليماً سمي ضعيفاً، وإن كان وقوراً سمي بليداً، وإن كان لسناً سمي مهذاراً، وإن كان صموتاً سمي غبياً..

فالموت أهون من الفاقة التي تضطر صاحبها إلى المسألة لا سيما مسألة الأشحاء اللؤماء. فإن الكريم لو كلّف أن يدخل يده فاه التين فيستخرج سمّا ثم يبتلعه كان ينبغي أن يعدّ ذلك أخف عليه من مسألة اللئيم البخيل. وقد قيل إنه من ابتلي بمرض في جسده لا يفارقه أو بفراق الأحبة والإخوان أو بالغربة حيث لا يعرف مبيتاً ولا مقيلاً، ولا يرجو إياباً، أو بفاقة تضطرّه إلى المسألة، فالحياة له موت والموت له راحة. وربما كره الرجل المسألة وبه حاجة فحملته على السرقة والنهب والظلم. والسرقة والنهب والظلم شرّ من الفاقة التي راغ عنها. فإنه قد قيل: الخرس خير من اللسان بالكذب، والغبن خيرٌ من القهر والظلم، والفاقة خير من السعة والنعمة من أموال الناس.

ثم إني كنت قد رأيت الضيف حين أخرج دنانيري قاسمها الناسك، وجعل الناسك نصيبه في خريطة يضعها بالليل عند رأسه، فطمعت أن أصيب منها دنانير فأردها إلى جحري، ورجوت أن أردّ إلي بذلك بعض قوتي ويراجعني بعض أصدقائي. فانطلقت والناسك نائم حتى كبتّ رأسه ووجدت الضيف مستيقظاً، ومعه قضيب فضربني به على رأسي ضربة موجعة، فسعيت إلى جحري. فلما سكن عني الوجع قادني الحرص والشره وغلباني على عقلي فخرجت بمثل طمعي الأول حتى دنوت والضيف يرصدني، فعاد لي بالقضيب على رأسي ضربة أسالت منه الدماء وتقلبت على ظهري وبطني حتى دخلت الجحر، فخرزت فيه مغشياً عليّ فأصابني من الوجع فوق ما أصابني على المال حتى إني لا أسمع اليوم بذكر المال إلاّ يدخلني منه ذعر.

ثم تذكرت فوجدت البلايا في الدنيا إنما يسوقها إلى أهلها الحرص والشره. فلا يزال صاحب الدنيا يتقلب في بليّة وتعب لأنه لا يزال يداخله الشره والحرص. ورأيت اختلاف السخاء والشحّ شديداً. ووجدت ركوب الأهوال وتجشّم الأسفار البعيدة في طلب المال أهون عليّ من بسط اليد إلى السّخيّ بالمال، فكيف بالشحيح به، ولم أر كالرضا شيئاً. وسمعت العلماء قد قالوا: لا عقل كالتدبير ولا ورع كحسن الخلق، ولا غنى كالرضا، وأحق ما صُبر عليه ما لم يكن إلى تغيّره سبيل. وكان يقال: أفضل البرّ الرحمة، ورأس المودة الاسترسال، ورأس العقل المعرفة بما يكون وملا لا يكون، وطيب النفس وحسن الانصراف عما لا سبيل له. فصار أمري إلى أن رضيت وقنعت وانتقلت من بيت الناسك إلى البرية.

وقال الجرذ صاحب الغراب للسلحفاة: وكان لي صديق من الحمام قد سبقت إليّ صداقته قبل صداقة الغراب، ثم ذكر لي الغراب ما بينك وبينه وأخبرني أنه يريد أن يأتيك فأحببت أن آتيك معه، وكرهت الوحدة. فإنه ليس من سرور الدنيا سرور يعدل صحبة الإخوان، ولا فيها غمّ يعدل بعد الإخوان. وقد جرّبت فعلمت أنه لا ينبغي للعاقل أن يلتمس من الدنيا فوق الكفاف الذي يدفع به الحاجة والأذى عن نفسه. والذي يدفع ذلك عنه يسيراً، إنما هو المطعم والمأوى إذا أعين بصحة وسخاء منها إلا بالقليل الذي يدفع به الحاجة عن نفسه، فأما سوى ذلك ففي موضع لا يناله. فأقبلت مع الغراب على هذا الرأي وأنا لك أخ فكذلك فلتكن منزلتي في نفسك.

فلما فرغ الجرذ من كلامه أجابته السلحفاة بكلام رقيق لطيف وقالت: قد سمعت مقالتك يا حسن مقالة، إلا إني رأيتك تذكر بقايا هي في نفسك من حيث قلة مالك وسوء حالك واغترابك عن مواطنك، فاطرح ذلك من قلبك، واعلم أن حسن الكلام لا يتم إلا بالعمل. فإن المريض الذي قد علم دواء مرضه إن هو لا يتداو به لم يغنه علمه، ولا يجد راحة ولا خفّة. فاستعمل رأيك واعمل بعقلك، ولا تحزن لقلة المال، فإن الرجل ذا المروءة قد يكرم على غير مال كالأسد الذي يُهاب وإن كان رابضاً. والغنيّ الذي لا مروءة له قد يُهان وإن كثر ماله كالكلب الذي يهون على الناس وإن هو طوّق وخلخل بالذهب. ولا تكترث في نفسك لغربتك، إن العاقل لا غربة عليه ولا يغترب إلا ومعه ما يكتفي به من عقله، كالأسد الذي لا يتقلب إلا ومعه قوته التي يعيش بها حيثما توجه. ولتحسن تعاونك لنفسك بما تكون به للخير أهلا، فإنك إذا فعلت ذلك أتاك الخير يطلبك كما يطلب الماء الحدور، وطير الماء الماء. وإنما جعل الفضل للبصير الحازم المتفقد. فأما الكسلان المتردد المدافع فإن الفضل قلما يصحبه.

ولا يحزنك أن تقول: كنت ذا مال فأصبحت معدماً. فإن المال وسائر متاع الدنيا سريع أقباله إذا أقبل، وشيكٌ ذهابه إذا ذهب، كالكرة التي هي سريع ارتفاعها وسريع وقوعها. وقد قيل في أشياء ليس لها ثبات ولا بقاء: ظلّ الغمام، وخلّة الأشرار، وعشق النساء، والثناء الكاذب والمال الكثير. وليس يُفرح العاقل كثرة المال، ولا يحزنه قلته، لكن ماله عقله وما قدّم من صالح عمله، فهو واثق بأنه لا يسلب ما عمل، ولا يؤاخذ بشيء لم يعمله. وهو حقيق أن لا يغفل عن أمر آخرته والتزود لها، فإن الموت لا يأتي إلا بغتة وليس بينه وبين أحد وقت معلوم. وأنت عن موعظتي غنيّ بما عندك من العلم، بصير بالأمور، ولكن رأيت أن أقضي من حقك وأنت أخونا وما قبلنا بمذول لك.

فلما سمع الغراب ردود السلحفاة على الجرذ وإلطافها إياه، وحسن مقالتها له سرّه ذلك وفرح به وقال: لقد سررتني وأنعمت، وأنت جديرة أن تسرّي نفسك بما سررتني به، فإن أولى أهل الدنيا بشدة السرور وكرم العيش وحسن الثناء من لا يزال ربعه موطوءاً من إخوانه واصدقائه الصالحين، ولا يزال عنده منهم زحام يسرهم ويسرّونه، ويكون من وراء حاجتهم وأمورهم. فإن الكريم إذا عثر لا يقيل عثرته إلا الكريم، كالفيل إذا وحل لم يستخرجه إلا الفيلة. ولا يرى العاقل معروفاً صنعه وإن كثر كثيراً وإن خاطر بنفسه أو عرضها في بعض وجوه المعروف لم ير ذلك عيباً، بل يعل أنما أخطر الفاني بالباقي واشترى العظيم بالصغير. وأغبط الناس أكثرهم مستجيراً أو سائلاً منجحاً، ولا يعد غنياً من لا يشارك في ماله.

فبينما الغراب في كلامه إذ أقبل نحوهم ظبي يسعى ففزع منه الغراب والجرذ والسلحفاة، فوثبت السلحفاة في الماء ودخل الجرذ في الجحر وطار الغراب فوقع على شجرة. وانتهى الظبي إلى الماء فشرب منه قليلاً ثم قام مذعوراً ينظر. فحلق الغراب في السماء ينظر هل يرى للظبي طالباً فنظر في كل ناحية فلم ير شيئاً، فنادى السلحفاة لتخرج من الماء، وقال للجرذ: اخرج فإنه ليس هاهنا شيء تخافه. فاجتمع الغراب والجرذ والسلحفاة في مكانهن، فقالت السلحفاة للظبي حين رأته ينظر إلى الماء ولا يشرب: اشرب إن كان بك عطش ولا تخف فلا خوف عليك. فدنا الظبي منهم ورحّبت به السلحفاة وحيّته وقالت له: من أين أقبلت؟ قال: كنت أرعى في هذه الصحارى ولم تزل الأساورة تطردني من مكان إلى مكان. ورأيت اليوم شيخاً فخفت أن يكون قانصاً فهربت منه.

قالت السلحفاة: لا تخف فإنا لم نر القناص هاهنا قط، ونحن نبذل لك مودتنا ومكاننا، والمرعى منا قريب. فرغب الظبي في صحبتهن وأقام معهن. وكان لهن عريش من الشجر فكنّ يأتينه كل يوم ويجتمعن فيه ويلهون بالحديث ويتذاكرنه. ثم إن الغراب والجرذ والسلحفاة وافين العريش ذات يوم لحينهن وغاب الظبي فتوقّعنه ساعة، فلما أبطأ عليهن أشفقن أن يكون أصابه عدوّ فقلن للغراب: طر فانظر هل ترى الظبي في شيء مما نحذره. فحلق الغراب فنظر فإذا هو بالظبي في حبائل القانص، فأجفل مسرعاً حتى أخبر الجرذ والسلحفاة.

فقالت السلحفاة والغراب والجرذ: هذا الأمر لا يرجى فيه غيرك فأغث أخانا. فسعى الجرذ سريعاً حتى انتهى إلى الظبي فقال: كيف وقعت في هذه الورطة وأنت من الأكياس؟

قال الظبي: وهل يغنى الكيّس مع كوارث الدهر وأحواله التي لا ترى ولا تستدرك؟

فبينما هما على محاورتهما إذ وافتهما السلحفاة فقال لها الظبي: ما أصبت بمجيئك إلينا. فإن القانص إذا هو انتهى وقد فرغ الجرذ من قطع حبالي سبقته حضراً، وللجرذ جحره والغراب يطير وأنت بطيئة السعي فأخاف عليك القانص.

قالت السلحفاة: إنه لا يعد من العيش ما كان بعد فراق الأحبة. وأما المعونة على تسلية الهم وسكون النفس عند البلاء فبلقاء الأخ وبثّ كل واحد منهما شكواه إلى صاحبه. وإذا فرق بين الأليف وإلفه فقد سُلب فؤاده وحرم سروره وأغشي على بصره.

فلم تفرغ السلحفاة من كلامها حتى طلع القانص ووافق ذلك فراغ الجرذ من الحبائل فنجا الظبي وطار الغراب ودخل الجرذ جحره. فلما جاء القانص إلى حبائله فرآها قد قطّعت عجب وجعل ينظل فيما حوله فلم يرَ شيئاً غير السلحفاة فأخذها وأوثقها بالحبال.

ولم يلبث الظبي والغراب والجرذ أن اجتمعن فنظرن إلى القانص وقد أخذ السلحفاة وهو يربطها بالحبال، فاشتد حزنهن لذلك وقال الجرذ: ما ترانا نجاوز عقبة من البلاء إلا صرنا في أخرى أصعب منها؟ لقد صدق الذي قال: " لا يزال الرجل في إقباله ما لم يعثر، فإذا عثر مرة في أرض خبارٍ لجّ به العثار وإن مشى في جدد". وما كان جدي الذي فرّق بين وبين أهلي ومالي ووطني وبلادي ليرضيني حتى يفرّق بيني وبين كل ما كنت أعيش به من صحبة السلحفاة، خير الأصدقاء التي ليست خلتها للمجازاة ولا التماس المكافأة، لكن خلتها خلة الكرم والوفاء. خلة هي أفضل من مودة الوالد لولده. خلة لا يزيلها إلا الموت. ويح لهذا الجسد الموكل به البلاء الذي لا يزال في تصرف وتقلب لا يدوم له شيء ولا يثبت معه، كما لا يدوم للطالع من النجوم طلوعه ولا لآفله أفوله، لكنهما في تقلب لا يزال الطالع يكون آفلاً والآفل طالعاً والمشرق غارباً والغارب مشرقاً. وهذا الحزن يذكّرني أحزاني كالجرح المندمل تصيبه الضربة فيجتمع على صاحبه ألمان: ألم الضربة وألم انتكاس الجرح. كذلك من خفّت كلومه بلقاء إخوانه ثم فقدهم.

فقال الغراب والظبي للجرذ: إن حزننا وحزنك وكلامك وإن كان بليغاً، لا يغني السلحفاة شيئا. فدع هذا وأقبل على التماس النجاة للسلحفاة، فإن قد كان يقال إنما يختبر ذوو البأس عند البلاء، وذوو الأمانة عند الأخذ والإعطاء، والأهل والولد عند الفاقة، والإخوان عند النوائب.

قال الجرذ: أرى من الحيلة أن تذهب أنت أيها الظبي حتى تكون بصدد من طريق القانص فتربص كأنك جريح مثبت ويقع عليك الغراب كأنه يأكل منك. وارقب القانص فكن منه قريبا. وإني لأرجو أنه لو نظر إليك يضع ما معه من قوسه ونشّابه والسلحفاة ويسعى إليك. فإذا دنا إليك فتنفّر عنه متضالعاً حتى لا ينقطع طمعه منك، وأمكنه مراراً حتى يذنو منك، ثم مُدّ به على هذا النحو ما استطعت. فإني أرجو أن لا ينصرف القانص إلا وقد فرغت من قطع الحبل الذي السلحفاة مربوطة به فتتحول السلحفاة ونرجع إلى مكاننا.

ففعل الظبي والغراب ذلك، وتعاونا واتعبا القانص طويلاً ثم انصرف وقد قطع الجرذ حبال السلحفاة فنجوا معاً. فلما جاء القانص وجد الحبل مقطوعاً وفكّر في أمر الظبي المتضالع والغراب كأنه يأكل من الظبي وليس يأكل، وتقريض الجرذ لحباله قبل ذلك فاستوحش وقال: ما هذه الأرض إلا أرض سحرة أو أرض جن. فرجع لا يلتمس شيئاً وينظر إليه. فانطلق الغراب والظبي والسلحفاة والجرذ إلى عريشهن آمنات مطمئنات.

فهذا مثل تعاون الإخوان.

باب البوم والغربان

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف. قد ضربت لي مثل إخوان الصفا المتعاونين المتحابين، فاضرب لي، إن رأيت، مثل العدو الذي ينبغي أن لا يغترّ به وإن أظهر حسن الصفح تضرّعاً وملقاً في العلانية.

قال الفيلسوف: من اغترّ بالعدو الأريب المعروف بالعداوة أصابه من ذلك ما أصاب الغربان.

قال الملك: وكيف كان ذلك؟

قال الفيلسوف: إنه كان بأرض في جبل من الجبال شجرة عظيمة كأعظم ما تكون من الدوح، ذات أغصان ملتفّة. وكان فيها وكرٌ لألف غراب عليهم ملك منهم. وكان في ذلك الجبل أيضاً مكان فيه ألف بومة عليهن أيضاً ملك منهن. فخرج الملك البوم ليلة لبعض أموره وفي نفسه عداوة لم تزل بين البوم والغربان. فأغار على الغربان بمن معه من البوم فقتل منهم كثيراً وجرح منهم كثيراً. فلما أصبح ملك الغربان جمع ذويه فقال لهم: قد رأيتم ما لقينا من البوم وكم أصبح فيكم من قتيل وجريح ومنتوف الرأس والجناح والذنب. وأشد من ذلك كله في نفس ضراوتهن ثم علمهن بمكانكم وجرأتهن عليكم مثل الذي ذقتم وهنّ غير غافلات عنكم فانظروا في أمركم في مهل.

وكان فيهم خمسة غربان معترف لهم بفضيلة الرأي، كان الغربان يسندون إليهم أمورهم ويفزعون إليهم فيما نزل بهم، وكان الملك يشاورهم في أموره ويأخذ برأيهم. فقال الملك لأحدهم: ما رأيك في هذا الأمر؟

قال الغراب: هذا رأي سبقتنا إليه العلماء فقالوا: ليس لعدوّ الحنق الذي لا يطاق له حيلة إلا الهرب منه.

قال الملك للثاني: ما رأيك أنت في هذا الأمر؟ قال: أما ما أشار به هذا من الفرار فلا أراه م الصواب. فكيف نجلو عن بلادنا وعن أوطاننا ونذلّ لعدوّنا عند أول نكبة أصابتنا، ولكنا نجمع أمرنا ونستعدّ لمجاهدة عدونا ونذكي العيون فيما بيننا وبينه ونحترس من العودة والغرّة، فإن أقبل إلينا عدونا لقيناهم مستعدين لقتالهم فقاتلناهم مزاحفة حتى تلقى أطرافنا أطرافهم، ونتحرز منهم تحرّزاً حصيناً وندافع عدونا بالأناة مرة وبالجهاد أخرى حتى نصيب فرصتنا أو يعيينا ذلك فنهرب وقد مهّدنا لنا عذراً.

قال الملك للثالث: وأنت ما رأيك؟ قال: ما أرى ما قال، ولكني أريد أن تذكى العيون والطرائع بيننا وبين عدونا فنتجسس ونعلم هل يريد عدونا صلحاً أو يقبل منا ديةً. فإن رأينا من ذلك أمراً موافقاً لم أكره أن نصالحهم على خراج نؤديه إليهم، فندع عن أنفسنا بأسهم ونطمئن في وطننا. فإنّ من الرأي للملك إذا اشتدت شوكة عدوهم وخافوا على أنفسهم الهلكة والفساد على بلادهم والدمار على رعيتهم أن يجعلوا الأموال جنةً للملوك والبلاد والرعية.

قال الملك للرابع: فما رأيك في هذا الصلح؟ قال: لا أراه رأياً بل ترك أوطاننا والاصطبار على الغربة وشدة المعيشة خير من وضع أحسابنا والخضوع للعدو الذي نحن أشرف منه وأكرم. مع أني قد عرفت أن لو قد عرضنا ذلك عليهم لم يرضوا فيه إلا بالشطط. وقد كان يقال: قارب عدوك بعض المقاربة تنل حاجتك، ولا تقارب كل المقاربة فيجترئ عليك عدوّك ويضعف جندك ويذلّ نفسك. ومثل ذلك مثل الخشبة المنصوبة في الشمس إذا أملتها قليلاً زاد ظلها وإن جاوزت الحد في إمالتها نقص الظل. وليس عدونا براض منا بالدون من المقاربة. فالرأي لنا المحاربة والصبر.
قال للخامس: ما ترى، ألقتال أو الصلح أو الجلاء؟ فقال: أما القتال فلا سبيل إلا قتال من ليس المرء بقرن له لأن من يعرف نفسه وعدوّه فقاتل من ليس هو قرناً له فنفسه أجهد مع أن العاقل لا يستضعف عدواً. ومن فعل ذلك اغتر، ومن اغتر لم يسلم وإنا للبو شديدو الهيبة، ولو أضربت عن قتالنا وكنت أهابها قبل إيقاعها بنا. فإن الحازم لا يأمن عدوه على كل حال. فإن كان بعيداً لم يأمن معاودته، وإن كان قريباً لم يأمن مواثبته، وإن كان كثيفاً لم يأمن استطراده وكربه، وإن كان وحيداً لم يأمن مكره. وأكيس الأقوام من لم يلتمس الأمر بالقتال إذا وجد غير القتال سبيلاً. فإن النفقة في القتال إنما هي من الأنفس. وسائر الأشياء إنما النفقة فيها من المال. فلا يكونن قتال البوم من رأيك. فإن من يرى القتل لا يرى كل الخير.

قال الملك: إذا كرهت القتال ماذا ترى؟ قال: تؤامر وتشاور. فإن الملك المؤامر المشاور يصيب في مؤامرته نصحاً من ذوي العقول فيظفر بما لا يصيبه بالجنود والزحف وكثرة العدد. والملك الحازم يزداد في المؤامرة والتشاور ورأي الوزراء والحزمة، كما يزداد البحر بالسواعد من الأنهار. ولا يخفى على الحازم قدر أمره وأمر عدوّه وفرصة قتاله ومواضع رأيه ومكايدته، ولا ينفك يعرض الأمور على نفسه أمراً أمراً يتروّى في التقدم على ما يريد منه الأعوان الذين يستعين بهم عليها والعدة التي يعدها لهم. فمنلم يكن له رأي كذلك ولا نصيحة من الوزراء العقلاء الذي يقبل منهم، لا يلبث، وإن ساقت إليه الأحوال حظاً، أن يضيع أمره. فإن الفضل المقسوم لم يقيّض للجهّال ولا للحسب، ولكنه وكّل بالعاقل المستمع من ذوي العقلاء.

وأنت أيها الملك كذلك وقد استشتني في أمور أريد أن أجيبك في بعضها سراً وفي بعضها علانية. فأما ما لا أكره أن أعلنه فكما أني لا أرى القتال كذلك لا أرى الخضوع بالخراج والرضا بدل القهر. فإن العاقل الكريم يختار الموت صابراً محافظاً على الحياة عرياناً ذليلاً. وأرى ألا يؤخر النظر في أمرنا ولا يكونن من شأنك التثبط والتهاون، فإن التثبط والتهاون رأس المعجزة. فأما ما أريد إسراره فليكن سراً. فإنه قد كان يقال "إنما يصيب الملوك الظفر بالحزم، والحزم بأصالة الرأي، والرأي بتحصين الأسرار أو الرسل المستمعين للكلام أو من قبل الناظرين في أثر الرأي أو مواقع العمل أو من التشبيه والتطنّز. ومن حصّن سره فله من تحصينه إياه أمران: إما ظفر بما يريد وإما أن يسلم من ضره وعيبه إن أخطأ".

ولا بد لصاحب السر من مستشار مأمون يفضي إليه بسره ويعاونه على الرأي. فإن المستشير وإن كان أفضل من المستشار رأياً فإنه يزداد برأيه رأياً كما تزداد النار بالودك ضوءاً. وعلى المستشار موافقة المستشير على صواب ما يرى والرفق في تبصيره خطأ إن أتى به وتقليب الرأي فيما يشكل حتى يتفق شأنهما. فإذا لم يكن المستشار كذلك فهو على المستشير مع عدوه، كالرجل الذي يرقي الشيطان ليرسله على الإنسان، فإذا لم يحكم الرقية أضحى هو أسيراً للشيطان. وإذا كان الملك محصّناً للأسرار متحيّزاً للوزراء مهيباً في أنفس العامة بعيداً من أن يعلم ما في نفسه لا يضيع عنده حسن بلا مثلى. وإن كان ذا حزم مقتدراً لم يقتّر فيما ينفق ولم يسرف، كان خليقاً أن لا يسلب صالح ما أوتي. وللأشرار منازل. فمن الشر ما يدخل في الرهط، ومنه ما يدخل فيه الرجلان، ومنه ما يستعان فيه بالقوم. ولا أرى لهذا السرّ في قدر منزلته ألا يشترك فيه أربع آذان ولسانان.

فنهض الملك وخلا به واستشاره فكان فيما سأل عنه أن قال: هل تعلم ما كان بدء عداوة ما بيننا وبين البوم، قال: نعم، كلمة تكلّم بها غراب.

قال الملك: وكيف كان ذلك؟

أصل العداوة بين الغراب والبوم

قال الغراب: زعموا أن جماعة من الطير لم يكن لها ملك وأنها اجتمعت على بوميّ لتملكه. فبينما في مجمعها إذ رفع لها غراب فقال بعضهن: انتظرن هذا الغراب فنستشيره في أمرنا. فأتاهن الغراب فاستشرنه، فقال الغراب: لو أن الطير بادت وفقد الطاووس والكركيّ والبط والحمام لما اضطررتن إلى تمليك البوم، أقبح الطير منظراً، وأسوئها مخبراً، وأقلها عقولاً، وأشدها غضباً، وأبعدها رحمة، مع ما بها من الزمانة والعشاء بالنهار. ومن شر أمورها سفهها وسوء خلقها إلا أن تملكنها وأنتن المدبرات للأمور دونها برأيكن وعقولكن. فإذا كان الملك جاهلاص ووزراؤه صالحين نفذ أمره وتم رأيه واستقام علمه ودامت مملكته كما فعلت الأرنب التي زعمت أن القمر ملكها وعملت برأيه كأنها مرسلة منه.

قالت الطير: وكيف كان ذلك؟

مثل ملك الفيلة ورسول الأرانب

قال الغراب: زعموا أن أرضاً من أراضي الفيلة تتابعت عليها السنون فأجدبت وقلّ ماؤها وغارت عيونها فأصابت الفيلة عطش شديد فشكوا ذلك إلى ملكهم. فأرسل ملك الفيلة رسله وروّاده في التماس الماء في كل ناحية. فرجع إليه بعض رسله فأخبروه أنهم وجدوا بمكان كذا وكذا عيناً تدعى القمرية كثيرة الماء. فتوجّه ملك الفيلة بفيلته إلى تلك العين ليشربوا منها وكانت الأرض أرض أرانب، فوطئت الفيلة الأرانب في أجحارها ومجاثمها، فاجتمعت الأرانب إلى ملكهن فقلن: قد علمت ما أصابنا من الفيلة فاحتل لنا قبل رجوعهم، فإنهم إذا رجعوا لوردهم أهلكونا.

قال الملك: ليحضرنّ كل ذي رأي منكن رأيه. فتقدم خزرٌ منها يدعى فيروز كان الملك قد عرفه بالأدب والرأي، فقال: إن رأى الملك أن يبعثني إلى الفيلة ويبعث معي أميناً يرى ويسمع ما أقول وأصنع ليخبر به الملك فليفعل.

قال ملك الأرانب: أنت أميني ونحن نرضى بك وبرأيك ونصدّق قولك فانطلق إلى الفيلة وبلّغ عني ما أحببت واعمل برأيك، واعلم أن الرسول به وبرأيه يعتبر عقل المرسل وكثير من شأنه. وعليك باللين والمؤاتاة فإن الرسول هو الذي يلين القلب إذا رفق ويخشّن الصدر إذا خرق.

فانطلق الخرز في ليلة فيها القمر طالع حتى انتهى إلى الفيلة، وكره أن يدنو منهن فيطأنه وإن هنّ لم يردن ذلك. فأشرف على تلّ فنادى: يا ملك الفيلة إنه أرسلني إليك القمر والرسول مبلّغ غير ملوم وإن أغلظ.

قال ملك الفيلة: وما الرسالة؟

قال فيروز: يقول القمر إنه من عرف فضل قوته على الضعفاء فاغترّ لذلك بالأقوياء كانت قوته خبالاً له. وقد عرفت فضل قوتك على الدواب فغرّك ذلك مني فعمدت إلى عيني التي تسمى باسمي فشربت ماءها وقدّرتها وكدّرتها بفيلتك. وإني أتقدم إليك وأنذرك أن تعود فأغشي بصرك واتلف نفسك. وإن كنت في شك من رسالتي فهلمّ إلى العين من ساعتك فإني موافيك فيها.

فعجب ملك الفيلة في قول فيروز، فانطلق إلى العين معه فنظر إليها فرأى ضوء القمر فقال له فيروز: هذ بخرطومك من الماء فاغسل وجهك واسجد للقمر. فأدخل الفيل خرطومه في الماء فتحرّك، فخيّل إليه أن القمر ارتعد فقال: ما شأن القمر ارتعد؟ أتراه غضب عليّ لإدخالي خرطومي في الماء؟ فقال فيروز: نعم فاسجد له ثانية. فسجد الفيل للقمر مرة أخرى وتاب إليه مما صنع به، وشرط له ألا يعود إلى تلك العين هو ولا شيء من فيلته.

قال الغراب: ومع ما ذكرت من أمر البوم أن من شأنها الخبّ والمكر والخديعة. وشرّ الملوك المخادع ومن ابتلي بسلطان المخادعين وحكّمهم أصابه ما أصاب الصفرد والأرنب اللذين حكّما السنور الصوام؟

مثل الصّفرد والأرنب والسّنّور الصّوّام

قال الغراب: كان لي جار من الصفارد في سفح جبل، وجحره قريب من الشجرة التي فيها وكري، فكان يكثر التقاؤنا ومواصلتنا على جوارنا. ثم فقدته فلم أدر أين غاب، وطالت غيبته حتى ظننت أنه قد هلك. فجاءت أرنب إلى مكان الصفرد ولبثت في ذلك المكان زماناً. ثم إن الصفرد رجع إلى مكانه، فلما وجد الأرنب فيه قال: هذا مكان فانطلقي عنه.

قالت الأرنب: المسكن في يدي، وأنت المدّعي، فإن كان لك حق فاستعد عليّ.

قال الصفرد: المكان مكاني، ولي على ذلك البيّنة.

قالت الأرنب: نحتج إلى القاضي.

قال الصفرد: إن قريباً منا على شاطئ البحر سنّوراً متعبداً يصلي النهار كله لا يؤذي دابة ولا يريق دماً، ويصوم الدهر لا يفطر، عيشه من العشب وورق الأشجار، فاذهبي الليلة إليه أحاكمك.

قالت الأرنب: نعم. فانطلقا جميعاً وتبعتهما لأنظر إلى الصوام العابد الزاهد وإلى قضائه بينهما، فلما صارا إلى السنوا قصّا عليه قصتهما.

فقال السنور: أدركني الكبر وضعف البصر، وثقلت أذناي فما أكاد أن أسمع فادنوا مني فأسمعاني قريباً. فأعادا القصة فقال: "قد فهمت ما قصصتما وأنا بادئكما بالنصيحة قبل القضية، فأمركما ألا تطلبا إلا الحق. فإن طالب الحق هو الذي يفلح وإن قضي عليه، وطالب الباطل مخصوم. وليس لصاحب الدنيا من دنياه شيء من مال ولا صديق إلا عمل صالح قدّمه. فذو العقل حقيق ويمقت ما سوى ذلك. ومنزلة المال عند العاقل منزلة المدر. ومنزلة الناس عنده فيما يحب لهم من الخير ويكره لهم من الشر منزلة نفسه". فلم يزل يقص عليهما ويستأنسان فيدنوان منه حتى وثب عليهما فضمّهما إليه فقتلهما جميعاً.

قال الغراب: فالبوم يجمعن مع سائر ما وصفت لكم المكر والخديعة فلا يكوننّ تمليك البوم من رأيكن. فلما سمع الطير خطبة الغراب أضربن عن رأيهن ولم يملّكن البوم.

وكان هناك بومة حاضرة سمعت كلام الغراب فقالت له: لقد وترتني أعظم الترة، فما أدري هل كان سلف مني إليك سوءٌ استحققت به هذا منك؟ وإلاّ فاعلم أن الفؤوس يقطع بها الشجر فتنبت وتعود، والسيف يقطع به اللحم والعظم فيندمل ويلتئم، واللسان لا يندمل جرحه، والنصل من النشابة يغيب في الجوف ثم ينزع، وأشباه الأنصال من القول إذا وصلت إلى القلب لم تنزع ولم تستخرج. ولك حريق مطفئ، فللنر الماء، وللسم الدواء، وللعشق القرب، وللحزن الصبر، ونار الحق لا تخبو. وإنكم معاشر الغربان قد غرستم بيننا أبداً شجرة الحقد والبغضاء.

فقضت البوم مقالتها هذه وولت مغضبة وانصرفت موتورة، وندم الغراب على ما فرط منه، وقال في نفسه: "لقد خرقت فيما كان من قولي الذي جلبت به العداوة على نفسي وعلى قومي، ولم أكن أحقّ الطير بهذه المقالة ولا أعبأها بأمر ملكها. ولعلّ كثيراً قد رأوى الذي قد رأيت وعلموا الذي قد علمت فمنعهم من الكلام فيه اتقاء ما لم أتق والنظر فيما لم أنظر فيه من العاقبة. ثم لا سيما إذا كان الكلام مواجهة، فإن الكلام الذي يستقبل فيها قائله السامع بما يكره مما يورث الحقد والضغينة ولا ينبغي له أن يسمى كلاماً ولكن يسمّى سمّاً. فإن العاقل وإن كان واثقاً بقوله وفضله لا يحمله ذلك على أن يجني على نفسه عداوة وبغضاً اتكالاً على ما عنده من الرأي والقوة. كما أن العاقل لا يشرب السم اتكالاً على ما عنده من الترياق، وصاحب حسن العمل وإن قصّر به القول في بديهته تبين فضله عند الخبرة وعاقبة الأمر. وصاحب القو وإن هو أعجب ببديهته وحسن صفته فلا يحمد مغبّة أمره. وأنا صاحب القول الذي لا عاقبة له محمودة. أوليس من سفهي اجترائي على التكلم في الأمر الجسيم لا أستشيره فيه أحداً ولا أتروّى فيه مراراً، وأنا أعلم أن من لم يستشر الفصحاء الألبّاء بتكرار النظر والروية لم يسرّ بمواضع رأيه. فما كان أغناني عما كسبت في يومي هذا وما وقعت فيه".

فعاتب الغراب نفسه بهذا ثم انطلق.

فهذا ما سألتني عنه من العلة التي بدأت بها العداوة بين البوم والغربان.

قال الملك: قد فهمت هذا، فحدّثنا بما نحن أحوج إليه وأشر علينا برأيك والذي ترى أن نعمل به فيما بيننا وبين البوم.

قال: أما القتال فقد فرغت من رأيي فيه وأعلمتك كراهتي له. ولكن عندي من الرأي والحيلة غير القتال، وأنا أرجو أن أقدر من الحيل على بعض ما في فرج. فإنه رُبّ قوم قد احتالوا بآرائهم للأمر الجسيم حتى ظفروا منه بحاجتهم التي لم يكونوا يقدرون عليها بالمكثرة، كالنفر الذين مكروا بالنساك حتى ذهبوا بعريضه.

قال الملك: وكيف كان ذلك؟

مثل الناسك والعريض واللصوص

قال: زعموا أن ناسكاً اشترى عريضاً ضخماً سميناً ليجلعه قرباناً، فانطلق به يقوده فبصر به نفر مكرة فائتمروا ليخدعنوه، فعرض له أحدهم فقال: أيها الناسك ما هذا الكلب الذي معك؟ ثم عرض له آخر فقال: أيها الناسك أظنك تريد الصيد بهذا الكلب. ثم عرض له ثالث فقال: إن هذا الرجل الذي عليه لباس الناسك ليس بناسك. فإن الناسك لا يقود كلباً. فقال الناسك: لعل الذي باعني سحر عينيّ. فخلّى العريض وتركه فأخذه النفر واقتسموه بينهم.

وإنما ضربت لك هذا المثل لما رجوت أن نصيب من حاجتنا بالمكر. فأنا أرى أن يغضب الملك عليّ فيأمر بي على رؤوس جنده فأضرب وأنقر حتى أتخضّب بالدماء، ثم ينتف ريشي وذنبي ثم أطرح في اصل الشجرة التي نحن عليها، ويرتحل الملك وجنوده إلى مكان كذا وكذا، حتى أمكر مكري وأحتال على البومة بحيلة يكون فيها هلاكهن. ثم آتي الأمر على علم وأطلعك على أحوالهن فننال غرضنا منهن إن شاء الله.

ففعل ذلك وارتحل مع غربانه إلى المكان الذي وُصف له. ثم إن البوم جاءت من ليلتها فلم تجد الغربان ولم تفطن للغراب في أصل الشجرة. فأشفق أن ينصرفن من قبل أن يروه فيكون تعذيبه نفسه باطلاً، فجعل يئنّ ويهمس حتى سمعته بعض البوم. فلما رأينه أخبرن به ملكهن فعمد نحوه في بومات ليسأله عن الغربان. فلما دنا منه أمر بومة أن تسأله من هو وأين الغربان؟

قال الغراب: أنا فلان ابن فلان، وأما ما سألتني عنه في أمر الغربان فلا أحسبكن تريننـي في حال من لا يعلم الأسرار.

قال ملك البوم: هذا وزير ملك الغربان، وصاحب رأيه، فاسألوه بأي ذنب صنع به ما صنع؟

قال الغربان: سفّهوا رأيي وصنعوا فيّ هذا.

قال الملك: وما هذا السفه؟

قال الغراب: إنه لما كان من إيقاعكنّ بنا ما كان، استشارنا ملكنا فقال: أيها الغربان ما ترون؟ وكنت من الأمر بمكان فقلت: "أرى أنه لا طاقة لكم لقتال البوم فإنهن أشد بطشاً منكم وأجرأ قلوباً، ولكن الرأي لكم أمران: نلتمس الصلح ونعرض الفدية. فإن قبلن ذلك منكم وإلا هربتم في البلاد. وأخبرت الغربان أن قتالهم إياكن خير لكن وشرّ لهم، وأن الصلح أفضل ما هم مصيبون منكنّ وأمرتهم بالخضوع. وضربت لهم مثلاً في ذلك فقلت: إن العدو الشديد لا يرد بأسه وغضبه مثل الخضوع له. ألا ترون الحشيش إنما يسلم من الريح العاصفة بلينه وانثنائه حيث مالت. فغضبوا من قولي وزعموا أنهم يريدون القتال واتهموني وقالوا: إنك قد ملأت البوم علينا. وردّوا رأيي ونصيحتي وعذّبوني هذا العذاب".

فلما سمع ملك البوم ما قال الغراب قال لأحد وزرائه: ما ترى في هذا الغراب. قال: "ليس لك في أمره نظرٌ إلا المعالجة بالقتل. فإن هذا من أعز أصحاب ملك الغربان وأقرب إليه محلاً وأفضل عنده رأياً وأشد منه خداعاً، وفي قتله لنا فتح عظيم وراحة لنا من رأيه ومكيدته، وفقده على الغربان شديد. وكان يقال: من استمكن من الأمر الجسيم فأضاعه لم يقدر عليه ثانية، ومن التمس فرصة العمل فأمكنته فأغفل عمله فاته الأمر ولم تعد إليه الفرصة. ومن وجد عدوّه ضعيفاً معوزاً فلم يسترح منه أصابته الندامة حين يبغي العدوّ ويستعد فلا يقوى عليه".

قال الملك لآخر من وزرائه: ما ترى في هذا الغراب. قال: "أرى ألا تقتله. فإن العدو الذليل الذي لا شوكة له أهل أن يرحم ويستبقى ويصفح عنه. والمستجير الخائف أهل أن يؤمّن ويجار مع أن الرجل ربما عطفه على عدوّه الأمر اليسير، كالسارق الذي عطف على التاجر امرأته بأمر لم يتعمّده".

قال الملك: وكيف كان ذلك؟

مثل التاجر وامرأته واللص

قال الوزير: زعموا أنه كان تاجر كثير المال وهو شيخ مسن له امرأة شابة وكان كلفاً بها يعتني بأمرها وأمر ولدها. وكانت هي قالية له لكبر سنه فتعرض عن خدمته. وكان التاجر يعلم ما في نفسها فلا يزيده ذلك إلا حباً لها. ثم إن سارقاً أتى بيت التاجر ليلة، فلما دخل البيت وجد التاجر نائماً وامرأته مستيقظة، فذعرت من السارق ووثبت إلى زوجها واستجارت به والتزمته. فاستيقظ التاجر بالتزامها فقال: من أين لي هذه النعمة؟ ثم بصر السارق وعلم أن فرق امرأته من السارق دعاها إلى للياذ به، فناداه فقال: أيها السارق أنت في حلّ مما أردت أخذه من مالي ومتاعي ولك الفضل بما عطفت عليّ قلب زوجتي.

ثم إن الملك سأل الثالث من وزرائه عن الغراب، فقال: "أرى أن تستبقيه وتحسن إليه فإنه خليق أن يناصحك. فإن ذا العقل يرى ظفراً حسناً معاداة بعض معدوّه بعضاً، ويرى اشتغال بعض العدوّ ببعض واختلافهم نجاة لنفسه منهم كنجاة الناسك من اللص والشيطان لما اختلفا عليه".

قال الملك: وكيف كان ذلك؟

قال الوزير: زعموا أن ناسكاً أصاب من رجل بقرة حلوباً، فانطلق بها يقودها إلى منزله فتبعه لصّ يريد سرقتها، وصحبته شيطان في صورة إنسان. فقال اللص للشيطان: من أنت؟ قال: أنا شيطان أريد أن أختطف نفس هذا الناسك إذا نام الناس فأخنقه وأذهب بنفسه. وسأل الشيطان اللص: وأنت من أنت؟ قال: أنا لص. فإني أريد أن أتبعه إلى منزله لعلي أسرق هذه البقرة. فانطلقا مصطحبين حتى انتهيا مع الناسك إلى منزله ممسيين. فدخل الناسك وربط البقرة في زاوية المنزل ثم تعشى ونام. فأشفق اللص إن بدأ الشيطان بأخذ نفس الناسك قبل أن يأخذ البقرة أن يصيح الناسك فيجتمع الناس لصوته فلا يقدر على سرقة البقرة، فقال له: انتظرني حتى أخرج

البقرة ثم عليك بالرجل. فأشفق الشيطان إن بدأ اللص أن يستيقظ الناسك فيصيح ويجتمع الناس إليه فلا يقدر على أخذه، فقال: بل انتظرني حتى آخذ الناسك وشأنك وبالبقرة. فأبى كل واحد على صاحبه، فلم يزالا باختلافهما حتى نادى اللص الناسك أن استيقظ أيها الناسك فهذا شيطان يريد أخذك. وناداه الشيطان أن استيقظ أيها الناسك فهذا اللص يريدد أخذ بقرتك. فانتبه الناسك وجيرانه بصوتهما فنجا منهما ولم يقدرا على ما أرادا وهرب الخبيثان خائبين.

فلما فرغ الثالث من كلامه قال الأول الذي كان قد أشار بقتل الغراب: "أراكنّ قد غرّكن هذا الغراب وخدعكن بكلامه وتضرّعه، فأنتن تردن تضييع الرأي والتغرير بجسم الأمر، فمهلاً مهلاً عن هذا الرأي، وانظرن ذوي الألباب الذي يعرفون أمورهم وأمور غيرهم، فلا يلفكنّ عن رأيكن فتصبحن كالمعجزة الذين يغترون بما يسمعون أشد تصديقاً منه بما يعلمون، وكالنجار الذي كذّب ما ر أى وعلم وصدّق ما سمع فاغترّ وانخدع".

قال الملك: وكيف كان ذلك؟

مثل النجار المخدوع وحميه

قال الوزير: زعموا أن نجاراً كان له امرأة يحبها، وكان قد بلغه عنها أنه إذا غاب يأتيها أبوها فتفتح له بمفتاح مغشوش خزانة زوجها فيأخذ من صندوقه ما شاء من المال. فأحب أن يتيقّن ذلك فقال لامرأته: إني أريد الذهاب إلى قرية منا على فراسخ لبغض أعمال الإمارة، وأنا ماكث هناك أياماً فأعدي لي زاداً. ففرحت المرأة بذلك وهيّأت له زاداً. فلما أمسى قال لها: استوثقي من باب دارك واحتفظي ببيتك حتى أرجع إليك بعد أيام. وخرج وهي تنظر حتى جاوز الباب. ثم عطف وعاد إلى البيت من باب آخر ودخل الخزانة فاختفى تحت سرير زوجته. وأرسلت المرأة إلى أبيها أن ائتنا فقد انطلق النجار في حاجة سيغيب فيها أياماً. فأتاها أبوها فأطعمته وسقته وفتحت له صندوق زوجها فأخذ ما بدا له، وبقيا في حديثهما إلى منتصف الليل. فغلب النعاس على النجار فنام وخرجت رجلاه من تحت السرير، فرأتهما امرأته فأيقنت بالشر فسارّت أباها أن ارفع صوتك فسلني: أنا أحب إليك أم زوجك؟ ففعل أبوها كما قالت وردّت عليك: "يا أبت ما يضرّك إلى هذه المسألة؟ ألست تعلم أنا معشر النساء يوم ندخل بيت زوجنا نفضله على كل من سواه حتى الأخ والوالد؟ فلحى الله امرأة لا يكون زوجها عندها كعدل نفسها، فلا سمعتك تذكره مرة أخرى". فسمع النجار لهذه المقالة من امرأته ورقّ لها وأخذته العبرة والرحمة لها ووثق منها بالمودة، فلم يبرح مكانه كراهة أن يؤذيها، ولم يزل هناك حتى أصبح وعلم أن حماه قد خرج فخرج من تحت السرير، فوجد امرأته نائمة فقعد عند رأسها يذبّ عنها حتى إذا انتبهت قال لها: سرني جوابك لأبيك، ولولا كراهة ما يسوؤك لكان بيني وبينك صخب وأمر شديد.

وإنما ضربت لك هذا المثل إرادة ألا تكون كذلك النجار والمكذّب بصره المصدّق بما سمع من امرأته. فلا تصدقوا الغراب بمقالته واذكروا أن كثيراً من العدو لا لا يستطيع ضرّ عدوه بالمباعدة حتى يلتمسه بالمقاربة والمماسحة. وإني لم أخف الغربان قط خوفهم منذ رأيت هذا الغراب وسمعت مقالتكم فيه.

فلم يلتفت ملك البوم وسائر وزرائه إلى كلامه وأمر ملك البوم بالغراب أن يُحمل إلى مكانهن ويوصى به خيراً ويكرم.

فقال الوزير الذي كان يشير بقتله: "إذا لم يقتل هذا الغراب فلتكن منزلته على ذلك منزلة العدو المخوف شره، المحترس منه. فإن الغراب ذو إرب ومكايد ولا أراه لجأ إلى هاهنا إلا لما يصلح له ويفسدنا". فلم يرفع الملك بقوله رأساً ولم يمنعه من إكرام الغراب والإحسان إليه، وجعل الغراب يكلمه إذا دخل عليه بألطف ما يجد ويكلم البوم إذا خلا بهنّ كلاماً يزددن في كل يوم به ثقة، وإليه استرسالاً وبه أنساً وله تصديقاً. ثم إنه قال يوماً وعنده جماعة من البوم فيهن الوزير الذي كان يشير بقتله: "ليبلغنّ عني بعضكم الملك بأن الغربان وترتني وترةً عظيمة بما فضحتني وعذبتني، وأنه لا يستريح قلبي أبداً حتى أدرك منهم بغيتي، وإني قد نظرت في الأمر فلم أجدني أستطيع ذلك وأنا غراب. وقد بلغني عن بعض أهل العلم أنهم قالوا: من طابت نفسه عن نفسه فأحرقها بالنار إنما يقرّب إلى الله قرباناً عظيماً ولا يدعو عند ذلك بدعوة إلى استجيبت له. فإن رأى ا لملك أن يأمرني فأحرق لأدعو ربي أن يحولني يومياً لأنتقم من عدوي وأشفي غليلي إذا تحوّلت في خلق البوم".

قال الوزير الذي كان يشير بقتله: "ما أشبّهك يا غراب في حسن ما تبدي وسوء ما تخفي إلا بالخمر الطيبة الريح، الحسنة اللون المنقع فيها السم. أرأيت لو أحرقناك بالنار كان جوهرك وطباعك يحرقان معا؟ أليس تدور

حيث ما درت فتصير إلى أصلك وطباعك كالفأرة التي وجدت من الأزواج الشمس والسحاب والريح والجبل، وتركت ذلك كله وتزوجت جرذاً".

قيل له: وكيف كان ذلك؟

مثل الناسك والفأرة المحوّلة جارية

قال البوميّ: زعموا أن ناسكاً عابداً كان مستجاب الدعوة. فبينما هو قاعد على شاطئ النهر إذ مرت به حدقة في رجلها درصة. فوقعت من رجلها عند الناسك فأدركته لها رحمة، فأخذه ولفها في ردنه وأراد أن يذهب بها إلى منزله، ثم خاف أن يشقّ على أهله تربيته فدعا ربه أن يحولها جارية فأعطيت حسنا وجمالا، فانطلق بها الناسك إلى بيته فقال لامرأته: هذه يتيمة فاصنعي بها صنيعك بولدك. ففعلت ذلك حتى إذا بلغت اثنتي عشرة سنة قال لها: يا بنية فقد أدركت ولا بد لك من زوج فاختاري من أحببت من إنسيّ أو جني أقرنك به. قال: أريد زوجاً قوياً شديداً. فقال لعلك تريدين الشمس. فقال للشمس: هذه جارية جميلة هي عندي بمنزلة الولد زوّجتكما لأنها طلبت زوجاً قوياً منيعا.

قالت الشمس: أنا أدلك على من هو أقوى ني: السحاب الذي يغطي نوري ويغلب عليه. فانصرف الناسك إلى السحاب فقال له مثل تلك المقالة، فقال له السحاب: أنا أدلك على من هو أقوى مني وأشد: الريح التي تقبل بي وتدبر. فانصرف الناسك إلى الريح فقال لها مثل مقالته: فقالت الريح: أنا أدلك على من هو أقوى مني: الجبل الذي لا أستطيع له تحريكاً. فانصرف الناسك إلى الجبل فقال له مثل مقالته تلك، فقال الجبل: أنا أدلك على من هو أقوى مني: الجرذ الذي يثقبني فلا أستطيع الامتناع عنه. قال الناسك للجرذ هل أنت متزوج هذه الجارية؟ فقال له: كيف أتزوجها وأنا صغير ومسكين ضيق والجرذ يقترن بالفأرة. فطلبت الجارية إلى الناسك أن يدعو ربه ليحوّلها فأرة، فأجابها إلى ذلك ودعا ربه فتحولت فأرة ورجعت إلى أصلها الأول فتزوجها الجرذ. فهذا مثلك أيها المخادع.

فلم يلتفت ملك البوم ولا غيره إلى هذه المقالة، ورفقت البوم بالغراب فلم يردن إلا إكرامه، حتى استأنس بهن ونبت ريشه وسمن وصلح، وعلم ما أراد أن يعلم، واطلع على ما أراد أن يطلع عليه الغربان، فطار سراً وعاد إلى أصحابه فأخبرهم بما رأى وسمع، فقال لملك الغربان: أبشرك بفراغي مما أردت الفراغ منه وإنما بقي ما قبلكم فإن أنت جددتم وبالغتم في أمركم فهو الفراغ من ملك البوم وجنده.

فقال ملك الغربان: نحن عند أمرك فمرنا بما بدا لك.

قال الغراب: إن البوم بمكان كذا وكذا، وهن يجتمعن بالنهار في مكان كذا وكذا من الجبل، وقد علمت مكاناً فيه الحطب اليابس كثيراً فليحمل كل غراب منكم ما استطاع من ذلك الحطب إلى باب الثقب الذي فيه البوم بالنهار. وقرب ذلك الجبل قطيع غنم، فإني أمضي آخذ منه ناراً فآتي بها باب الثقب فأقدّفها في الحطب المجموع. ثم تعاونوا فلا تفتروا واضربوا بأجنحتكم ضرباً ترويحاً ونفخاً للنار حتى تضرم في الحطب، فما خرج من البوم احترق بالنار وما بقي مات بالدخان.

ففعلوا ذلك فأهلكوا البوم ثم رجعوا إلى أوطانهم آمنين سالمين. ثم إن ملك الغربان قال لذل الغراب: كيف صبرت على صحبة البوم ولا صبر للأخيار على صحبة الأشرار؟

قال الغراب: إن ذلك كذلك، ولكن العاقل إذا نابه الأمر العظيم المفظع الذي يخاف منه الجائحة الجائفة على نفسه وقومه لم يخرج من شدة الصبر عليه رجاء عاقبته، ولم يجد لذلك مساً ولم تكره العيشة مع من هو دونه حتى يبلغ حاجته وهو حامد لغبّ أمره، مغتبطٌ لما كان من أمر رأيه واصطباره.

قال الملك: أخبرني عن عقول البوم.

قال الغراب: لم أجد فيهن عاقلاً إلا الوزير الذي كان يحرص على قتلي ويحرضهن على ذلك مرارا. فكنّ أضعف شيء رأياً، إذ لم ينظرن في أمري ولم يذكرن أنني كنت ذا منزلة في الغربان أعد من ذوي الرأي. فلم يتخوّفن مني المكر والحيلة. فأخبرهن الحازم الناصح المطّلع على ما في نفسي برأيه، وأشار عليهن بالنصح لهنّ فرددن رأيه فلا هن عقلن ولا من ذي العقل قبلن، ولا حذرنني ولا حصّنّ أسرارهن دوني. وقد قالت

العلماء: ينبغي للملك أن يحصّن دون المتهم أسراره وأموره فلا يدنو من مواضع أسراره وأموره وكتبه ولا من الماء والحوض الذي يعدّ لغسله ولا من فراشه ودثره ولا من كسوته ولا من مراكبه ولا من سلاحه ولا من طعامه وشرابه ولا من دوائه ولا من ذهبه وطيبه ورياحينه، ولا يؤمّن على نفسه إلا الثقة الأمين السالم الباطن والظاهر ويكون بعد ذلك كله على حذر منه، لأن عدوه لا يتوصل إليه إلا من جهة ثقاته. وربما كان الثقة صديقاً لعدوه فيصل العدو إلى مراده منه.

قال ملك الغربان: لم يهلك ملك البوم عندي إلا بغيه وضعف رأيه وموافقته لوزراء السوء.

قال الغراب: صدقت. فإنه كان يقال: قلّ ما ظفر أحد بغنى ولم يطغ. وقلما حرص الرجل على النساء فلم يفتضح. وقلّ من أكثر من الطعام ولم يسقم. وقلّ من ابتلي بوزراء السوء فلم يقع في المهالك. وكان يقال: لا يطمعنّ ذو الكبر في الثناء الحسن، ولا الخبّ في كثرة الصديق، ولا السيء الأدب في الشرف، ولا الشحيح في البرّ، ولا الحريص في قلة الذنوب، ولا الملك المختال المتهاون الضعيف الوزراء في ثبات ملكه.

قال ملك الغربان: لقد احتملت مشقة شديدة بتصنعك للبوم وتضرّعك لهن.

قال الغراب: لقد كان ذلك كذلك ولكن صبرت على ذلك لما رجوت من حسن منفعته، لأنه يقال: لا يكبر على الرجل حمل عدوّه على عاتقه إذا وثق بحسن عاقبته. وقد قيل: إنه من احتمل مشقة يرجو لها منفعة صبر على ذلك، كما صبر الأسود على حمل الضفدع على ظهره.

قال الملك: وكيف كان ذلك؟

مثل الأسود وملك الضفادع

قال الغراب: زعموا أن أسودَ كبر وهرم فلم يستطع صيداً ولم يقدر على طعام فدبّ يلتمس المعيشة لنفسه حتى انتهى إلى غدير ماء كثير الضفادع قد كان يأتيه ويصيد من ضفادعه، فوقع قريباً من الغدير شبيهاً بالحزين الكئيب. فقال له ضفدع. ما شأنك أراك كئيباً حزيناً؟ قال: ما لي لا أكون حزيناً إنما كان أكثر معيشتي مما كنت أصيد من الضفادع، فابتليت ببلاء حرّمت عليّ الضفادع حتى لو لقيت بعضها على بعض لم أجترئ على أكله. فانطلق الضفدع فبشر ملكه بما سمع من الأسود، فدنا الملك من الأسدو فقال له: كيف كان أمرك هذا؟ فقال الأسود: لا أستطيع أن آخذ من الضفادع شيئاً إلى ما يتصدق به علي الملك. قال: ولم؟ قال: إني سعيت في أثر ضفدع منذ ليال لآخذها فطردتها إلى بيت مظلم لرجل من النساك فدخلته ودخلت في إثرها. وفي البيت مدّ ابنُ الناسك إصبعه فظننتها الضفدع فلسعتها فمات فخرجت هارباً وتبعني الناسك ودعا عليّ وقال: كما قتلت ابني البريء ظلماً أدعو عليك أن تذلّ وتخزى وتصير مركباً لملك الضفادع وتحرم عليك الضفادع، فلا تستطيع أكلها إلى ما تصدق به عليك ملكها. فأقبلت إليك لتركبني مقراً بذلك راضياً. فرغب ملك الضفادع في ركوب الأسود، وظن أن ذلك له شرف ورفعة. فركب الأسود أياماً ثم قال له الأسود: قد علمت أني ملعون محروم لا أقدر على التصيّد. إلا ما تصدقت به عليّ فاجعل لي رزقاً أعيش به. قال الملك: لعمري لا بد لك وأنت لي مركب من رزق تعيش به. فأمر له كل يوم بضفدعتين يؤخذان فيدفعان إليه، فعاش بذلك. ولم يضرّه خضوعه للعدو الذليل، بال انتفع بذلك وصار له معيشة ورزقاً.

وكذلك كان صبري على ما صبرت عليه التماس هذا النفع العظيم الذي جعل لنا فيه بوار العدو والراحة منه.

قال الملك: وجدت ضراعة اللين والمكر أشد استئصالاً للعدو من صرعة المكابرة والعناد، فإن النار الخفيفة تقوى بحرّها وحدّتها على أن تحرق ما فوق الأرض من الشجر الكبار. والماء بليته ونفوذه يقتلعها من أصلها تحت الأرض، وكان يقال: في أربعة لا يستقلّ منها القليل: النار والمرض والعدو والدّين.

قال الغراب: ما كان من ذلك فبسعادة جدّ الملك ورأيه فإنه قد كان يقال: إذا طلب اثنان حظاً ظفر به أفضلهما مروءة. فإن استويا في المروءة فأمضاهما رأياً، فإذا استويا في ذلك فأفضلهما أعواناً، فإن استويا في ذلك فأسعدهما جدا. وقد كان يقال: من غالب الملك الحازم الأريب الذي لا تبطره السرّاء ولا تدهشه الضرّاء كان هو الداعي الحتف لنفسه. ثم لا سيما إذا كان مثلك أيها الملك العالم بالأمور وفرص الأعمال ومواضع الشدة واللين والغضب والرضا والمعالجة والأناة، الناظر في يومه وعواقب أعماله.

قال الملك: بر برأيك وعقلك كان هذا. فإن رأي الرجل الواحد أبلغ في إهلاك العدو من الجنود الكثيرة من ذوي البأس والنجدة والعدد والعدة. وإن من أعجب أمرك عندي طول لبثك عند البوم، وأنت تسمع الغلظ من كلامهم دون أن تسقط عندهم بكلمة.

قال الغراب: لم أزل متمسكاً بأدبك أيها الملك، فأصحب القريب والبعيد بالرفق واللين والمتابعة والموافقة، وأخضع لهم. وقد قيل: إذا كنت بين أعداء تخافهم ولا تقدر على ضرّهم فخذهم باللطف والتؤدة والخضوع، وإياك والغلظة فإنك لا تصيب بذلك ظفراً. وإنت سمعت منهم غليظ الكلام فغض عنه النظر. وقد قيل إن الرجل الكامل المشاور أهل النبل في الرأي والعقل إن رأى في بدء أمره وسمع من بشاعة اللفظ ومخالفة الهوى ما يكره وصبر على ذلك فإن ذلك يعقب منفعة وراحة وسروراً. وإنّ مشاورة من يتبع هوى المستشير ولم ينظر في عاقبة أمره وإن نال من العاجل فرحاً وروحاً فإن عاقبة أمره تصير إلى ضرر وخسران.

قال الملك: وجدتك صاحب العمل ووجدت غيرك من الوزراء أصحاب أقاويل ليست لها عاقبة حميدة. فقد منّ الله علينا بك مئة عظيمة لم نكن نجد قبلها لذة الطعام ولا النوم.

قال الغراب: إنه يقال: لا يجد السقيم لذة النوم ولا الطعام حتى يبرأ. ولا الرجل الشره الذي قد أطمعه السلطان في مال أو عمل حتى ينجزه له. ولا الرجل الذي قد ألحّ عليه عدوه، فهو يخافه صباحاً ومساءً حتى يستريح منه. وقد كان يقال: من أقلعت عنه الحمّى أراح قلبه. ومن وضع الحمل الثقيل أرح متنه. ومن أمن عدوّه ثلج صدره. فأسأل الله الذي أهلك عدوّك أن يمتعك بسلطانك وأن يجعل لك بعد ذلك صلاح رعيّتك ويشركهم في قرّة العين بملكك. فإن الملك إذا لم يكن في مملكته قرّة عيون رعيّته فمثله مثل زنمة العنز التي يمصّها الجدي فلا يصادف فيها خيراً.

قال الملك: كيف كانت سيرة ملك البوم في جنده؟

قال: سيرة بطر وأشر وختل وعجز وضعف رأي. وكل أصحابه ووزرائه كان شبيهاً به إلا الذي كان يشير بقتلي. فإنه كان حكيماً أريباً فيلسوفاً حازماً قلّما يرى مثله في علوّ الهمة وكمال العقل وجودة الرأي.

قال: وأيّ خلّة رأيت كانت أدلّ لك على عقله؟

قال الغراب: خلّتان، الواحدة رأيه في قتلي والأخرى أنه لم يكن يكتم صاحبه نصيحة وإن استقلّها، ولم يكن كلامه مع هاتين كلام خرق ولا مكابرة، ولكن كلام رف ولين حتى ربما أخبره بعيبه وهو لا يغضبه، وإنما يضرب له الأمثال ويحدّثه عن عيب غيره فيعضر به عيب نفسه، ولا يجد للغضب عليه سبيلاً.

وكان مما سمعته يقول للملك أن قال: لا ينبغي للملك أن يغفل عن أمره فإنه أمر جسيم لا يظفر به إلا القليل، ولا تقابله إلا بالحزم. وهو إذا فات لم يدرك. فينبغي للملك أن يكون متفقداً لأموره ذا حزم فيها. فإن لم يحسن ولايته ورعايته قلّت راحته وهدوّه، كالقرد الذي يُرى لأدنى حركة قلقاً. والملك عزيز عزوف، فمن ظفر به فليحسن حفظه وتحصينه. فإنه قد قيل: إنه في قلة بقائه مثل قلة بقاء الظل على ورق النيلوفر، وفي قلة ثباته كاللبيب مع اللئيم، وفي مراقبته كالتنين. وهو في سرعة الإقبال والإدبار كالريح، وفي الثقل كصحبة البغيض، وفيما يخاف من مفاجأة عطبة كالحية، وفي سرعة الذهاب كحباب الماء من وقع المطر. وفي قلة ما يستمع به وينال منه كحاكم يغنى في رقدته، فلما هبّ لم يجد عليه حلمه. فأهلك الله أعداء الملك وأدال منهم ولا زال في عليا وصنع وتوفيق.

فهذا مثل أهل العداوة الذين ينبغي العاقل أن لا يغترّ بهم وإن هم أظفروا تودداً وضراعةً.

باب القرد والغيلم

قال الملك للفيلسوف: قد سمعت مثل الرجل المغترّ بالعدوّ والأريب المبدي التضرع والملق يريد بهما المكر والخديعة وما أصابه، فاضرب لي إن رأيت مثل الرجل الذي يطلب الحاجة حتى إذا ظفر بها أضاعها.

قال الفيلسوف: إن إصابة الحاجة أهون من الاحتفاظ بها. ومن ظفر بأمر لم يحسن الاحتفاظ به أضاع ما أصاب، كالغيلم الذي طلب قلب القرد فلما استمكن منه أضاعه.

قال الملك: وكيف كان ذلك؟

قال الفيلسوف: زعموا أن جماعة من القرود كان لها ملك يقال له قاردين، فطال عمهر حتى أنحله الهرم. فوثب عليه قرد شاب من شبان رهطه فقال: قد هرم هذا وليس يقوى على الملك ولا يصلح له. ووافقه على ذلك جنده فنفوا الهرم عن ملكهم وملكوا الشاب. فانطلق الهرم حتى لحق بالساحل فانتهى إلى شجرة من تين نابتة على حافة البحر، فجعل يأكل من تينها، فسقطت من يده تينة في الماء وفي الماء غيلم، وهو السلحفاة الذكر، عند مسقط التينة فأخذها وأكلها. ولما سمع القرد للتين وقعاً في الماء أعجبه ذلك فأولع بإلقاء التين في الماء. وجعل الغيلم يأخذه فيأكله ولا يشك أن القرد إنما يطرح ذلك التين من أجله. فخرج الغيلم إلى القرد فتصافحا وتصافيا وتصادقا وألف كلّ واحد منهما صاحبه. فلبثا زماناً لا ينصرف الغيلم إلى أهله فحزنت زوجته لغيبته، وشكت ذلك إلى جارة لها، قالت: قد خفت أن يكون عرض له عارض شرّ.

قالت لها صديقتها: لا تحزني فإنه قد بلغني أن زوجك بالساحل مع قرد أليفة. فهما يأكلان ويشربان جميعاً، قد ألهاهما الأمر، فلذلك طالت غيبته عنك فانسَيه ولا يهن عليك إذ هنت عليه، وإن استطعت أن تحتالي للقرد فتهلكيه فافعلي، فإن القرد إذ هلك أقام عندك زوجك.

فأسحنّت زوجة الغيلم لونها وضعّفت نفسها حتى أصابتها نهكة شديدة وهزال. ثم إن الغيلم اشتاق إلى أهله فقال بعد حين: لألمّنّ بأهلي فقد طالت غيبتي. فأتى منزله فوجد زوجته سيئة الحال. فقال: يا حبّ كيف أنت ومال أراك منهوكة؟ فلم تجبه. فأعاد عليها المسألة فأجابت عنها جارتها فقالت: ما أشد حال زوجتك! أمّا مرضها فشديد، وأما دواؤها فعزيز الوجود. فهل لشدة الداء وعدم الدواء إلا الموت. فقال الغيلم: أخبريني بالدواء لعلي ألتمسه حيث كان. قالت الجارة: هذا المرض نحن معشر الغيلم أعلم به وليس له دواء إلا أن يؤخذ له قلب قرد فيُداوا به.

قال الغيلم في نفسه: هذا امر عسير، من أين أقدر على قلب قرد إلا قلب صديقي. أفأغدر به وإثم الغدر شديد. ولكن أليس هلاك الزوجة أشد من ذلك؟ فكيف أهلك زوجتي وهذا أمر لا عذر لي فيه. ثم قال: إذا لم يستطع الرجل عظيماً إلا باحتمال صغير كان حقيقاً أن لا يلتفت إلى الصغير، وحتى الزوجة عظيم لأنها عون على أمور الدنيا والآخرة، وأنا حقيق أن أوثرها ولا أضيع حقها.

ثم غدا نحو القرد في نفسه ما يريد به وهو هاجس يقول: إن إهلاكي أخاً وفياً وصولاً بلا سبب لمن الأمور التي يُخاف عواقبها. ولما عاد إلى الساحل ورآه القرد حيّاه وقال له: ما حبسك يا أخي عني هذه المدة؟

قال الغيلم: إن مما بطّأني عنك مع شوقي إليك الحياء منك والاحتشام لقلة مكافأتي إياك لحسن بلائك عندي ومعروفك إليّ. فإني وإن كنت قد عرفت أنك لا تلتمس مني جزاء لمعروفك فإني مع ذلك قد أرى حقا عليّ التماس مكافأتك. فأما أنت فإن خلقك خلق الكرام الذين ينيلون الخير من لم ينلهم إياه فيما مضى ولا يرجونه فيما بقي، الذين لا يمنّون بمعروف أدوه ولا يستكثرون جزاءً جزوا به، الذين يسرعون إلى معونة المحتاج.

فقال القرد: لا تقولن لي هذا ولا تحتشمنّ مني. فإنت أنت الذي جمعت فيما بيني وبينك الأمرين جميعاً وابتدأت بما يجب لك به المكافأة. ألم أسقط إليك من قومي طريداً شريداً وحيداً فكنت لي سكناً وإلفاً أذهب الله بك عني الهمّ والحزن؟

قال الغيلم: إن أموراً ثلاثة يزداد بها لطف ما بين الإخوان واسترسال بعضهم إلى بعض، وهي أفضل ما يلتمسه المرء من أخلائه، وهي أن يغشوا منزله وينالوا من طعامه وشرابه ويعرفوا أهله وولده وجيرانه. ولم يجر بيني وبينك من ذلك شيء، وقد أحببت أن تتمّ بها إحسانك إليّ وتشرّف منزلي.

قال القرد: إنما ينبغي للصديق أن يلتمس من صديقه ذات نفسه ومودته. فأما الزيارة والنظر إلى الأهل والحشم والمؤاكلة فليس تحتها كبير أمر.

قال الغيلم: قد صدقت. لعمري ما يلتمس الصديق من صديقه إلا المودة. فأما من كان يلتمس منافع الدنيا فهو حقيق أن ينقطع ما بينه وبين إخوانه. وقد كان يقال: لا تكثرنّ الرجل على إخوانه حمل المؤونات حتى يؤذيهم ويبرمهم. فإنّ عجل البقرة إذا كثر مصه ضرعها وإفراطه أوشكت أن تصرفه وتنفيه. ولم أذكر ما ذكرت إلا

لكوني أعرف منك الكرم والسعة في الخلق. وبهذا قد أحببت أن تزورني في منزلي. فإني في جزيرة كثيرة الشجر طيبة الفواكه، فأسعفني بطلبتي واركب ظهري لتنطلق إلى منزلي.

فرغت القرد الذهاب معه لما ذكره من الفواكه، وتابع الغيلم على ما سأل وركب ظهره وسبح به الغيلم، حتى إذا لجّ به عرض في نفسه قبح ما يريد به وفجوره وغدره، ووقف مفكراً يقول في نفسه: إن الأمر الذي هممت به كفر وغدر، وما الإناث أهل أن يرتكب لهن الغدر واللؤم، فإنهن لا يوثق بهن ولا يسترسل إليهن.

وقد قيل: إن الذهب يعرف بالنار، وأمانة الرجل تعرف بالأخذ والإعطاء، وقوة الدواب الحمل، والنساء يعرفن بكيدهن وكثرة حيلهن.

قال القرد: ما لك لا تسير؟

قال الغيلم: أفكر في زوجتي وقد بلغني أنها مريضة. وذلك يمنعني من كثير مما أريد أن أبلغه من كرامتك وملاطفتك.

قال القرد: إن الذي أعرف من حرصك على كرامتي يكفيك مؤونة التكلف.

قال الغيلم: أجل، ومضى بالقرد ساعة، ثم توقف به ثانية.

فلما رأى القرد احتباس الغيلم، وأنه لا يسبح ارتاب وقال في نفسه: إن لوقوف الغيلم وانتظاره سببا، فما يؤمنّني أن يكون قلبه قد تقلب وتغير لي فازداد به سوءاً. فقد علمت أنه لا شيء أحدّ من القلب ولا أسرع تغيراً وتقلباً منه. لا يغفلنّ العاقل عن التماس ما في نفس أهله وولده وإخوانه وصديقه عند كل أمر، وفي كل لحظة وكلمة وعند القيام والقعود. وعلى كل حال فإن ذلك كله شاهد على ما في القلوب. ثم قال للغيلم: ما يحبسك وما لي أراك كأنك مهتم؟

قال الغيلم: تهمني أنك تأتي منزلي فلا توافق كل أمري كما تشتهي لأن زوجتي شديدة الوجع.

قال القرد: لا تهتمّنّ فإن الهم لا يغني شيئاً، والتمس لزوجتك الأدوية والأطباء. فإنه كان يقال: ليبذل ذو المال ماله في ثلاثة مواضع: في الصدقة إن أراد أجر الآخرة، وفي مصانعة السلطان إن أراد المنزلة الدنيا، وفي الأهل والأزواج لا سيما إذا كنّ صالحات.

قال الغيلم: صدقت، وقد زعم الأطباء أنه لا دواء لها إلا قلب قرد.

قال القرد في نفسه: واسوأتاه لقد أورطني الحرص على كبر السن شرّ مورط! لقد صدق الذي قال: القانع الراضي يبيت آمناً مطمئناً مستريحاً مريحاً، وذو الحرص والشره يعيش ما عاش في تعب ونصب وخوف. وإني لقد احتجت إلى عقلي في التماس المخرج مما وقعت فيه، ثم قال للغيلم: ما منعك يا خليلي إذ علمت هذا أن تكون أخبرتني به عند نزولي حتى كنت حملت قلبي معي؟

قال: وأين قلبك؟

قال: خلّفته في الشجرة مكاني.

قال: وما حملك على ذلك؟

قال: سنة فينا معاشر القرود إذا خرجنا لزيارة أصدقاء خلّفنا قلوبنا لطرح الظنة عنا. فإن شئت فارجع بي إلى الشجرة لآتيك به.

ففرح الغيلم بطيب نفس القرد له عن قلبه، وانقلب به راجعاً محثّاً، حتى إذا بلغ الساحل وثب القرد إلى الأرض فسعى إلى الشجرة فرقيها. ولبث الغيلم ساعة فلما بطأ عليه ناداه: أعجل يا أخي احمل قلبك وانزل فقد حبستني.
قال القرد: أراك تظن أني كالحمار الذي زعم ابن آوى أنه لم يكن له قلب ولا أذنان؟ قال الغيلم: وكيف كان ذلك؟

ابن آوى والأسد

قال القرد: زعموا أن أسدا كان في اجمة، وكان معه ابن آوى يأكل من فضول صيده. فأصاب الأسد جرب شديد حتى ضعف وجهد، فلم يستطع الصيد.

فقال ابن آوى للأسد: ما شأنك يا سيد السباع قد تغيرت حالتك. قال: لهذا الجرب الذي تراه ليس له دواء إلا أن أطلب أذني حمار وقلبه. قال ابن آوى: قد عرفت مكان حمار يجيء به قصّار إلى مرج قريب منا يحمل عليه ثيابه التي يغسلها، فإذا وضع عنه الثياب خلّاه في المرج. فأنا أرجو أن آتيك به ثم أنت أعلم بقلبه وأذنيه. قال الأسد: فلا تؤخّرنّ ذلك.

فذهب ابن آوى حتى أتى الحمار، فقال له: ما هذا الهزال الذي أراه بك والدبر الذي بظهرك؟ قال الحمار: أنا لهذا القصّار الخبيث، فهو يسيء علفي ويدأب عملي. قال ابن آوى: وكيف ترضى بهذا؟ قال: فما أصنع؟ وكيف أفلت من أيدي الناس؟ قال ابن آوى: أنا أدلك على مكان معتزل خصب المرعى لم يطأه الناس قط. وثم أسد وهو مشتاق إليك وبقربه عانة من الحمر ترعى أمينة مطمئنة. فطرب الحمار وقال: ألا تنطلق بنا، فإني لو لم أرغب إلا في إخائك لكان ذلك حاملي على الذهاب معك.

فتوجّها جميعاً قبل الأسد وتقدم ابن آوى فأخبره. فوثب الأسد على الحمار فلم يستطع صرعه لضعفه وانفلت الحمار. فقال ابن آوى للأسد: ما هذا الذي صنعت؟ إن كنت خلّيت الحمار عمداً فلم عنّيتني في طلبه؟ وإن كنت لا تقدر عليه فقد هلكنا، إن كان سيدنا لا يقوى على حمار. فعرف الأسد أنه إن قال: "تركته عمداً" سفهه، وإن قال: "لم أقدر عليه" ضعّفه، فقال: إن أنت استطعت أن تردّ الحمار إليّ بما سألت عنه. فقال ابن آوى: لقد جرّب الحمار مني ما جرب وإني لذلك لعائد إليه محتال له بما استطعت، وعليك إن رجع أن تصبر عليه ساعة حتى يستأنس بك، وهذا أمر لا يفوتك والغرض لا يصاب كل وقت. فعاد ابن آوى إلى الحمار فلما رآه قال له: ما الذي أردت بي؟ قال: أردت بك الخير، ولكن الأسد أراد أن يتلقاك مرحّباً بك ولو ثبتّ لآنسك ومضى بك إلى أصحابه. فلما سمع الحمار ذلك ولم يكن رأى أسداً قط صدّق ما قاله ابن آوى، فمضى ووثب عليه الأسد فافترسه.

فلما فرغ الأسد من قتل الحمار قال لابن آوى: إنه وُصف لي هذا الدواء بأن أغتسل ثم آكل الأذنين والقلب، وأجعل ما سوى ذلك قرباناً. فاحتفظ بالحمار حتى أغتسل ثم أرجع. فلما ولّى الأسد عمد ابن آوى إلى أذني الحمال وقلبه فأكلهما رجاء أن ينفر الأسد عنه فلا يأكل بقية الحمار فينفرد هو به. فلما رجع الأسد قال: أين قلب الحمار وأذنان؟ قال ابن آوى: وما شعرت أن الحمار لم يكن له قلب ولا أذنان وأنهما لو كانا له لم يرجع إليك ثانية بعد إفلاته منك؟ فصدقه الأسد.

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أني لست كالحمار الذي زعم ابن آوى أنه لم يكن له قلب ولا أذنان، وأنك احتلت بي وخدعتني فجزيتك مثل خديعتك واستدركت ما كنت ضيّعت من نفسي.

قال الغيلم: أنت الصادق البارّ وقد علمت أن ذا العقل يقلّ الكلام ويبالغ في العمل ويعترف بالزلة ويتبين الأمور قبل الإقدام عليها، ويستقيل عثرة عمله بفعله، كالرجل الذي يعثر على الأرض وعلى الأرض يعتمد وينهض.

فهذا مثل من طلب أمراً، حتى إذا استمكن منه أضاعه.

باب الناسك وابن عرس

قال الملك للفيلسوف: قد سمعت هذا المثل فاضرب لي إن رأيت مثل العجول في أمره العامل بغير تثبيت ولا روية.

قال بيدبا الفيلسوف: من لم يكن في أمره متثبتاً لم يبرح نادماً. ومن امثال ذلك مثل الناسك وابن عرس.
قال الملك: وكيف كان ذلك؟

قال الفيلسوف: زعموا أنه كان بأرض جرجان ناسك، وكانت له امرأة لبثت عنده زماناً لا تحمل، ثم حملت فاستبشر الناسك بذلك وقال لها: أبشري فإني أرجو أن تلدي غلاماً ويكون لنا فيه متعة وقرة عين، وأنا متقدم في التماس الظؤورة ومتخيّرٌ من الأسماء اسماً حسنا.

قالت المرأة: أيها الرجل من علمك أن تتكلم فيما لا تدري؟ ومن يعلم أيكون المولود ذكراً أم لا؟ اسكت عن هذا وارض بما الله قاسم لك، فإن الرجل العاقل لا يتكلم فيما لا يدري. فمن تكلم بما لا يدري وقضى على الأمر في نفسه بالتقدير أصابه ما أصاب الناسك المهريق على رأسه السمن والعسل.

قال الناسك: وكيف كان ذلك؟

الناسك وجرة السمن

قالت المرأة: زعموا أن ناسكاً كان يجري عليه من بين رجل من التجار رزق من السمن والعسل والسويق. وكان يُبقي من ذلك السمن والعسل فيجعلهما في كوز له قد علّقه حتى امتلأ الكوز من ذلك. ووافق غلاء في السمن والعسل فقال: "أنا بائع ما في هذه الجرة بدينار أقل ما أنا بائعه فأشتري بالدينار عشرة أعنز فيحملن ويلدن لخمسة أشهر". فحزر على هذا الحساب لخمس سنين فوجد ذلك أكثر من أربعمائة عنز في حسابه، ثم قال: "فاشتري مئة من البقر بكل أربعة أعنز ثوراً وبقرة فأصيب بذراً فأزرع على الثيران وأنتفع ببطون الإناث وألبانها. فلا يأتي علي خمس سنين، إلا وقد أصبت منها ومن الزرع مالاً كثيراً، فأبتني بيتاً فاخراً وأشتري عبيداً ورياشاً ومتاعاً. فإذا فرغت من ذلك تزوجت من امرأة ذات حسب ونسب. ثم تلد لي ابناً سوياً مباركاً مصلحاً فأسميه بما فيه وأؤدبه أدباً حسناً، وأشد عليه في الأدب. فإن رأيته عقوقاً مهتبلاً ضربت رأسه بهذا العصاة هكذا". ورفع العصا يشير بها فأصابت الكوز فانكسر وانصبّ السمن والعسل على رأسه، وذهب تدبيره وكل أمانيه باطلاً.

وإنما ضربت لك هذا المثل لتنتهي عن التكلم فيما لا تدري، وما لا يوافق القدر، فاتّعظ بما اتعظ الناسك.

ثم إن المرأة ولدت غلاماً سوياً فسرّ به أبوه، حتى إذا كان بعد أيام قالت المرأة لزوجها: اقعد عند الصبي حتى أغتسل وأرجع إليك. فانطلقت المرأة ولم يقعد الرجل إلا قليلاً حتى جاء رسول السلطان فذهب به ولم ابنه أحداً، إلا أنه قد كان له ابن عرس داجن عنده يقوم عليه قيام الرجل على ولده. فتركه الرجل عنده وذهب إلى السلطان. وكان في بيته جحر أسود فخرج الأسود يريد الغلام فوثب عليه ابن عرس فقطعه. وأقبل الناسك عند انصرافه حتى أتى بيته، فدخله فتلقاه ابن عرس كالمبشّر له بما صنع. فلما نظر إليه الناسك متلطّخاً بالدم سلب عقله ولم يلبث ولم يتبين، وضرب ابن عرس ضربة على رأسه بعصاه فوقع منها ميتاً. ودخل الناسك بيته فرأى الغلام والأسود مقطعاً فعرف الأمر وأقبل على رأسه نتفاً وعلى صدره ضرباً وجعل يقول: ليت هذا الغلام لم يولد ولم أنل هذا الغدر والكفر. فدخلت المرأة وهو يبكي فقالت له: ما يبكيك؟ وما شأن هذا الأسود وابن عرس مقتولين؟ فأخبرها خبرها وقال: هذه ثمرة العجلة.

فهذا مثل من عمل عملاً بغير تثبّت ولا روية في أمره.

باب إيلاذ وشادرم وإيراخت

قال الملك دبشليم لبيدبا الفيلسوف: قد فهمت ما ذكرت من أمر العجول غير المتأيد ولا المتثبت فأخبرني ما الذي إذا عمل به الملك كرم على رعيّته وثبّت ملكه، ألحلم أم المروءة أم الحميّة أم الجود؟

فقال الفيلسوف: إنّ أفضل ما يحفظ به الملك ملكه الحلم والعقل لأنهما رأس الأمور وملاكها مع مشاورة الملك. فإن الحلم أفضل ما يستعين به على أموره. ثم من صلاح المرء في معيشته المرأة الصالحة الفاضلة الرأي المؤاتية. فإن الرجل وإن كان شجاعاً رئيساً ثم لم يكن له من يشاوره حليماً عاقلاً وشاور غير لبيب، فإنه يبهظه الأمر اليسير حتى ترى فيه القبح والضعف لجاهلته وخطإ رأي أصحابه. فإن أصاب ظفراً أو لقي رشداً لقدر ساقه إليه صارت عاقبة أمره إلى ندامة. وإذا كان على خلاف ذلك من الفضل وآزره في التدبير وزير عاقل ثم أعانه القضاء أصاب الفلاح على من خاصمه والغلبة على من ناواه والسرور لمن أحزنه، كما زعموا أنه جرى بين شادرم ملك الهند وإيراخت امراه وإيلاذ صاحب سره ورأيه.

فقال الملك: وكيف كان ذلك؟

قال الفيلسوف: زعموا أن إيلاذ كان ناسكاً مجتهداص حسن الخلق ليّناً حليماً كاملاً. فبينما شادرم الملك ذات ليلة نائم في غرفة له إذ رأى ثمانية أحلام يستيقظ عند كل حلم منها. فلما أصبح دعا البراهمة، وهم النساك، فقص عليهم ما رأى وأمرهم أن يعبروها، فقالوا: قد رأيت أيها الملك أمراً منكراً معجباً لم نسمع بمثله فيما مضى. وإن أحببت أن تنطلق فنفكّر فيه ستة أيام ونأتيك في اليوم السابع فنخبرك به، ولعلنا نستطيع أن ندفع ما تتخوف منه.

قال الملك: فاعملوا برأيكم فيما تعلمون أنه يوافقني.

قالوا: نعم وخرجوا من عنده واجتمعوا وقالوا: لم يطل العهد منذ قتل منا اثني عشر ألفاً، وقد استمكنا منه إذ أفضى إلينا بسرّه وعرّفنا فرقه من رؤياه، ولعلنا ننتقم منه إن نحن أغلظنا له القول فيحمله الخوف على أن يتابعنا ما نريد، فنأمره أن يدفع إلينا من يكرم عليه من أهله ووزرائه ونقول له: إنا قد نظرنا في كتبنا فلم نجد شيئاً يصرف ما رأيت إلا قتل من ينتمي لك. إن قال: ومن تريدون؟ قلنا: إيراخت امرأتك وابنها جوبر وابن أختك إيلاذ صاحب أمرك، فإنه ذو حيلة وعلم، وكال كاتبك ولسانك. ونريد سيفك والفيل الأبيض الذي تقاتل عليه، وكنان أبزون الفقيه. فتجعل دماءهم في مرجل نقعدك فيه، فإذا أردنا أن نخرجك منه اجتمعنا معشر البرهميين من الآفاق الأربعة فرقيناك ومسحنا عليك وغسّلناك بالماء والدهن الطيب، ثم صيّرناك إلى مجلسك فيُذهب الله عنك ما تحذر مما رأيت. فإن أنت صبرت على هذا وطبت به نفساً خلصت من البلاء ونجوت من الأمر العظيم الذي قد رهقك وأشرف عليك واستخلفت مكانهم مثلهم. وإن لم تفعل فإنا نتخوف أن تغصب فتهلك وينزع ملكك ويستأصل عقبك.

فلما أبرم البرهميون ذلك من رأيهم اتفقوا عليه أتوا الملك فقالوا: إنا قد نظرنا في كتبنا وتبحّرناها وفكرنا في رؤياك وأعملنا العقول فيها، فلسنا نقدر على أن نعلمك ما رأينا حتى تخلينا. ففعل ذلك فقصوا عليه الأمر على ما هيّأوا له.

فقال الملك: الموت خير مما أسمع. كيف أبدأ فأقتل هذه النفوس التي هي عندي عدل نفسي وأحتمل الإصر والوزر. ولا بد من الموت على كل حال، ولست الدهر على ملكي هذا، وإنه سواء عليّ الهلاك وفراق الأحبة.

فقال الرهميون: إنت أنت لم تغضب أخبرناك أن رأيك مخطئ وأنك لم تصب إن أهنت نفسك وأكرمت عليها غيرها. أولست تعلم أن كل شيء معها يسير وأنه لا يفيدها شيء، وإن عظم خطره أو صغر. فلعمري لئن فديتها بمن سمّيناهم لك إنه لأمثل وأخير، فتبقى في ملكك وسلطانك ويصلح لك أمرك، فانظر لها ودع ما سواها فإنه لا شيء يعدلها.

فلما رأى الملك أن البرهميين قد أغلظوا في القول واجترأوا عليه فيه قام فدخل قصره ووقع وجهه، وجعل يتقلب مهموماً محزوناً ويفكر في رأيه لا يدري ما يصنع: أيخاطر بنفسه وملكه أو ينحاز إلى ما سألوا من قتل أحبائه. فمكث بذلك أياماً وفشا الحديث في أرضه وقيل: لقد نزل بالملك أمر هو فيه في كرب.

فلما رأى إيلاذ الذي قد وقع فيه الملك من ذلك فكّر ونظر وكان فطناً عالماً مجرّباً داهياً فقال: ما ينبغي أن أستقبل الملك بشيء دون أن يدعوني ولكني أنطلق إلى إيراخت امرأة الملك فأسألها عن ذلك. فأتاها فقال: إني أعلم أن الملك لم يركب أمراً صغيراً ولا كبيراً مذ كنت معه إلى بمشورتي. فإني كنت صاحب سره ولم يكن يكتمني شيئاً طرأ عليه، وكان إذا حاربه امر مفظع عزى نفسه فيه واصطبر على ما نزل به وذكر لي ذلك فأسليه عنه بأرفق ما أقدر عليه. وإني أراه مستخلياً بالبراهمة منذ سبعة أيام وقد احتجب فيها عن الناس. وأنا خائف أن يكون قد أطلعهم على دخلة أمره ولست آمن عليه منهم. فاذهبي إليه وسليه عن حاله وما بلغه وما الذي ذكروا له، ثم أعلميني، فإني لا استطيع أن أدخل عليه. وأحسبهم قد زيّنوا له أمراً قبيحاً وحملوه على عضيهة وأغضبوه بشيء شبهوا له فيه. فإن من أخلاق الملك إذا اغتاظ أن لا يلتفت إلى أحد ولا يسأل عن شيء ولا ينظر فيه، وسواء عليه جسيم الأمور وحقيرها. ولست أشك أنهم لم ينصحوه لما في قلوبهم من الحقد عليه والبغض له، وأنهم إن قدروا عليه وعلى هلكته التمسوا إنزالها فيه وإدخالها عليه.

قالت إيراخت: إنه كان بيني وبين الملك كلام ولست أريد أن آتيه ما دام مذنباً لم يرع لي خاطراً.

قال إيلاذ: لا تحملن الحقد في مثل يومك هذا. فلن يقدر أحد على أن يدخل عليه غيرك، وقد كنت سمعته يقول غير مرة: "إني إذا حزنت واهتممت فأتني إيراخت أذهبت عني ذلك". فانطلقي إليه وكلميه بما تظنين أنه يطيب نفساً به وتجلّي عنه ما به.

فلما سمعت ذلك إيراخت نهضت إلى الملك ودخلت عليه، وجلست عند رأسه وقالت: ما أمرك أيها الملك السعيد الرشيد المحمود؟ وما الذي قال لك البرهميون؟ فإني أراك مهموماً حزيناً. إن كان الذي ينبغي أن تحتاله أمراً فيه جلاء همك وسرورك ونفعك فيه استئصال أنفسنا فافعل ذلك، وإن يكن بك غضب علينا نرضك ونأت ما يسرّك.

فقال الملك: لا تسأليني أيتها المرأة عن شيء فتزيديني خيالاً إلى ما بي. فإنه لا ينبغي أن تعلمي ذلك الأمر العظيم خطره، الشديد هوله، ولا تجديك معرفته نفعاً.

فقالت إيراخت: أو قد صار أمري عندك إلى أن تجيبني بمثل ما قد سمعت؟ أو ما تعلم بأن أفضل الرأي للملك إذا وقع بالأمر الذي يدهمه أن يشاور أهل نصيحته ومودّته ومن يهمه وما أحزنه؟ فإن المذنب لا يقنط من الرحمة ولكنه يتوب مما يخاف. فلا يدخلنك من الهم والحزن ما أرى بك. فإنهما لا يردان شيئاً بل يشتمان العدو ويسوءان الصديق. وأهل العلم والتجارب ينظرون في ذلك ويصبّرون أنفسهم على ما فاتهم من عرض الأطماع ونزل بهم من حوادث الأزمان.

فقال الملك: أيتها المرأة لا تسأليني عن شيء فإن في الذي تفحصين عنه دماري وهلاكك وهلاك ولدك وكثير من أهل ودي. فإن البرهميين زعموا أنه لا بد من قتلك وقتله ولا خير في العيش بعدكم ولا لذة لي عند فراقكم، وذلك أفظع الأمور وأجلها خطباً في نفسي.

فلما سمعت ذلك إيراخت جزعت ومنعها عقلها أن تظهر للملك جزعها، فقالت: لا يحزنك الله أيها الملك ولا يسؤك. أنفسها لك الفداء والوفاء. فإن ذلك يسير في بقائك وصلاحك. وقد جعل الله لك من الجواري ما فيه الخلف والعوض. ولكني أطلب إليك بعد موتي ألا تثق بالبرهميين ولا تستشيرهم ولا تقتل أحداً حتى تشاور فيه أهل نصيحتك والثقة لك وتعرف ما تقدم عليه. فإن القتل عظيم الخطب شديد الوزر، ولست تقدر على رد ما أهلكت. وقد قيل: "إن وجدت جوهراً لا تظن فيه خيراً وأردت أن تلقيه فلا تفعل ذلك حتى تريه من يبصره"، ولا تقرّ عين عدوك من البرهميين وغيرهم. واعلم أنهم لم ينصحوا لك أبداً وإنما قتلت منهذ منذ قريب اثني عشر ألفاً، أفتظن أنهم نسوا ذلك؟ ولعمري ما كنت جديراً أن تحدثهم برؤياك ولا تطلعهم على سرك، فإنهم يريدون بما عبّروا من رؤياك هلاكك وبوار أحبابك واستئصال وزرائك أهل الحلم والعلم والحكمة ومراكبك التي تقاتل عليها. ولكن انطلق إلى كنان أبزون فاذكر له أمرك وسله عما بدا لك، فإنه لبيب أمين وليس عند أحد شيء إلا عنده أفضل منه، وإن كان من البراهمة فإنه ناسك فقيه. فإن أشار عليك بمثل رأيهم فعلت، وإن خالف رأيه قولهم نظرت ولم تعجّل في أمرك.

فلما سمع الملك ذلك منها أعجبه فأمر بإسراج فرسه ثم ركب وانطلق إلى كنان أبزون حثيثاً. فلما انتهى إليه نزل عن فرسه ثم سجد له وحياه وطأطأ رأسه. فقال كنان أبزون: ما جاء بك أيها الملك؟ ومالي أراك متغير اللون ممتلئاً حزناً ولا أرى عليك تاجك ولا إكليل الملك؟

فقال له الملك: كنت ذات ليلة نائماً على ظهر إيواني فسمعت من الأرض ثمانية أصوات أستيقظ مع كل صوت منها ثم أرقد. فرأيت ثمانية أحلام فاقتصصتها على البرهميين. فأنا أخاف أن يصيبني أمر عظيم، إما أن أقتل في حرب وإما أن أغصب في ملكي فأغلب عليه.

ثم قصّ الملك عليه الرؤيا فقال له البرهمي: لا يحزنك هذا الأمر ولا يوجلنّك، فإنك لا تموت الآن ولن تسلب ملكك ولن يصيبك شيء من الآثام والشرور التي تحذر. فأما الأحلام الثمانية التي رأيت فإني منبئك بتأويلها. تدل السمكتان الحمراوان اللتان قامتا على ذنبيهما أنه يأتيك من قبل هميون رسول يهديك من قبله هدية ثمنها أربعة آلاف رطل من ذهب. وأما البطتان اللتان رأيت أنهما طارتا من وراء ظهرك فوقعتا بين يديك فإنه يأتيك من عند ملك بلخ من يقوم بين يديك بفرسين ليس في الأرض مثلهما. وأما الحية التي رأيتها دبّت على رجلك اليسرى فإنه يأتيك من قبل ملك صنجين من يقوم بين يديك بسيف خالص الحديدة لا يوجد مثله. وأما الدم الذي رأيت أنه يخضب جسمك فإنه يأتيك من قبل ملك كاسرون من يقوم بين يديك بلباس معجب يسمى حلة أرجوان يضيء في الظلمة. واما ما رأيت من غسلك جسمك بالماء فإنه يأتيك من قبل ملك راز من يقوم بين يديك بثياب من لباس الملوك. وأما ما رأيت من أنك على جبل أبيض فإنه يأتيك من خيار الملوك من يقوم بين يديك بإكليل

من ذهب مكلل بالدر والياقوت. وأما الطير الأبيض الذي ضرب رأسك بمنقاره فلست بمفسّره لك اليوم وليس بضارّك فلا توجلنّ منه، ولكن فيه بعض السخط والإعراض عمن تحب. فأما البرد والرسل فإنهم يأتونك بعد سبعة أيام جميعاً فيقومون بين يديك.

فلما سمع الملك ذلك سجد بين يدي كنان أبزون وانصرف وقال: إني لناظر فيما قال. فلما كان اليوم السابع لبس الملك ثيابه وأخذ زينته وقعد في مجلسه وأذن للعظماء والأشراف، فجاءته تلك الهدايا التي أخبره عنها كنان أبزون فوضعت بين يديه. فلما رأى الملك أولئك البرد والرسل وتلك الهدايا اشتد فرحه لذلك وقال في نفسه: "لم أوفّق حين قصصت رؤياي على البرهميين فأمروني بما أمروني به. ولولا أن الله حماني ورحمني وتداركني برأي إيراخت كنت هلكت وزالت دنياي. فلذلك ينبغي لكل أحد أن يسمع من الأخلاء والأحباء وذوي القرابات رأيهم ويقبل مشورتهم. فإن إيراخت أشارت علي برأي فقبلته واغتبطت به فثبت لي ملكي بأي الأخلاء والنصحاء واستبان لي أيضاً علم كنان أبزون وصدق قوله". ثم دعا الملك جوبر وإيلاذ وكال الكاتب فقال لهم إنه لا ينبغي لنا أن ندخل هذه الهدايا خزائننا ولكني سأقسمها بينك أنت الذي وطّنتم أنفسكم على الموت في سببي وبين إيراخت التي أشارت عليّ بالرأي الذي انتفعت به في بقاء ملكي والذي ترون من الفرح والسرور.

فقال إيلاذ: إنه لا ينبغي لنا معاشر العبيد أن نعجب لما كان منا في ذلك. فإن العبد ينبغي له أن يسلم نفسه في الموت مكان سيده. فأما هذه العطية فلا ينبغي لنا معشر العبيد أن ندنو منها. فأما جوير ابنك فهو لنا أهل فليأخذ ما أعطيته.

فقال الملك: إنه قد شاع لنا في هذا ثناء وخير كبير فلا تحتشمنّ يا إيلاذ وخذ نصيبك وقرّ به عيناً.

فقال إيلاذ: ليكن من ذلك ما أحب الملك أن يبدأ بأخذ ما يريد فليفعل. فأخذ الملك الفيل الأبيض وأعطى جوبر أحد الفرسين وأعطى إيلاذ السيف الخالص الحديدة وأعطى كال الكاتب الفرس الآخر وبعث إلى كنان أبوزون باللباس الذي تلبسه الملوك. وأما الإكليل وسائر اللباس وما كان يصلح للنساء فقال لإيلاذ: خذ الإكليل والثياب احملها معي واتبعني إلى النساء. فدعا الملك زوجتيه إيراخت وكورقناه فجلستا بين يديه، وقال الملك: يا إيلاذ ضع الإكليل والكسوة بين يدي إيراخت فلتأخذ أيها شاءت. فلما نزرت إيراخت إلى الإكليل وعجبه نظرت إلى إيلاذ بمؤخر عينها ليريها أيهما أفضل فأراها إيلاذ الثياب وأشار إليها بأخذها، فحانت من الملك التفاتة فرأى إيلاذ. فلما رأت إيراخت أن الملك قد أبصر إيماءه إليها بعينه تركت الذي أراها إيلاذ وأخذت الإكليل. فعاش إيلاذ بد ذلك أربعين سنة كلما دخل على الملك كسر عينيه لئلا يظن الملك أنه أراها شيئاً. ولولا عقل إيراخت وعقل إيلاذ لم ينج واحد منهما من الموت.

وكان الملك يقضي ليلة عند إيراخت وليلة عند كورقناه، فأتى الملك إيراخت في ليلة وقد صنعت له أرزاً فدخلت على الملك وفي يدها صحفة من ذهب والإكليل على رأسها فقامت على رأس الملك بالصحفة وهو يطعم منها. فلما رأت كورقناه الإكليل على رأس إيراخت غارت على إيراخت فلبست تلك الثياب فظهر حسنها مثل الشمس ومرّت بين يدي الملك فاشتاق إلى كورقناه وقال لإيراخت: لقد كنت جاهلة حين أخذت الإكليل وتركت الكسوة التي ليس في خزائننا مثلها.

فلما سمعت إيراخت ذلك من قوله ومدحه كورقناه وتسفيه رأيها ألبست الغيظ والغضب فضربت الصحفة التي كانت في يدها رأس الملك فسال الأرز على رأسه وعلى جسمه. وكان ذلك تصديق الحلم الذي كان كنان أبوزن شرح للملك بطرف منه ولم يكن بيّنه له. فدعا الملك إيلاذ فقال: يا إيلاذ ألا ترى إلى ملك العالم كيف حقرته هذه المرأة وعملت به ما علمت، فانطلق بها واضرب عنقها ولا ترحمها.

فخرج إيلاذ بإيراخت من عند الملك وقال في نفسه: ما أنا بقاتلها حتى يسكن غضب الملك، فإنها امرأة عاقلة سعيدة من الملكات ليس لها من بين النساء عِدل في الحلم والعقل وليس الملك بصابر عنها. وقد خلص بها إلى اليوم أناس كثير من الموت وعملت أعمالاً صالحة ورجاؤنا فيها اليوم عظيم، ولست آمن أن يقول: "ما استطعت أن تؤخر قتلها؟". فلست قاتلها حتى أنظر ما رأي الملك فيها، فإن ندم على قتلها وحزن جئته بها حية، وكنت قد عملت ثلاثة أعمال عظام: نجيت إيراخت من القتل، وسليت حزن الملك، وافتخرت بذلك على الناس. وإن لم يذكر ها أمضيت أمره فيها.

فانطلق بها إيلاذ سراً إلى منزله فوكل بها رجلين من أمناء الملك الذي يلون نساءه وأمر أهله بحفظها وإكرامها حتى ينظر كيف يكون آخر أمرها. ثم خضّب إيلاذ سيفه بالدم ودخل على الملك كئيباً حزيناً، فقال للملك: قد أمضيت أمرك في إيراخت.

فلم يلبث الملك أن سكن غضبه فذكر جمال إيراخت ورأيها وعظم عنائها وجسيم منفعتها فاشتد حزنه وجعل يقوّي نفسه ويتجلد وهو على ذلك يستحيي أن يسأل إيلاذ: أأمضى أمره حقاً فيها أم لا. وجعل يرجو لها البقاء لعلمه بعقل إيلاذ أن لا يكون قتلها. ونظره إيلاذ بفضل علمه فقال: لا أحزن الله الملك ولا يهتمّنّ فإنه ليس في الغم والحزن منفعة، ولكنهما ينحلان الجسم ويفسدانه مع ما يدخل على أهل الملك أيضاً من الحزن إذا حزن، وفرح أعداؤه وشمتوا به، وإنه إذا سمع بهم لم يعدم من صاحبه عقلاً ولا علماً. فاصبر أيها الملك ولا تحزن على ما لست بناظر إليه أبداً وإن أحبّ الملك حدّثته بحديث شبيه بأمره هذا.

قال الملك: حدثني به.

مثل الحمامتين

قل إيلاذ: زعموا أن حمامتين ذكراً وأنثى ملآ عشهما من البر والشعير فقال الذكر للأنثى: إننا إذا وجدنا في الصحارى ما نعيش به فلسنا بآكلين مما في عشنا شيئاً. فإذا جاء الشتاء ولم نصب في الصحارى شيئاً أقبلنا على ما جمعناه فأكلناه. فرضيت الأنثى بذلك وقالت: نعم ما رأيت وسنفعل ما ذكرت. وكان البر والشعير نديّاً حين وضعاه فامتلأ عشهما فانطلق الذكر إلى مكان تغيب فيه فأبطأ. فلما كان الصيف يبس ذلك الحب وذبل فنقص مما كان. ثم رجع الذكر فرأى ذلك الحب ناقصاً فقال للأنثى: قد كنا أجمعنا على أن لا نأكل من عشنا شيئاً فلم أكلت منه. فحلفت الأنثى أن "ما أكلت منه حبة"، فلم يصدقها وجعل ينقرها حتى قتلها. فلما جاء الشتاء والأمطار ندي الحب فامتلأ العش كما كان. فلما رأى الذكر أن العشّ قد امتلأ اضطجع إلى جانبها نادماً وقال: كيف ينبغي لي العيش إذا طلبتك فلم أقدر عليك. فمن كان عاقلاً علم أنه لا ينبغي أن يعجّل بالعذاب والعقوبة لا سيما بعذاب من يخاف أن يندم على عذابه كما ندم الحمام الذكر.

وقد سمعت أن رجلاً كان على ظهره كارة من عدس فدخل بين الشجر فوضع حمله ثم رقد. فنزل قرد من شجرة كانت فوق رأسه فأخذ ملء كفه من ذلك العدس ثم صعد إلى الشجرة فسقطت من يده حبة فطلبها فلم يجدها وانتثر العدس من يده. وأنت أيها الملك تحت أمرك عدد لا يحصى من الإماء وتطلب ما لا تجد.

فلما سمع الملك ذلك خشي أن تكون إيراخت قد هلكت فقال إيلاذ: في سقطة واحدة كانت مني فعلت ما أمرتك به من ساعتك وتعلقت بكلمة واحدة ولم تتثبت في الأمر؟

قال إيلاذ: إن الذي قوله واحد لا يختلف فيه هو واحد فقط.

قال الملك: ومن ذلك؟

قال إيلاذ: ذلك الله الذي لا يبدل كلامه ولا يخلف قوله.

قال الملك: لقد اشتد حزني بقتل إيراخت أم جوبر.

قال إيلاذ: إثنان فرحهما في الدنيا ونعيمهما قليل حين يعاينان الشر: الكافر الذي يقول لا حساب ولا عقاب والذي لم يعمل براً قط.

قال الملك: لئن رأيت إيراخت حية لا أحزن على شيء أبداً.

قال إيلاذ: إثنان لا ينبغي لهما أن يحزنا: المجتهد بالبر كل يوم والذي لم يأثم قط.

قال الملك: أفما أنا بناظر إلى إيراخت بعد هذا؟

قال إيلاذ: إثنان لا ينظران أبداً: الأعمى والذي لا عقل له. فكما أن الأعمى لا يبصر سماء ولا نجوماً ولا أرضاً ولا يبصر البعيد من القريب، ولا أمامه ولا خلفه، كذلك الذي لا عقل له لا يبصر ولا يعرف العالم من الجاهل ولا الحسن من القبيح ولا المحسن من المسيء.

قال الملك: لو رأيت إيراخت لاشتد فرحي.

قال إيلاذ: إثنان هما فرحان: البصير والعالم. فكما أن البصير يبصر نور العالم وما فيه، كذلك العالم يبصر البر والإثم ويعرف أمر الآخرة ويستبين له، ومتى تبعه نجّاه وهداه إلى صراط مستقيم.

فقال الملك: ما شعبت من رؤية إيراخت قط.

قال له إيلاذ: إثنان لا يشبعان أبدا: الذي لا همّ له إلا جمع المال والذي يأكل ما وجد ويسأل ما لا يجد.

فقال الملك: إنه لينبغي لنا أن نتباعد منك يا إيلاذ فإن من مثلك حذّر ونهي.

فقال إيلاذ: إثنان ينبغي أن نتباعد منهما: الذي يقول لا بر ولا إثم، والذي لا يستطيع صرف بصره عما ليس له ولا أذنه عن استماع السوء، ولا ميله إلى نساء غيره ولا قلبه عما تهمّ به نفسه من الإثم والحرص. وأخرى من ذلك الندامة الهرب من عذاب جهنم.

قال الملك: صرت من أمر إيراخت صفراً.

قال إيلاذ: أربعة أشياء هم أصفار: النهر الذي ليس فيه ماء، والأرض التي ليس فيها ملك، والمرأة التي ليس لها بعل، والجاهل الذي لا يعرف الخير من الشر.

قال الملك: إنك لتلقي الجواب يا إيلاذ.

فقال إيلاذ: ثلاثة يلقون الجواب: الملك الذي يقسم ويعطي من خزائنه، والمرأة المهيّاة لبعض من تهوى من ذوي الأحساب، والرجل العالم الموفق المعلم دين الله.

قال الملك: إنك لتحزنني بتعزيتك يا إيلاذ.

قال إيلاذ: ثلاثة ينبغي لهم أن يحزنوا: الذي فرسه سمين حسن المنظر سيء المخبر، وصاحب المرقة التي كثر ماؤها وقلّ لحمها فصارت لا طعم لها، والذي لا يقدر على إكرام زوجته ذات الحسب فا تزال تسمعه ما يؤذيه.

قال الملك: أهلكت إيراخت ضيعة؟

قال إيلاذ: ثلاثة يضيعون في غير الحق: الرجل الذي يلبس الثياب البيض ولا يزال عند الكير جالساً فيسوّدها بالدخان، والقصّار الذي يلبس الخفّين الجديدتين ولا يزال قدماه في الماء، والرجل التاجر الغني الذي لا يزال غائباً بأرض بعيدة فلا يستمتع بغناه.

قال الملك: إنك لأهل أن تعذّب أشد العذاب يا إيلاذ.

قال إيلاذ: ثلاثة ينبغي لهم أن يعذّبوا: المجرم الذي يعاقب من لا ذنب له، والمتقدم إلى مائدة لم يدع إليها، والذي يسأل أصدقاءه ما ليس عندهم ولم يدع مسألتهم.

قال الملك: إنه لينبغي لك أن تسفّه يا إيلاذ.

قال إيلاذ: ثلاثة ينبغي لهم أن يسفّهوا: النجار الذي ينزل البيت الصغير بأهله ثم لا يزال ينجر الخشب فيملأ بيته من الحطب ويصير هو وامرأته في ضيق، والطبيب الذي يعمل بالوسى ولا يحسن الاتقاء فيقطع لحوم الناس،

والغريب المقيم بين ظهر عدوه ولا يريد الرجوع إلى أهله ووطنه. وإن مات في غربته أيضاً ورثوه فيصير ماله للغرباء وينسى ذكره.

قال الملك: كان ينبغي أن تسكن حتى يذهب غضبي يا إيلاذ.

قال إيلاذ: ثلاثة ينبغي لهم أن يسكنوا: الذي يرقى الجبل الطويل، والذي يصيد السمك، والذي يهمّ بالعمل الجسيم.

قال الملك: ليتني قد رأيت إيراخت.

قال إيلاذ: ثلاثة يتمنون ما لا يجدون: الفاجر الذي لا ورع له ويريد إذا مات منزلة الأبرار ويرجو مثل ثوابهم، والبخيل الذي ينزل نفسه منزلة الكري، والظالمون الذي يسفكون الدماء بغير حقها ويرجون أن تكون أرواحهم مع أرواح السعداء أهل الرأفة والرحمة.

قال الملك: أنا الذي أوجعت نفسي بإيراخت.

قال إيلاذ: ثلاثة هم الذين أوجعوا أنفسهم: الذي يأتي القتال ولا يتقي فيقتل، والكثير المال الذي لا ولد له ولا أخ وتجارته في الربا والغلاء على الناس فربما حسده بعضهم فأهلكه، والشيخ الكبير يخطب المرأة الشابة فلا تزال تتمنى موته.

قال الملك: إني لحقير في عينك يا إيلاذ حين تجترئ أن تقول مثل هذه المقالة بين يدي.

قال إيلاذ: ثلاثة يحقرون أربابهم: الذي يجترئ ويهذي بالكلام ويقول ما يعلم وما لا يعلم، والمملوك الغني الذي سيده فقير فلا يعطي سيده من ماله شيئاً ولا يعينه به، والعبد الذي يغلظ لسيده في القول ويخاصمه ثم يستطيل عليه في الخصومة.

قال الملك: إنك لتسخر بي يا إيلاذ، وددت أن إيراخت لم تكن ماتت.

قال إيلاذ: ثلاثة ينبغي لهم أن يسخر منهم: الذي يقول: "قد شهدت زحوفاً كثيرة فأكثرت القتل والسبي" فلا يُرى في جسده أثر من القتال، والذي يخبر أنه عالم بالدين ناسك مجتهد وهو يعيش التنعّم والرفاهية تراه أسمن من الأئمة الفجار، فذلك ينبغي أن يخسر منه ويتهم فيما أخبر عن نفسه. فإنّ من أذاب نفسه في طاعة الله يكون مهزول الجسم قليل الطعم، والمرأة التي تسخر من ذات الزوج ولعلها أن تكون بذيّة.

قال الملك: إنك لمتجبر يا إيلاذ.

قال إيلاذ: ثلاثة يتجبرون: الجاهل الذي يعلّم السفيه ويقبل منه ويماريه فيصير أمره إلى ندامة، والذي يهيج السفيه ويتحرّش به متعمداً أذاه فيؤذي بذلك نفسه، والذي يفضي سره إلى من لا يختبره ويدخله في الأمر العظيم ويثق به ثقته بنفسه.

قال الملك: أنا الذي جلبت المشقة على نفسي.

قال إيلاذ: إثنان هما اللذان يجلبان المشقة على أنفسهما: الذي ينكص على عقبيه ويمشي القهقري فربما عثر فيتردى في بئر أو يقع في مهواة، والذي يقول "أن من كماة الحرب" فيغرّ غيره، فإذا حضر الناس للقتال تلفّت يميناص وشمالاً فيحتال للفرار.

قال الملك: لقد تصرّم ما بيني وبينك يا إيلاذ.

قال إيلاذ: ثلاثة لا يلبث ودهم أن يتصرّم: الخليل الذي لا يلاقي خليله ولا يكاتبه ولا يراسله، والخل الذي يكرمه أحباؤه ولا ينزل ذلك منزلته ولا يقلبه بقبوله ولكنه يستهزئ بهم ويسخر منهم، والقاصد خلانه في النعيم والفرح وقرة العين يسألهم الأمر الذي يقدرون عليه ثم لا يثيبهم على ذلك شيئا.

قال الملك: قد عملت بقتل إيراخت عملاً يستدل به على خفة حلمك يا إيلاذ.

قال إيلاذ: ثلاثة يعملون بجرأتهم ما تستبين به خفة أحلامهم: المستودع ماله من لا يعرف أمانته، والأبله القليل العقل الجبان الذي يخبر الناس أنه شجاع مقاتل بصير بجمع المال واتخاذ الأخلاء وبناء البنيان وهو كاذب في كل ما ذكر، والذي يزعم أنه تارك أمور الجسد مقبل على أمور الروح وهو لا يلقى إلا متابعاً لهواه تاركاً لأمر الله وتنفيذ وصيته.

قال الملك: إن ك لغير عاقل يا إيلاذ.

قال إيلاذ: ثلاثة لا ينبغي لهم أن يعدوا من ذوي العقل: الإسكاف الذي يجلس على المكان المرتفع فإذا تدحرج شفاره أو شيء من أداته شغله عن كثير من عمله، والخياط الذي يطيل خيطه فإذا تعقّد شغله عن كثير من عمله، والذي يقص أشعار الناس ويلتفت يميناً وشمالاً فيفسد شعورهم فيستوجب بما أذنب العقوبة.

قال الملك: كأنك تريد يا إيلاذ أن تعلم الناس كلهم حتى يمهروا مثلك فتريد أن تعلمني حتى أكون ماهراً.

قال إيلاذ: ثلاثة زعموا أهم قد مهروا وينبغي أن يتعلموا: الذي يضرب بالصنج والعود والطبل ولا يوافق المزمار وسائر الألحان، والمصور الذي يحسن خط التصاوير ولا يحسن خلط الأصباغ، والذي يزعم أنه ليس محتاجاً إلى علم شيء من الأعمال وأنه بالأعمال والصناعات كلها عالم ولا يبصر غور الكلام وكيف هو وفي أي ساعة له أن يكلم من هو فوقه ومن هو دونه.

قال الملك: لم تعمل بحق إذا قتلت إيراخت.

قال إيلاذ: أربعة يعملون بغير حق: الذي لا يصدق لسانه ولا يحفظ قوله، والسريع في الأكل والبطيء في العمل وخدمة من فوقه، والذي لا يستطيع أن يسكن غضبه قبل خزي الذنب، والملك الذي يهمّ بالأمر العظيم ثم يتركه.

قال الملك: لو علمت بسنّتي لم تقتل إيراخت.

قال إيلاذ: أربعة يعملون بسنة: الذي يصنع الطعام لحينه ويهيّئه فيقدمه لسيده لأوانه، والذي يرضى بامرأة واحدة ويصرف نظره عن ساء غيره ممن لا يحل له، والملك الذي يعمل الأمر العظيم بمشاورة العلماء، والرجل الذي يقهر غضبه.

قال الملك: لقد عدمت الخير يا إيلاذ.

قال إيلاذ: أربعة هم الذي عدموا الخير: المملوء جسمه ظلماً وإثماً، والخسيع المعجب بنفسه، والذي قد تعوّد السرقة، والسريع الغضب البطيء الرضا.

قال الملك: ما ينبغي لنا أن نثق بك يا إيلاذ.

قال إيلاذ: أربعة لا يوثق بهم: الحية الماردة، وكل سبع مخوف من الحيوان، والأثمة الفجار، والجسد الذي قضي عليه بالموت.

قال الملك: إن ذوي الكرم من الناس لا ينبغي لهم أن يضاحكوا ولا يلاعبوا.

قال إيلاذ: أربعة لا ينبغي لهم أن يضاحكوا ولا يلاعبوا: الملك العظيم السلطان، والناسك المتعبد، والرجل الساحر الخسيع، واللئيم الخلق الشره الطبيعة.

قال الملك: ما ينبغي لنا مخالطتك يا إيلاذ بعد قتلك إيراخت.

قال إيلاذ: أربعة لا يخالط بعضهم بعضاً: الليل والنهار، والبر والفاجر، والنور والظلمة، والخير والشر.

قال الملك: ما ينبغي لأحد أن يثق بك يا إيلاذ أبداً.

قال إيلاذ: أربعة لا يوثق بهم: اللص والكذوب والمذاق والحقود المتسلط.

قال الملك: لم يصبني حزن كحزني على إيراخت.

قال إيلاذ: خمس من النساء ينبغي أن يحزن عليهن: الكريمة الحسب ذات الشرف العظيم، والعاقلة اللينة العالمة، والحليمة الطاهرة الجيب، والحصان الميمونة الطائر، والمؤاتية لبعلها الراضية المتحننة عليه.

قال الملك: من ردّ عليّ إيراخت حية فله عندي من المال ما أحب.

قال إيلاذ: خسمة المال أحب إليهم من أنفسهم: الذي يقاتل بالأجرة لا نية له في القتال إلا إصابة أجرته، واللص الذي ينقب البيوت ويقطع الطريق فتقطع يداه أو يقتل، والتاجر الذي يركب البحر يطلب جمع المال، وصاحب السجن الذي مُناه أن يكثر أهل سجنه ليصيب منهم، والمرتشي في الحكم.

قال الملك: قد أثبتّ في نفسي عليك حقداً بقتلك إيراخت يا إيلاذ.

قال إيلاذ: أربعة الحقد بينهم ثابت: الذئب والخروف، السنور والفأرة، البازي والدُرّاج، والبوم والغراب.

قال الملك: ليس تأخذني سنة ولا نوم من حزني على إيراخت.

قال الملك: لقد كرهت قتل إيراخت.

قال إيلاذ: سبعة أشياء مكروهة: الشيخوخة التي تسلب الشباب البهاء، والوجع الذي ينحل الجسم وينزف الدم، والغضب الذي يفسد علم العلماء وحكم الحكماء، والهمّ الذي ينقص العقل ويسلّ الجسم، والبرد الذي يضرّ، والجوع والعطش اللذان يجهدان كلّ شيء ويخزيانه، والموت الذي يفسد جميع البشر.

قال الملك: غبنتني وغبنت نفسك يا إيلاذ.

قال إيلاذ: ثمانية يغبنون أنفسهم وغيرهم: ذو العلم القليل يتكلف أن يعلّم الناس كثيراً، والرجل العظيم ذو العقل وليس يدري فطنة، والذي يطلب ما لا يدرك ولا ينبغي له إدراكه، والبذيء الفجور الأشر العادي طوره المستغني برأيه عن مشاورة الأخلاء من أهل العقل والنصح له، وموارب الملوك والعظماء ولا حلم له ولا علم، ومطلب العلم الذي يخاصم فيه من هو أعلم به منه ولا يقبل منه ما علّمه، ومجامل الملوك غير مانح لهم الصفاء ولا باذل للهم ودّ صدره، وملك قهرمانة وخازنه كذاب مهذار سيء الطبيعة لا يقبل الأدب من مؤدب.

ثم سكت إيلاذ وعليم أن الملك قد اشتدّ حزنه على إيراخت واشتاق إلى رؤيتها، فقال له الملك: ما بالك سكتّ يا إيلاذ.

قال: أيها الملك إني قد تطاولت عليك فيما امتحنتك به ما آل إليه أمرك في إيراخت. وأنا الآن حقيق بأن آتي الملك بهذه التي أحبها هذا الحب وحرص على رؤيتها أشد الحرص وحلم على عقوبتي مع طول تبصرتي إياه في أشياء كثيرة وتطرّفي له في القول. فإنه ليس في الأرض ملك مثلك ولا شبيه بك، ولا كان فيما مضى ولا يكون ذلك إلى آخر الأبد إذ لم يسلبك الغضب حلمك. وأنا مع رقة شأني وصغر خطري أقول ما أقول ولكن لم تزل عليك السكينة والوقار مع سواك في العلم والحلم ولين الكنف لحب السلامة والخير مع جميع الناس. فإنك لكرم أصلك وسعة حلمك ملكت نفسك وصرت على ما سمعت مني مع صغر أمري ورقة شأني. فأشكر لك أيها الملك إذ لم تأمر بقتلي وها آنذا قائم بين يديك قد فعلت الذي فعلت لنصحي وحبي لك. فإن كانت دخلت هذه في معصية فإن لك الحجة والسلطان على عقوبتي وقتلي.

فلما سمع الملك أن إيراخت أم جوبر هي حية اشتد فرحه وقال لإيلاذ: إنه كان يمنعني من الغضب عليك ما علمت من نصيحتك وصدق حديثك. وكنت أرجو لمعرفتي بحلمك ألا تكون قتلك إيراخت. فإنها تفعل ذلك لعداوة ولا لطلب مضرّة لكنها فعلت لغيرة. وكان ينبغي لي أن أعرض عن ذلك وأحتلمه ولا أغضب لأن يعرفت أن

الذنب كان لي، وإن كنت مستيقناً أنك تعلم أني لم آمرك بما أمرتك فيها من القتل إلا وأنا نادم على ما أمرتك، لكنك أردت أن تجرّب الملك أو تتركه في شكّ وخفت أن أعاقبك إن قلت "لم أقتلها". ومعاذ الله أن يكون ذلك رأي وأن أكون فاعلاً ذلك بك. ولكن لك حق شاكر فانطلق فأتني بإيراخت وارددها عليّ.

فخرج إيلاذ من عند الملك وأمر إيراخت أن تتزين وتلبس ثيابها ففعلت ذلك. ثم انطلق بها إلى الملك فدخلت عليه وقبّلت رأسه. فلما رآها اشتد فرحه وقال: افعلي ما أحببت فلا أصرف هواك عن شيء.

قال إيراخت: أداماالله ملككم إلى الأبد فكيف لولا رأفتكم وسعة أحلامكم تندمون على ما كان منكم في أمري هذه الندامة. فإنكم لو لم تذكروني آخر الأبد لكنت لذلك أهلاً للذي كان مني حتى أمر الملك بقتلي. وبرأفتكم شرككم إيلاذ في كفه عن قتلي. ولولا ثقة إيلاذ بسعة أحلامكم مع رأفته وعدله ووفائه لأنفذ ذلك الأمر وأهلكني.

قال الملك لإيلاذ: إنك قد اصطنعت عندي ما وجب به شكرك ولما لم يره ملك من عبيده لم يصطنع إليّ أمر أعظم عندي من أنك لم تقتل إيراخت، بل أحييتها بعد ما قتلتها أنا فوهبتها إليّ اليوم ورددتها عليّ فلم أكن قطّ أرضى عنك مني اليوم.

قال إيلاذ: أنا عبدك وحاجتي اليوم ألا تعجل بعدها في الأمر العظيم الذي يندم عليه وتكون عاقبته الهم والحزن كما رأيت، ولا سيما في أمر هذه التي لا يوجد لها في الأرض شبيه.

قال الملك: لحقنا قلت يا إيلاذ وقد قبلت قولك في كل ما أمرت به فيكف في مثل هذا الأمر العظيم الذي قد مرّ بي. فإني لست عاملاً بعده صغيراً ولا كبيراً إلا بعد المؤامرة والنظر والتؤدة.
ثم إن الملك أعطى تلك الثياب إيراخت ودخل معها إلى مكان نسائه فرحاً مسروراً. ثم ائتمر بعد ذلك هو وإيلاذ في قتل أولئك البراهمة الذين أرادوا هلاك حشم الملك وأهله فقتلوا ونهبوا ونفوا من الأرض. وقرّت أعين عظماء أهل مملكته وحمد الله وأثنى عليه وشكر لكنان أبزون فضل علمه وسعة حلمه لأن بعلمه كان خلاص الملك وزوجته وولده والوزراء الصالحين الذين هم أحب الخلق إليه.

فهذا باب الحلم والعقل والأدب.

باب السّنّور والجرذ

قال الملك: قد فهمت مثل من يعجّل بالأمر ولا يعمل بالتثبت، فاضرب إن رأيت مثل رجل كثر أعداؤه فأحدقوا به من كل جانب وأشفى على الهلكة فالتمس النجاة بموالاة بعض العدوّ ومصالحته فسلم مما تخوّف ووفى لمن صالحه منهم. فأخبرني عن موضع الصلح وكيف يُلتمس ذلك.

قال الفيلسوف: إن العداوة والولاء والمودة والبغض ليس كلها تثبت وتدوم. وكثير من المودة تتحول بغضاً، وكثير من البغض يتحول مودة. ولهذا حوادث وعلل وتجارب. وذو الرأي يجد لكل ما حدث من ذلك رأياً جديداً، فمن قبل العدو بالبأس وأما من قبل الصديق فبالاستئناس. فلا يمنعنّ ذا العقل عداوة كانت في نفسه لعدوه من مقاربته والتماس ما عنده إذا طمع فيه لدفع مخوف أو جرّ مرغوب. ولا يقصّر في الرأي في إحداث المواصلة والموادعة. ومن أبصر ذلك الرأي وأخذ فيه بالحزم ظفر بحاجته. ومن أمثال ذلك السنور والجرذ اللذان اصطلحا لما وقعا في ورطة شديدة فكان في ذلك صلاحهما جميعا ونجاتهما.

قال الملك: وكيف كان ذلك؟

قال بيدبا الفيلسوف: زعموا أنه كان بمكان كذا وكذا شجرة من الدوح في أصلها جحر لسنور يقال له روميّ وجحرٌ لجرذ يقال له فريدون. وكان الصيادون ربما التمسوا صيد الوحوش والطير قرب تلك الشجرة. وإن صياداً نصب حبائل له فوقع فيها الرومي وخرج الجرذ ليبتغي ما يأكل وهو مع ذلك حذر يتلفّت وينظر. فلما رأى السنور مقتنصاً في الحبال فرح. ثم التفت خلفه فأبصر ابن عرس قد تبعه وكمن له. ونظر فوقه فإذا بومة على شجرة ترصده. فخاف إن انصرف عاجلاً راجعاً أن يثب عليه ابن عرس، وإن ذهب يميناً أو شمالاً أن تختطفه البومة، وإن تقدم فالسنور أمامه. فقال: هذا بلاء قد كنفني وأشرار تظاهروا عليّ ولا مفزع إلا إلى عقلي وحيلتي فلا يكونن من شأني الدهش ولا يذهبنّ قلبي شعاعاً، فإن العاقل لا يتفرّق رأيه ولا يعزب عنه عقله على حال وإنما عقول ذوي الألباب كالبحر الذي لا يدرك غوره ولا يبلغ البلاء من ذي الرأي مجهود عقله فيهلكه ولا

ينبغي له أن يبلغ رجاؤه مبلغاً يبطره ويسكره ويغشي أمره. ثم قال: لا حيلة أقرب من التماس صلح السنور، فإن السنور قد نزل به بلاء، ولعلي أقدر على خلاصه، ولعله إن سمع مني ما أكلمه من الكلام الصحيح الصادق الذي لا خداع فيه وفهمه عني وطمع في معونتي يكون لي وله في ذلك خلاص.

ثم دنا من السنور فقال: كيف حالك؟

قال السنور: كما تحب أن تراني في الضنك والضيق.

قال الجرذ في نفسه: والله لا أكتمنّه شيئاً مما في فكري. ثم قال له: لعمري إن كنت سابقاً أسرّ بما يسوؤك وأعد كل ضيق عليك سعة لي، ولكني اليوم قد شاركتك في البلاء. فلا أرجو لنفسي خلاصاً إلا بالأمر الذي أرجو لك به الخلاص، فذلك الذي عطفني عليك، وستعرف مقالتي أنه ليس فيها كذب ولا مخادعة. قد ترى مكان ابن عرس كامناً لي، ومكان البومة تريد اختطافي وكلاهما لي ولك عدوّ وهما يخافانك ويتّقيانك. فإن أنت جعلت لي إن أنا دنوت منك أن تؤمنني فأنجو بذلك منهما، فأنا قاطع حبائلك ومخلصك مما أنت فيه. فاطمئن إلى ما ذكرت لك وثق به مني فإنه ليس أحد أبعد إلى الخير من اثنين منزلتهما واحدة وصفتهما مختلفة، أحدهما ممن لا يثق به أحد والآخر ممن لا يثق بأحد. ولك الوفاء عندي بما جعلت لك من نفسي فاقبل مني واسترسل إليّ ولا تؤخر، فإن العاقل لا يؤخر عمله. ولتطب نفسك ببقائي كما طابت نفسي ببقائك فإن كل واحد منا ينجو بصاحبه كالسفينة والركاب في البحر. فالسفينة تخرج الركاب من البحر وبهم تخرج السفينة إلى البر.

فلما سمع السنور مقالت الجرذ عرف أنه صادق وسرّه ذلك وقال للجرذ: أرى قولك شبيهاً بالحق والصدق وأنا راغب في هذا الصلح الذي أرجو به لنفسي ولك الخلاص. ثم سأشكر لك ما بقيت وأجازيك به أحسن الجزاء.

قال الجرذ: فإذا دنوت منك فلير ابن عرس والبومة ما يعرفان به صلحنا فينصرفان آئسين وأقبل على قرض حبائلك.

فلما دنا الجرذ من السنور واستبطأه هذا في قرض رباطه قال: ما لك لا تجدّ في قطع رباطي؟ فإن كنت حين ظفرت بحاجتك عدلت عما كنت عليه وتوانيت في حاجتي فليس هذا للكريم بخليق أن يتوانى في حاجة صاحبه إذا استمكن من حاجة نفسه. وقد كان لك في عاجل مودتي من النفع والاستنقاذ من الهلكة ما قد رأيت، وأنت حقيق أن تكافئني ولا تذكر عداوة كانت بيني وبينك. والكريم حقيق أن تنسيه الخلة الواحدة من الإحسان الخلال الكثيرة من الإساءة. وأعجل العقوبة عقوبة الغدر واليمين الكاذبة. ومن إذا تضرّع إليه وسُئل العفو لم يعف ولم يغفر فقد غدر.

قال الجرذ: الصديق صديقان: طائع ومضطرّ وكلاهما يلتمس المنافع ويحترس من المضار. فأما الطائع منهما فاسترسل إليه واعمل له على كل حال. وأما المضطر فإن له حالات يسترسل إليه فيها وحالات يتقى فيها فلا يزال يرتهن منه بعض حاجته ببعض ما قد يتقي ويخاف. وليس عامة التواصل والتحابّ بين الخلق إلا لالتماس عاجل النفع أو موجوه. وأنا واف لك بما وعدتك ومحترس في ذلك من أن يصيبني مثل ما ألجأني إلى صلحك. فإنّ لكل عمل حيناً وما لم يكن في حينه فلا عاقبة له، وأنا قاطع حبائلك لحينها غير أني تارك عقدة أرتهنها منك فلا أقطعها إلا في الساعة التي أعلم أنك عني فيها مشغول.

ففعل كما قال وقرض حبائل السنور. وبينما هو كذلك إذ رأى بالصياد قد أقبل من بعيد، فقال الجرذ: الآن جاء موضع الجد في قطع حبائلك. فجهد الجرذ نفسه في القرض، فما كاد ينتهي من العمل حتى وثب السنور إلى الشجرة فصعدها، وانجحر الجرذ في غفلة. فلما وصل الصياد وجد حبائله مقطوعة فانصرف خائباً.

ثم خرج الجرذ من بعد ذلك من جحره فرأى السنور من بعيد فكره أن يدنو منه فناداه السنور: أيها الصديق ذا البلاء الحسن ما يمنعك من الدنو مني لأجزيك بأحسن ما أبليتني؟ هلمّ إلي ولا تقطع إخائي فإنه من اتخذ صديقاً وأضاع صداقته حرم ثمرة الإخاء وأئس من نفعه الإخوان. وإن لك عندي اليد التي لا تنسى. فأنت جدير أن تلتمس مكافأة مني ومن أصدقائي فلا تخافنّ مني شيئاً. واعلم أن ما قبلي لك مبذول.

ثم حلف واجتهد على أن يثبت عنده صدقه بما قال فأجابه الجرذ: إنه ربّ عداوة باطنة ظاهرها صداقة وهي أشد ضررا من العداوة الظاهرة. ومن لم يحترس منها وقع موقع الرجل الذي يركب ناب الفيل ويقتله. وإنما سمي الصديق صديقاً لما يُرجى من نفعه والعدو عدواً لما يخاف من ضره. فإن العاقل إذا راجا العدوّ أظهر له

الصداقة، وإذا خاف ضرّ الصديق أظهر له العداوة. أو لا ترى تبايع البهائم إنما تتبع أمهاتها رجاءً لألبانها، فإذا انقطع ذلك انصرفت عنها. وكما أن السحاب يتهيّأ ساعة وينقطع أخرى ويقطر ساعة ويمسك أخرى، كذلك العاقل يتلوّن مع متلوّنات الأمور على اختلاف الحالات بين الإخوان والأصحاب، فينبسط مرة وينقبض أخرى، ويتجلّد مرة ويستنكر أخرى. وربما قطع الصديق عن صديق ما كان يصله به فلا يخاف شره لأن أصل أمره لم يكن عداوة. فأما من كان أصر أمره عداوة ثم أحدث صداقة لحاجة حملته على ذلك فإنه إذا ذهب الأمر الذي أحدث ذلك صار إلى أصل أمره كالماء الذي يسخّن بالنار، فإذا رفع عنها عاد بارداً. ولا عدوّ أضر لي من عداوة مثلك بعد أن كان بيننا من الود والصفاء ما قد كان، وبعد ائتلافنا واسترسال بعضنا إلى بعض. وقد اضطرّني وإياك حاجة أجدت كل واحد منا إلى صاحبه ما أجدتنا من المصالحة. فقد ذهب الامر الذي احتجت إليّ فيه واحتجت إليك فيه فأخاف مع ذهابه عود العداوة. ولا خير للضعيف في قرب العدو القوي ولا للذليل في قرب العدو العزيز، ولا أعلم لك حاجة إليّ إلا أن تريد أكلي ولا أرى لك الثقة بي. فإني قد علمت أن العدو الضعيف أقرب إلى أن يسلم من العدو القوي إذا احترس منه ولم يغترر به من القويّ إذا اغترّ بالعدو الضعيف واسترسل إليه. والعاقل يصانع عدوّه إذا اضطرّ إليه ويظهر له ودّه ويريد من نفسه الاسترسال إليه، إذا لم يجد من ذلك بداً، ويعجّل الانصراف عنه إذا وجد إلى ذلك سبيلاً. واعلم أن صريع الاسترسال لا يكاد تستقيل صرعته والعاقل يفي لمن صالح بما جعل له ولا يثق لنفسه بمثل ذلك من أحد ولا يؤثر على البعد من عدوه ما استطاع. فالبعد لك من الصياد والبعد لي منك أحزم الرأي. وأنا أودك من بعيد وعليك أن تجزيني بمثل ذلك إن رأيت ولا سبيل إلى اجتماعنا.

فهذا باب مبصر فرصته في مصالحة عدوّه والأخذ بالاحتراس منه.

باب الملك والطير فنزة

قال الملك للفيلسوف: قد سمعت مثل الرجل يحيط به أعداؤه فيستظهر من بعضهم ويصالحه حتى يتخلص بذلك مما يخاف ويسلم. فاضرب لي إن رأيت مثل أهل التراث الذين ينبغي لبعضهم أن يتقي بعضاً.

قال الفيلسوف: زعموا أن ملكاً من الملوك يقال له برهمون كان له طائر يقال له فنزة وكان ناطقاً كيّساً وكان معه فرخ له. فأمر الملك بفنزة وفرخه أن يجعلا بمكان عند امرأته سيدة نسائه وأوصاها بهما. واتفق أن امرأته ولدت غلاماً فألف الفرخ الغلام فجعلا يلعبان جميعاً ويطعمان جميعاً. وكان فنزة يذهب كل يوم إلى الجبل فيجيء بثمرين من الفاكهة فيطعم أحدهما فرخه والآخر ابن الملك. فأثر ذلك في نموتهما وقوتهما حتى استبان ذلك للملك فزادت عنده كرامة فنزة، حتى إذا كان ذات يوم وفنزة غائب في اجتناء الثمر وثب فرخه من حجر الغلام طائراً فارتاع الغلام من ذلك وغضب فأخذ الفرخ وضرب به الأرض فقتله. فلما جاء فنزة ورأى فرخه مقتولاً حزن وصاح وقال: "ترحاً للملوك الذين لا عهد لهم ولا وفاء. وويل لمن ابتلي بصحبة الملوك الذين لا حميم لهم ولا رحيم ولا يحبون أحداً. ولا يكرم عليهم إلا من قضوا منه حاجتهم فلا ودّ ولا إخاء. ولا البلاء الحسن مجازًى عندهم ولا الذنب مغفور. وليس أمرهم إلا الفخر والرياء والسمعة. وكأنّ عظيماً من الذنوب يركبونه هو عندهم صغير وعليهم هين. وإني لأنتقمنّ اليوم من الكفور الذي لا رحمة له، الغادر بإلفه وتربه وصاحبه وملاعبه ومؤاكله". ثم وثب في وجه الغلام ففقأ عينه بمخلبه، ثم طار إلى مكان مشرف حزيناً.

فبلغ ذلك الملك فجزع أشد الجزع ثم طمع أن يحتال لفنزة فيظفر به. فركب إليه ووقف عليه وناداه باسمه وقال: أنت آمن فأقبل. فأبى ذلك فنزة وقال: أيها الملك، إن الغادر مأخوذ بغدره وإن أخطأه عاجل العقوبة في الدنيا لم يخطئه آجلها، حتى إن عقوبة ذلك لتدرك الأعقاب وأعقاب الأعقاب وإن ابنك غدر فعجّلت له العقوبة.

قال الملك: لقد فعلنا ذلك بك لعمري فانتقمت منا فليس لك قبلنا ولا لنا قبلك وتر فارجع إلينا آمناً.

قال فنزة: لست أرجع إليك، فإن ذوي الرأي قد نهوا عن قرب الموتور وقالوا: "لا تجد للموتور الحقود أماناً أوثق من الذعر والبعد والاحتراس منه". وكان يقال: "إن العاقل إنما يعدّ أبويه من الأصدقاء ويعدّ الأخوة رفقاء والأزواج ألافاً والبنين ذكراً والبنات خصمات والأقارب غرماء، ويعد نفسه فرداً وحيداً". فأنا الفريد الوحيد تزودت عندكم من الحزن عبئاً ثقيلاً لا يحمله معي أحد. فأنا ذاهب فعليك السلام.

قال الملك: إنك لو لم تكن اجترأت بما صنعنا بك أو لو كان صنيعك بنا غير ابتداء منا بالغدر كان الأمر كما ذكرت. فأما إذا كنا نحن بدأنا فما ذنبك وما الذي يمنعك من الثقة بنا؟ فارجع فإنك آمن.

قال فنزة: إن للأحقاد في القلوب مواقع موجعة منكية. والألسن تصدق عن القلوب، والقلب أعدل على القلب شهادة من اللسان. وقد علمت أن قلبي لا يشهد للسانك ولا قلبك للساني.

قال الملك: ألست تعلم أن الضغائن والأحقاد تكون بين كثير من الناس؟ فمن كان له عقل كان على إماتة الحقد فيه أحرص منه على تربيته.

قال فنزة: إن ذلك لكما ذكرت وليس ذو الرأي عن ذلك بحقيق أن يظن، بالمحقود الموتور، إنه ناس ما وتر به ومنصرف عنه، وذو الرأي يتخوف الحبائل والخداع ويعلم أن كثيراً من الأعداء لا يناصب بالشدة والمكابرة حتى يصاد بالرفق والملاينة كما يصاد الفيل الوحشي بالفيل الداريّ.

قال الملك: إن الكريم لا يترك إلفه ولا يقطع إخوانه ولا يضيع الحفاظ وإن هو خاف على نفسه. إن هذا الخلق ليكون في أوضع الدوابّ منزلة. قد عرفنا أن ناساً يذبحون الكلاب فيأكلونها، فربما نظروا إلى كلب قد ألفهم فيمنعه ألافه إياهم أن يفتكوا به.

قال فنزة: إن الأحقاد مخوفة حيثما كانت وأخوفها وأشدها ما كان في أنفس الملوك. وإن الملوك يدينون بالانتقام ويرون الطلب بالوتر مكرمة وفخراً، ولا ينبغي للعاقل أن يغترّ بسكون الحقد. فإنما مثل الحقد في القلب ما لم يجد متحرّكاً مثل الجمر المكنون ما لم يجد حطباً. ولا يزال الحقد يتطلّع إلى العلل كما تبغي النار الحطب. فإذا وجد علله استعار النار فلا يطفئه ماء ولا كلام ولا لين ولا رفق ولا خضوع ولا تضرّع ولا شيء دون الأنفس، مع أنه ربّ واترٍ يطمع في مراجعة الموتور لما يرجو أن يقدر عليه من النفع له والدفع عنه، ولكني أضعف من أن أقدر على أن أزيل ما في نفسك. ولو كانت نفسك لي على ما تقول كان ذلك عليّ متغيّباً لأني لا أزال في خوف وسوء ظنّ ما اصطحبنا. فليس الرأي إلا الفراق وأنا أقرأ السلام عليك.

قال الملك: لقد علمت أنه ليس يستطيع أحد لأحد ضراً ولا نفعاً. فإنه لا شيء من الأشياء صغير ولا كبير يصيب أحداً إلا بقدر مقدور. وكما أن خلق ما يخلق ويولد وبقاء ما يبقى ليس إلى الخلائق منه شيء، كذلك فناء ما يفنى وهلاك ما يهلك. فليس لك فيما صنعت بابني ولا لابني في إهلاك فرخك ذنب إنما كان ذلك قدراً مقدوراً وكنا له علالاً. فلا تؤاخذنا بما أتاك به القدر.

قال فنزة: إن في القدر ما ذكرت ولكنّ ذلك لا يمنع الحازم في توقي المخوف والاحتراس من المحترس منه، ولكنه يجمع تصديقاً بالقدر وأخذاً بالقوة والحزم. وأنا أعلم أنك تحدّثني بغير ما في نفسك. والأمر فيما بيني وبينك أن ابنك قتل فرخي ففقأت عين ابنك. فأنت الآن تريد لي القتل وتحاولني عن نفسي والنفس تأبى الموت. وكان يقال: الفاقة بلاء والحزن بلاء وفراق الأحبة بلاء والسقم بلاء والعدم بلاء، ورأس البلاء بلاء الموت، وليس أحد أعلم بما في نفس الموجع الحرّان ممن قد ذاق مثل ما به. وأنا بما في نفسك من أمري عالم للمثال الذي عندي من ذلك، فلا خير لي في صحبتك. فإنك لن تذكر صنيعي بابنك ولن أذكر صنيع ابنك بفرخي إلا أحدث ذلك لقلوبنا وغراً.

قال الملك: إنه لا خير لمن لا يستطيع الإعراض عما في نفسه فيتناساه ويميته حتى لا يذكر منه شيئاً ولا يكون له في نفسه موقع.

قال فنزة: إن الرجل الذي في باطن قدمه قرحة إن هو حرص على خفة المشي فلا بد أن ينكأها. والرجل الرمد إن استقبل الريح فقد تعرّض لإنكاء عينه. وكذلك الموتور إذا دنا من عدوه فقد عرّض قرحته لإنكائها. ولا يستطيع صاحب الدنيا توقي المتالف وتقدير الأمور والاتكال على القوة والحيلة وقلة الاغترار بما لا يأمن منه. فإنه من اتكل على قوته حمله ذلك على أن يسلك الطريق المخوف فقد سعى في حتف نفسه. ومن لا يقدر على طعامه وشرابه فحمل على نفسه ما لا يحمل ولا يطيق فربما قتل نفسه. ومن لا يقدر لقمة فيعظمها أول ما يسيغ يغصّ بها فيموت. ومن اغترّ بكلام غيره وضيّع الحذر فهو أعدى العدو لنفسه. وليس على الرجل النظر في القدر الذي لا يدرى ما يأتيه منه وما يصرف عنه ولكن عليه العمل بالحزم والأخذ بالقوة في أمره ومحاسبة نفسه في ذلك. والعاقل لا يخيف أحداً ما استطاع ولا يقيم على الخوف وهو يجد مذهباً. وأنا كثير المذاهب أرجو ألاّ أتوجه وجهاً إلا وجدت فيه ما يغنيني. فإن خلالاً خمساً من تزوّدها بلّغنه كل وجه وقرّبن له البعيد وآنسن له الغربة وكسّبنه المعيشة والإخوان: كفّ الأذى وحسن الأدب ومجانبة الريبة وكرم الخلق والنبل في العمل. فإذا خاف العاقل على نفسه طابت نفسه عن الأهل والولد والوطن والمال. فإنه يرجو من ذلك كله خلفاً ولا يرجو من النفس خلفاً. وشرّ المال ما لا ينفق منه، وشر الأزواج التي لا تؤاتي البعل، وشر الولد العاصي، وشر الإخوان

الخاذل، وشر الملوك الذي يخافه البريء، وشر البلاد بلاد ليس فيها أمن، وأنت لا أمن لي معك ولا طمأنينة لنفسي في جوارك. ثم ودّع الملك وطار.

فهذا مثل الترات وما يوجب على أهلها حذر بعضهم من بعض.

باب الأسد والشعهر الصوّام

قال الملك للفيلسوف: قد فهم مثل أهل الترات وحذر بعضهم بعضاً فاضرب لي إن رأيت مثل الملوك فيما بينهم وبين قرائبهم، وفي مراجعة من تراجع منهم بعد عقوبة أو جفوة تكون عن ذنب يذنبه أو ظلم يظلمه.

قال الفيلسوف: إن الملك إذا لم يراجع من أصابته جفوة أو عقوبة عن جرم اجترمه أو ظلم ظلمه أضرّ ذلك بالأمور والأعمال. وكان الملك حقيقاً بالنظر في حال من ابتلي بشيء من ذلك ويبلو ما عنده من العناء والذي يرجو منه النفع. فإن كان ممن يستعان به ويوثق برأيه وأمانته كان الملك حقيقاً بالحرص على مراجعته. فإن الملك لا يستطاع إلا بالوزراء والأعوان. ولا ينتفع بالوزراء والأعوان إلا بالمودة والنصيحة. ولا تصلح النصيحة والمودة إلا مع إصابة الرأي والعفاف الكثير. ومن يحتاج إليهم من العمال والأعمال كثير. ومن يجمع منهم الذي ذكرت من النصيحة وإصابة الرأي قليل. وإنما التمسك بالوجه الذي به يستقيم العمل أن يكون الملك عالماً من يريد الاستعانة به وما عند كل رجل منهم من الغناء والرأي، وما فيه من العيوب. فإذا استقر ذلك عنده من علمه أو علم من يؤتمن به وعمل ما يستقيم به وجّه لكل عمل من قد عرف أنّ عنده من الأمانة والنجدة والرأي ما يستقل بذلك، وإن الذي فيه من العيب لا يضرّ بذلك العمل. ويتحفّظ من أن يوجه عيوبه وعاقبة ما يكره منه. ثم على الملك بعد ذلك ألا يترك تعاهد عمّاله والتفقد لهم ولأمورهم حتى لا يخفى عليه إحسان محسن ولا إساءة مسيء. ثم عليهم بعد ذلك ألا يتركوا محسناً بغير جزاء ولا يقروا مسيئاً ولا عاجزاً على العجز والإساءة، فإنهم إن صنعوا ذلك تهاون المحسن وجترأ المسيء ففسد الأمر وضاع العمل. ومثل ذلك مثل الأسد والشعهر وهو ابن آوى.

قال الملك: وكيف كان ذلك؟

قال الفيلسوف: زعموا أنه كان بأرض كذا وكذا ابن آوى وكان متألّهاً متعففاً في بنات آوى وثعالب وذئاب. ولم يكن يصنع ما يصنعن ولا يغير كما يغرن ولا يريق دماً ولا يأكل لحماً. فخاصمته تلك السباع وقلن: لا نرضى بسيرتك ولا رأيك الذي أنت عليه من تألهك مع أن تألهك لا يغني شيئاً. وأنت لا تستطيع أن تكون أحدنا فتسعى معنا وتفعل فعلنا. فما الذي يمسك كفك عن الدماء واللحم؟

قال ابن آوى: إن صحبتي إياكم لا تؤثمني إذا لم أؤثم نفسي لأن الآثام ليست من قبل الأماكن والأصحاب، ولكنها من قبل القلوب والأعمال. ولو كان صاحب المكان الصالح يكون عمله فيه صالحاً وصاحب المكان السوء يكون عمله فيه سيئاً، إذاً كان من قتل الناسك في محرابه لم يأثم ومن استحياه في معركة القتال أثم. أترونني إن صحبتكم بنفسي لم يصحبكم مني قلب ولا عمل لأني أعرف ثمرة الأعمال.

فما عاش ابن آوى على حالته تلك وشهر النسك والنبالة في الرأي حتى بلغ ذلك الأسد، وكان ملك السباع بتلك الناحية. فرغب فيه للذي بلغه عنه من العفاف والصدق والأمانة. فأرسل إليه فكلّمه وفحصه ثم دعاه بعد أيام إلى صحبته، وقال: إن ملكي عظيم وأعمالي كثيرة وأنا إلى الأعوان محتاج، وقد بلغني عنك عقل وعفاف. ثم قدمت عليّ فازددت فيك رغبة، وأنا موليك من عملي جسيماً ورافع منزلتك إلى منزلة الأشراف وجاعل لك مني خاصة.

قال ابن آوى: إن الملوك أحقاء باختيار الاعوان لما يهتمون به من أعمالهم وأمورهم من غير أن يكرهوا على ذلك أحدا، لأن المكره لا يستطيع المبالغة في العمل. وأنا لعمل السلطان كاره وليست لي به تجربة ولا بالسلطان رفق. وأنت ملك السباع عندك من أجناس السباع عدد كثير، وفيهم أهل نبل وقوة وبهم على العمل حرص ولهم به رفق، فإن استعملتهم أغنوا عنك واغتبطوا لأنفسهم بما أصابوا من ذلك.

قال الأسد: دع عنك هذه المقالة، فإني غير معفيك من العمل.

قال ابن آوى: إنما يستطيع صحبة السلطان رجلان: أحدهما فاجر مصانع ينال حاجته ويسلم بمصانعته، والآخر رجل مهين مغفل لا يحسده أحد. فأما من أراد صحبة السلطان بالصحة والنصيحة والعفاف، ثم لا يخلط ذلك بمصانعة، فقلّ ما يسلم بصحته لأنه يجمع له عدو السلطان وصديقه بالعداوة والحسد. فأما الصديق فينافسه في منزلته ويبغي عليه فيها ويعاديه لها. وأما عدوّ السلطان فيضطغن عليه بنصيحته لسلطانه وإغنائه عنه. فإذا اجتمع عليه هذا الصفان تعرّض للهلاك.

قال الملك: لا يكونن بغي أصحابي عليك وحسدهم إياك وعداوة أعدائي لك مما يعرض في قلبك، فإني كافيك وبالغ بك في الكرامة والإحسان بهمتك.

قال ابن آوى: إن كان الملك يريد بي الإحسان والكرامة فليتركني أعيش في هذه البرية آمناً راضياً بعيشتي من الماء والحشيش. وقد علمت أن صاحب السلطان يصل إليه في ساعة واحدة من الأذى والخوف ما لا يصل إلى غيره طول عمره. وإن قليل العيش في أمر وطمأنينة خير من كثيره في خوف ونصب.

قال الأسد: قد سمعت مقالتك فلا تخافنّ شيئاص مما أراك تتخوفه. فلا بد من الاستعانة بك.

قال ابن آوى: أما إذا أبى الملك أن يعفيني فليجعل لي عهداً إن بغى علي أحد من أصحابه ممن هو فوقي خوفاً على منزلته، أو ممن هو دوني فنازعني منزلتي وذاكر الملك بلسانه أو لسان غيره مما يريد به تحميل الملك عليّ ألاّ يعجّل عليّ ويتثبّت فيما يرفع إليه من ذلك، ويفحص عنه ثم يقضي الملك فيما بدا له. فإني إذا وثقت بذلك من الملك أعنته بنفسي وعملت له فيما ولأني بنصيحة واجتهاد وحرصت على أن لا أجعل على نفسي سبيلاً.

قال الأسد: إن ذلك لك علي. فولاّه خزائنه واختصّه دون أصحابه في المشاورة والرأي في المنزلة وازداد به على الأيام عجباً وزاده كرامة وعملاً. فثقل ذلك على من يطيف بالأسد من قرائبه وأصحابه وعمّاله وعادوه وحسدوه وائتمروا به ليهلكوه. فلما أجمعوا على ذلك لكيدهم دسّوا ذات يوم للحم كان الأسد استطرفه واستطابه فأمر برفعه في موضع طعامه ليعاد عليه فسرقوه ثم أرسلوا به إلى بيت ابن آوى فخبأوه مخبّأ لا يطّلع عليه أحد. فلما كان من الغد ودعا الأسد بغدائه التمس ذلك اللحم فلم يجده وابن آوى غائب والقوم الذي أرادوا المكر به والمكيدة حضور. فألحّ الأسد في طلب اللحم حتى غضب. فنظر بعضهم إلى بعض، فقال أحدهم قول المخبر الناصح: إنه لا بد لنا من أن نخبر الملك بعلمنا فيما يضره وينفعه وإن شقّ ذلك عليه. إنه بلغني أن ابن آوى كان ذهب بذلك اللحم إلى منزله.

قال آخر: أراه شبيهاً أن يكون فعل هذا، ولكن انظروا وافحصوا فإن معرفة الخلائق شديدة.

قال آخر: لعمري ما تكاد السرائر يطّلع عليها أحد ولعلكم إن فحصتم وجدتم ذلك وثبت عندنا كل شيء كان يذكر لنا من عيوبه وخيانته، ونحن أحقاء أن نخذله ونقضي بكل ما كان يقال عنه.

قال آخر: ما ينبغي لأحد أن يغترّ بما يعلم في نفسه من المختالة. فإن المختالة لا يسلم صاحبها ولا تخفى له.

قال آخر: وكيف يسلم من خاتل السلطان أو كيف يخفي ذلك، ومخاتلة الأصحاب لا تكاد تخفى؟

قال آخر: لقد أخبرني مخبرٌ عن ابن آوى بأمر عظيم مما وقع في نفسي حتى سمعت كلامكم.

قال آخر: لكني لم يخف عليّ أمره وخبّه أول ما رأيته وقد قلت مراراً واستشهدت فلاناً أن هذا المخادع المتخشّع لا يسلم من الحيلة والخيانة.

قال آخر: لئن وجد هذا حقاً ما هي الخيانة فقط بل مع الخيانة كفر النعمة والجرأة على الذنوب.

قال آخر: أنت أهل العدل والفضل ولا أستطيع أن أكذبكم، ولكن سيتبين صدق هذا وكذبه لو أرسل الملك إلى بيت ابن آوى ففتشه.

قال آخر: إن وجب تفتيش منزله فالعجل العجل. فإن عيونه وجواسيسه مبثوثة بكل مكان.

قال آخر: إني قد علمت بأن ابن آوى لو فتش منزله واطلع على خيانته سيحتال بحيلته ومكره حتى يشبه على الملك فيعذره ويكفّ عنه.

فلم يزالوا بهذا الكلام وأشباهه حتى أوقعوا ذلك في نفس الأسد بالأتهام لابن آوى فدعاه فقال له: ما صنعت باللحم الذي أمرتك بالاحتفاظ به؟

فقال: دفعته إلى صاحب الطعام فلان ليقرّبه إلى الملك.

فدعا الملك صاحب الطعام وكان ممن شايع القوم، فسأله الملك عن اللحم فقال: ما دفع إليّ شيئاً.

فأرسل الملك أمناءه ليفتشوا منزل ابن آوى فوجدوا فيه اللحم فأتوه به. فدنا من الأسد ذئب لم يتكلم في شيء من تلك الأمور، وكان يظهر أنه من أهل العد ل والذين لم يتكلموا إلا فيما استبان لهم أنه حق فقال للأسد: إذا اطلع الملك على خيانة ابن آوى فلا يعفونّ عنه، فإنه إن عفا عنه لم يعد أحد يطلع الملك على خيانة خائن أو ذنب مذنب.

فأمر الأسد بابن آوى أن يخرج من عنده ويحتفظ به حتى يرى رأيه فيه.

قال عند ذلك بعض جلساء الأسد: إني لأعجب من رأي الأسد ومعرفته بالأمور وكيف خفي عليه أمر هذا فلم يعرف خبثه ومخادعته.

قال آخر: بل أعجب من هذا أني لا أراه إلا بتنصّل عنه بعد الذي ظهر عليه منه.

ثم إن الأسد أرسل بعضهم إلى ابن آوى يسأله عن عذره فرجع إليه من ابن آوى برسالة كاذبة غضب منها الأسد فأمر بابن آوى أن يقتل.

فبلغ ذلك أم الأسد فعرفت أن الأسد قد عجّل في أمره فأرسلت إلى الذين أمروا بقتله أن يؤخروه ودخلت على ابنها فقالت: لأي ذنب أمرت بابن آوى أن يقتل؟

فأخبرها الأسد بالأمر.

قالت: "عجّلت يا بني وإنما يسلم العاقل من الندامة بترك العجلة وبالأخذ بالأناة. وليس أحد أحوج إلى التؤدة والتثبيت من الملوك. فإن المرأة بزوجها والولد بالوالدين والمتعلم بالمعلم والجند بالقائد والناسك بالدين والعامة بالملوك والملوك بالتقوى والتقوى بالعقل والعقل بالتثبيت. ورأس الحزم للملك معرف أصحابه وإنزاله إياهم منزلتهم واتهام ببعضهم ببعض. فإنه إن وجد بعضهم إلى هلاك صاحبه سبيلاً وإلى تهجين بلاء المبلين وإحسان المحسنين والتغطية على إساءة المسيئين لم يدعوا ذلك ويؤثر ذلك سريعاً في ضياع الأمر وانتشاره وجلب عظيم الضرر والعيب.

"وقد كنت بلوت ابن آوى واختبرت أدبه ومروءته قبل استعانتك به وتفويضك إليه، فلم تزل عنه راضياً ولا تزداد على مر الأيام إلا استصلاحاً وإليه استرسالاً وفيه رغبة. فأمرت بقتله في طابق من لحم فقدته. عسى أصحابه أن يكونوا قد ألزموه عندك ذنباً باطلاً لحسدهم وتعاونهم عليه.

"فاعلم أن الملوك إذا وكلوا إلى غيرهم ما ينبغي مباشرته من أمورهم والزموا أنفسهم مباشرة ما ينبغي لهم تفويضه إلى الكفاة ضاعت أمورهم ودعوا الفساد إلى أنفسهم. إن الملوك يحتاجون إلى النظر في وجوه شتى من الأمور، فإذا آثروا بعض تلك الوجوه على بعض لم يأمنوا خطأ البصر وزلل الرأي، كصاحب الخمر الذي إذا أراد أن يشتريها احتاج إلى اختيار لونها وريحها. فإن هو أهمل الاختيار أو بعض ذلك لم يأمن الغبن والخسران. وكاليراعة يراها الجاهل في ظلمة فيقضي عليها بالمعاينة قبل أن يلمسها أنها نار، فإذا لمسها تبين له خطأ قضائه. وكنت حقيقاً أن تنظر في أمر ابن آوى نظر تثبيت فتعلم أنه لم يكن يأكل اللحم الذي كنت ربما أمرت له بالكثير منه بل يجلعه في طعامك وطعام جندك، وأنه ليس خليقاً لسرقة قليل من اللحم أمرته بالاحتفاظ به. فافحص عن أمره فإنه لم تزل عادة الأرذال والأنذال حسد أهل المودة والفضل والأذى لهم والاشتغال بهم.

ولابن آوى مروءة وفضل فعسى أعداؤه من أصحابك أن يكونوا ائتمروا لوضع ذلك اللحم إذا أصابت البضعة من اللحم نافسها كثير من الطير. والكلب إذا أصاب العظم وأخذه في فيه اجتمعت عليه عدة من الكلاب. فإذا لم تنظر إلى أعداء ابن آوى من أصحابك فانظر لنفسك ولا تنقادنّ لهم فيما تدعو به الضرر إلى نفسك. فإن أعظم الأشياء على الناس عامة والولاة خاصة أمران: أن يحرموا صالح الأعوان والوزراء والأخوان، وأن يكون وزراؤهم وأخوانهم غير ذوي مروءة ولا غناء. ولم يزل غناء ابن آوى عنك عظيما يؤثر منفعتك على هواه ويشتري راحتك بمصلحته ورضاك بسخط الأصحاب ولا يكتمك سراً ولا يطوي عنك أمراً ولا يرى شيئاً إلا احتمله منك أو بذله وإن عظم عظماً كبيراً. فمن كان من الأصحاب هذه صفته فإنما منزلته منزلة الآباء والأبناء والإخوان".

فبينما أم الأسد في كلامها إذ دخل على الملك بعض ثقاته فأطلع الأسد على براءة ابن آوى. فلما علمت أم الأسد أن الأسد قد وقف على براءة ابن آوى قالت: "أما وقد اطلعت على جرأة أصحابك وتعاونهم عليه فلا ترضينّ بذلك منهم ولا تدعنّ تشتيت ذات بينهم حتى تقطع منك الشفة عليهم. فلا يتخذوك مركباً فتعوّدهم الاحتمال على ضرك بوشهيم. ولا تغترّنّ بسلطانك فيدعوك ذلك إلى استصغارهم والتهاون بأمرهم. فإن الحشيش الضعيف إذا جمع فقتل صار منه الحبل القوي الذي يوثق به الفيل الشديد.

"وأعد لابن آوى منزلته وخاصته ولا يؤيسنّك من مناصته ما فرط إليه منك من الإساءة. فإنه ليس كل من أساء ينبغي له أن يتخوف غشّ من أسيء إليه وعداوته وييأس من نصيحته ومودته. ولكن ينبغي أن ينزل الناس في ذلك منازلهم على اختلاف ما بينهم. فإن منهم من إذا ظفر بقطيعته كان الرأي أن تقطع صلته ويمتنع عن معاودته، ومنه من لا ينبغي تركه وقطيعته على حال من الأحوال. ومن عرف بالشرارة ولؤم العهد وقلة الوفاء والشكر والبعد من الورع وقلة الاحتمال للأصحاب والإخوان وإن لم يكن عليه منهم مؤونة، فهذا حقيق أن تغتنم قطيعته ويمنع من وصله. ومن لم يكن فيه شيء من هذه الخلال وبذل الإخوانم معروفة واحتمل مكروهاً إن كان منهم ومؤونتهم وإن ثقلت، وعرف فضله على غيره في الورع والمساعدة على الدهر في جميع الأمور والحالات، فهذا حقيق أن يغتنم وصله ويمتنع من قطيعته".

فدعا الأسد بابن آوى واعتذر إليه مما كان منه وأخبره أنه معيده إلى منزلته وولايته. فقال ابن آوى: "إن شرّ الأخلاء من التمس منفعة نفسه بضر أخيه ومن كان غير ناظر له كنظره لنفسه أو كان يريد أن يرضيه بغير الحق واتباع هواه. وكثيراً ما يقع ذلك بين الأخلاء وقد كان من الملك إليّ ما علم فلا يغلظنّ على نفسه ما أخبره به أني به غير واثق. فإن من كان قد أصيب بعظيم من البلاء غير مستوجب له أو كان قد أزيل عن مرتبته وولايته أو كان قد سلب ماله ظلماً أو كان مقرّباً فأقصي من غير علة أو كان قد استحق من نظرائه ثواباً فأثيبوا دونه وفضّلوا عليه، أو كان معروفاً بإفراط الحرص والشره أو كان يرى في منفعة السلطان ضراً أو في ضره له نفعا، كل هؤلاء يحق على السلطان ألا يسترسل إليه ويثق بهم، لأن كل هؤلاء حقيق أن يكونوا عليه مع عدوه. وقد صرت اليوم في بادئ الرأي عرضاً لأعداء الملك وليس ما أنا عليه للملك من المودة والنصيحة بمناع الملك اتهامي وسوء الظن بي. وليس ما ظهر له من مودتي ونصيحتي يؤمّنني من عودة أعدائي بحمل الملك عليّ بالباطل والكذب إشفاقاً من مكافأتي لهم وحرصاً عليّ ألا يتقرر عند الملك كذبهم فيما حملوا به علي. فإن فعلوا ذلك لم يحتاجوا في قبول الملك ذلك منهم إلى عون أقوى من هذه التهمة التي قد وقعت في نفس الملك من تخوّفه لصحبتي وسوء ظنه بي وسرعته إلى تصديق أعدائي فيما نسبوه إلي. فإذا كان حال الملك بالثقة بي وحالي في الثقة به على ما وصف فلينظر أي وجه يريدني عليه من صحبته. فإن الملوك لا ينبغي لهم أن يصحبوا من عاقبوه أشدّ العقاب".

قال الأسد: إني قد بلوت طبائعك وأخلاقك، فمنزلتك في نفسي منزلة الكرماء الأخيار. والكريم تنسيه الخلة الواحدة من الإحسان ألف خلة من الإساءة، واللئيم تنسيه خلة واحدة من الإساءة ألف خلة من الإحسان. فأنا واثق بك أنه سينسيك ما سلف من إحساننا إليك الذي فرط منا في أمرك وقد عدنا إلى الثقة بك فعد إلى الثقة بنا وبما قبلنا فإنه لك في ذل غبطة وسرور.

فعاد ابن آوى إلى ولاية ما كان يليه من أمر الأسد فلم تزل الأيام تزيده ارتفاعاً واغتباطاً حتى هلك.

فهذا باب وزراء السلطان وأعوانه وقرائبه.

باب السائح والصائغ والقرد والببر والحية

قال الملك للفيلسوف: قد سمعت ما ذكرت من أمر الملوك فيما بينهم وبين قرابتهم وفي مراجعتهم من تراجع منهم فأخبرني عن الملك إلى من ينبغي له أن يصنع المعروف ومن يحق له أن يثق به ويرجو عونه.

قال الفيلسوف: إن الملك وغيره جدر أن يؤدوا الخير إلى أهله وأن يؤمّلوا من كان عنده شكر وحمد ولا ينظروا إلى قرابتهم وأهل خاصتهم ولا إلى أشراف الناس وأغنيائهم وذوي القوة منهم، ولا يمتنعوا أن يصطنعوا إلى أهل الضعف والجهد والضعة. وإن الرأي في ذلك أن يجربوا ويختبروا أصاغر الناس وعظماءهم في شكرهم أو قلة شكرهم وفي حفظهم الود أو غدرهم. ثم يكون عملهم في ذلك على قدر الذي يرون أو يبدو لهم. فإن الطبيب الرفيق لا يداوي المرضى بالمعاينة لهم فقط ولكنه ينظر إلى فضول البدن ويجسّ العرق ثم يكون العلاج على نحو المعرفة وقدرها. ويحق على المرء اللبيت إن وجد قوماً ذوي مهابة لهم وفاء وشكر من البهائم ما كان مألوفاً أنيساً أن يحسن فيما بينه وبينهم، ولعله يحتاج إليهم يوماً من الدهر فيكافئوه. فإن العاقل ربما حذر الناس ولم يأمن على نفسه أحدا منهم، وربما أخذ ابن عرس فأدخله كنّه والطير فوضعه على يده. وقد قيل: لا ينبغي لذي العقل أن يحتقر كبيراً ولا صغيرا من الناس ولا من البهائم، ولكنه جدير بأن يتولاهم ويكون ما يصنع إليهم على قدر الذي يرى منهم. وقد مضى في ذلك مثل ضربه بعض الحكماء.

قال الملك: وكيف كان ذلك؟

قال الفيلسوف: ذكروا أن ناساً انطلقوا إلى مغارة فحفروا فيها ركيّة للسباع فوقع فيها رجل صائغ وببر وحي وقرد، فلم تتعرض البهائم لذلك الرجل بشيء. فمر رجل سائح بالبئر فاطلع فيها فلما رآهم فكّر في نفسه وقال: ما أراني مقدماً عملاً لآخرتي أفضل من أن أخلص الإنسان من بين هؤلاء الأعداء. فأخذ رسناً فأدلاه إليه فتعلق به القرد لخفته فأصعده. ثم أعاده الثانية فتشبث به الببر فأخرجه. ثم كرّه الثالثة فالتوت به الحية فاستنقذها. فشكرن له صنيعه وقلن: لا تخرج هذا الرجل فتخلصه من الركية فإنه ليس حيّ أقل شكراً من الإنسان. ثم قال له القرد: إن وطني بجانب مدينة يقال لها برجوان. وقال الببر أيضا: أنا في أجمة إلى جانبها. وقالت الحية: وأنا أيضاً في سورها فإن أتيتها يوماً من الدهر أو ممرت بنا فاحتجت إلينا فنوّه بنا حتى نأتيك ونجازيك بما أوليتنا وأحسنت إلينا.

ثم إن السائح أدلى الحبل إلى الرجل الصوّاغ ولم يلتفت إلى ما ذكر له القرد والببر والحية من قلة شكره، فاستخرجه فأثنى عليه وسجد له وقال: إنك أوليتني معروفاً جسيماً أنا حقيق بفعله، فإن قضي لك أن تأتي مدينة برجوان فسل عني بها لعلي أجازيك ببعض ما كان من الجميل علي.

ومضى كل واحد منهم لوجهه. فمكث السائح حينا، ثم عرضت له حاجة نحو المدينة فسار إليها فلقيه القرد فسجد له ثم قبّل يده ورجله واعتذر إليه وقال: إني لا أملك شيئاً ولكن اطمئن ساعة حتى آتيك ببعض ما نصيب منه. ثم انطلق فلم يلبث أن جاء بفاكهة طيبة فوضعها قدامه وحياه.
ثم توجه السائح نحو المدينة فلقي الببر فسجد له وحياه وقال: لقد أوليتني معروفاً جسيماً كبيراً فلا تبرح حتى أرجع. فلم يستبطئه حتى ذهب إلى ابنة الملك فقتلها وأخذ حليها ثم أتاه فدفعه له من غير أن يعلمه من أين هو.

فقال السائح في نفسه: هذه البهائم قد أولتني هذا وصنعته بي فكيف لو انتهيت إلى الصواغ فإنه إن كان معسراً لا شيء عند سيبيع لي هذا الحلي بثمنه فيعطيني بعضه ويأخذ بعضه.

ثم إن السائح دخل المدينة فأتى منزل الصائغ فرحّب به وأدخله بيته، فلما أبصر بالحلي معه عرفه فقال: اطمئن حتى آتيك بطعام تأكله فإني لست أرضى لك بما في البيت.

فانطلق الصواغ حتى أتى باب الملك فأرسل إلى الملك برسالة "أن الرجل الذي قتل ابنتك وأخذ حليها قد أخذته وهو عندي محبوس".

فأرسل الملك إلى السائح فأخذه. فلما رأى الحلي معه أمر به أن يعذّب ويطاف به في المدينة ثم يصلب. فلما وقع ذلك به وطيف بالمدينة جعل يبكي ويقول بأعلى صوته: لو أني أطلعت القرد والحية والببر فيما أمروني به لم يصيبني هذا البلاء.

فسمعت الحية هذه المقالة وخرجت للحال من جحرها. فلما أبصرته اشتد عليها أمره وفكرت في الاحتيال لخلاصه فانطلقت إلى ابن الملك فلدغته في رجله. فبلغ ذلك الملك فدعا أهل العلم ليرقوه فرقوه فم يغنوا عنه شيئاً. ثم إنهم نظروا في النجوم واحتالوا له حتى تكلم الغلام فقال: لا أبرأ حتى يأتيني هذا السائح فيرقيني ويمسحين بيده. وقد أمر الملك بقتله ظلماً وعدواناً.

وقد كانت الحية ذهبت إلى أخت لها من الجن فأخبرتها بحالها وبما صنع إليها ذلك السائح من المعروف. فرقّت له الجنة وانطلقت إلى ابن الملك فتحيّلت حتى وصلت إليه فقالت له: إعلم أنك لا تبرأ حتى يرقيك هذا السائح المظلوم.

وانطلقت الحية إلى السائح فأخبرته بذلك وقالت: ألم أنهك عن الإنسان فلم تطعني. وأعطته شجرة تنفع من سمها وقالت له: إذا صرت إلى الملك فارق الغلام واسقه من ماء هذه الشجرة فإنه يبرأ، ثم أصدق الملك الحديث فإنك تنجو إن شاء الله.

وإن الملك لما دعا الرقاة ولم ينتفع بشيء قال له ابنه: "إن شفائي عند هذا الناسك الذي قد أخذته وأمرت بعذابه". فأمر الملك أن يكف عن عقوبته وأن يؤتى به. فلما أوتي به أمره أن يرقي ابنه فقال: لست أحسن الرقيّ ولكني أدعو له بدعوة أرجو أن يكون فيها شفاؤه. فقال: إنما دعوتك لتخبرني بحاجتك. فقصّ السائح على الملك أمره والذي كان من صنيعه إلى الصواغ والببر والحية والقرد والذي قلن له في أمره، والذي حمله على أن يأتي مينته ثم قال: "اللهم إن كنت تعلم أني صادق فيما ذكرت فعجل لابن الملك الخلاص مما هو فيه والشفاء والعافية". ثم سقاه من ماء الشجرة فبرئ الغلام مما كان به وكشف الله عنه. فأكرم الملك السائح ووصله وأحسن إليه وأمر بالصائغ أن يصلب فصلب.

ثم قال الفيلسوف للملك: ففي صنيع الصواغ بالسائح وكفره له بعد استنقاذه إياه وشكر البهائم له وتخليص بعضها إياه عبرة للمعتبرين وفكرة لمن فكروا في وضع المعروف والإحسان عند أهل الوفاء والكرم، قربوا أو بعدوا، لما في ذلك صواب الرأي وجلب الخير وصرف المكروه. فهذه عاقبة المعروف.

باب ابن الملك وابن الشريف وابن التاجر وابن الأكار

قال الملك: قد فهمت ما ذكرت مما يحق على الملك في التوخي لمعروفه ليضعه عند أهل الشكر قربوا أو بعدوا، فأخبرني ما بال الجاهل والسفيه يصيبان الرفعة والشرف والخير العظيم، والرجل الحكيم العليم يلحقه البلاء والجهد والغرم الثقيل.

قال الفيلسوف: كما أن الرجل لا يبصر إلا بعينيه ولا يسمع إلا بأذنيه فكذلك العلم إنما تمامه بالحلم والعقل والتثبيت. غير أن القضاء والقدر يغلبان على ذلك، كما نرى أحياناً البصير يعثر والضرير يسلم. ومثل ذلك مثل ابن الملك الذي ربي على باب مدينة يقال لها مطون جالساً، وثم كتب عليه بعد أن تم أمره "إن العقل والجمال والاجتهاد والقوة وما سوى ذلك فإنما ملاكه القضاء والقدر".

قال الملك: وكيف كان ذلك؟

قال الفيلسوف: زعموا أن أربعة نفر اصطحبوا، أحدهم ابن الملك والثاني ابن الشريف والثالث ابن تارجر والرابع ابن أكّار، وكانوا جميعاً محتاجين وقد أصابهم ضرّ وجهد لا يملكون شيئاً إلا ما عليهم من ثيابهم. فبينما هم يمشون إذ قال ابن الملك: إن أمر الدنيا كله بالقضاء والقدر وانتظارهما أفضل الأمور. قال ابن التاجر: بل العقل أفضل من كل شيء. قال ابن الشريف: الجمال خيرٌ مما ذكرتم. قال ابن الأكّار: الاجتهاد أفضل من ذلك كله.

ثم مضوا نحو مدينة يقال لها مطون. فلما انتهوا إليها أقاموا في ناحية منها وقالوا لابن الأكال: انطلق فاكتسب لنا باجتهادك طعاماً ليومنا هذا. فانطلق فسأل: أي عمله إذا عمله الرجل من غدوّه إلى الليل به ما يشبع أربعة نفع؟ فقيل له: ليس شيء بأعز من الحطب. وكان على رأس فراسخ منها فتوجه إليه فحمل حملاً من الحطب الجزل فباعه بنصف درهم ثم اشترى به ما يصلح أصحابه، وكتب على باب المدينة: "إجتهاد يوم واحد يبلغ ثمنه نصف درهم"، وأتاهم بما اشترى فأصابوا منه وأكلوا.

فلما أصبحوا قالوا لابن الشريف: انطلق بجمالك فاكتسب بعض ما يوقتنا. فانطلق وتفكّر في نفسه وقال: لست أحسن من الأعمال شيئاً، وأستحي أن أرجع إلى أصحابي بغير طعام، فهمّ أن يفارقهم فأسند ظهره إلى شجرة في المدينة من الهم. فمر عليه مصوّر فأعجبه جماله فأرسل إليه خادمه فأتى به وأدخله داره ثم أمر فنظّف وظل معه يومه ذلك وأخذ رسمه ليعرض صورته على أهل المدينة. فلما كان عند المساء أجازه بخمس مائة دينار، فتوجه إلى أصحابه وكتب على باب المدينة: "جمال يوم واحد ثمنه خمسة مائة دينار".

فلما أصبحوا قالوا لابن التاجر: انطلق أنت فاكتسب لنا بعقلك وتجارتك ليومنا هذا شيئاً. فذهب فلم يبرح إلا قليلاً حتى أبصر سفينة عظيمة في البحر قد أرست إلى الشط غير بعيدة من المدينة فخرج إليها أناس ليبتاعوا ما فيها فساوموا أصحابها فوجدوا ثمنها غالياً، ثم قال بعضهم لبعض: فلننصرف اليوم دون أن نبتاع منها شيئاً حتى تكسد البضاعة على أصحاب السفينة فيرخّصوا علينا. ففعلوا ذلك فخالف إليها ابن التاجر فاشترى منهم ما كان فيها بمائة ألف دينار. فلما بلغ التجار ما فعل أتوه فأربحوه مائة ألف دينار. فانتقدها وأحال بائعه عليهم ورجع إلى أصحابه. فلما مرّ بباب المدينة كتب عليه: "عقل يوم واحد ثمنه مائة ألف درهم". فتمتعوا بما أصابوا وأخصبوا.

فلما أصبحوا في اليوم الرابع قالوا لابن الملك: انطلق فاكتسب لنا شيئاً بالقضاء والقدر. فذهب حتى أتى باب المدينة فجلس على دكان من دكاكين باب المدينة فقضي أن ملكها هلك ولم يترك ولداً ولا أخاً ولا ذوي قرابة. فمروا عليهب جنازة الملك فبصروا به لا يتحرّك ولا يتحاشى ولا يحزن لموت الملك. فسأله البواب: من أنت؟ وما يقعدك على باب المدينة ولا يحزنك موت الملك؟ فلم يجبه فشتمه وطرده، فلما مضوا رجع إلى مكانه.

ثم انصرفوا من دفن الملك فبصر به البواب وقال له بغضب: ألم أنهك عن هذا المجلس؟ وتقدم إليه فأخذه وحبسه. فلما اجتمعوا في الغد ليملّكوا عليهم رجلاً يختارونه قام الذي كان ألقى الفتى بالحبس فحدثم بقصته فقال: إنت رأيت أمس غلاماص جالساً على الباب ولم أره يحزن لحزننا وتلوح عليه لوائح العزة والشرف، كلمته فلم يجبني فألقيته بالحبس وإني أتخوف أن يكون عيناً علينا فابعثوا إليه. فأتوا به فسألوه من هو وما أمره وما الذي أقدمه أرضهم. قال: "أنا صهر ملك قروناد. توفي والدي فغلبني أخي على الملك وأنا أكبر منه فهربت منه حذراً على نفسي حتى انتهيت إليك". فلما سمعوا ذلك منه لم يتحققوا صدق كلامه حتى عرفه بعض من كان منهم يغشى بلاد أبيه. فأثنوا عليه وملّكوه عليهم وقلّدوه أمرهمز وكانت سنتهم الطواف لمن ولّوه عليهم فحملوه على فيل وأجالوا به. فلما مرّ بباب المدينة بصر بما كتب عليه أصحابه فأمر أن يكتب: "الاجتهاد والعقل والعمل وما أصاب الانسان من خير أو شرّ يجري بقضاء الله وحكمه. إعتبر ذلك بما ساق إليّ من الخير والسعادة بفضله".

ثم إن الملك أتى مجلسه فقعد على سريره وأرسل إلى أصحابه فأتوه فموّلهم وأغناهم. ثم جمع عمّاله وأهل الفضل وذوي الرأي من أهل مملكته فقال: أما أصحابي فقد استيقنوا أن الذي رزقهم الله من الخير إنما كان بما أتوه بفضل عقلهم وجمالهم ونشاطهم. وأما أنا فإن الذي منحني الله وهيّأه لي لم يكن من الجمال ولا العقل ولا الاجتهاد وإنما كان بحكمه تعالى وقضائه. وما كنت أرجو إذ طردني أخي وجفاني أن أصيب هذه المنزلة ولا أكون بها لأني قد رأيت من أهل هذه الأرض من هو أفضل مني جمالاً وحسناً وعلمت أن فيها من هو أكمل مني رأياً وأشد مني اجتهاداً. فساقني الله وقضاؤه إلى أن اغتربت فملكت أمراً قد علمه الله وقدّره وقد كنت راضياً أن أعيش بحال خشونة وشظف معيشة.

فقام شيخ كان في أرضهم فقال: أيها الملك إنك قد تكلمت بحلم وعقل ورأي حسن ظناً بك ورجاؤنا فيك وعرفنا ما ذكرت وصدّقناك بما وصفت وعلمنا أنك قد كنت لما ساق الله إليك من ذاك أهلاً بفضل قسمته عندك وتتابع نعمته عليك. فإن أسعد الناس في الدنيا والآخرة أولاهما بالسرور فيها من رزقه الله ما رزقك وجعل عنده مثل الذي جعل عندك. وقد أرانا الله الذي نحب إذ ملّكك علينا وقلّدك أمرنا فنحمد الله على ما أكرمنا به من ذلك وامتنّ علينا فيه.

ثم قام شيخ آخر فحمد الله وأثنى عليه ومجّده وذكر آلاءه وقال: إيها الملك إني قد كنت وأنا غلام قبل أن أسيح في الأرض أخدم رجلاً من الناس. فلما بدا لي أن أرفض الدنيا فارقته. وقد كان أعطاني من أجرتي دينارين فأردت أن أتصدّق بأحدهما وأستنفق الآخر، فقلت: أليس أعظم لآخرتي أن أشتري نفساً بدينار فأعتقها لوجه الله. فأتيت السوق فوجدت مع صياد حمامتين فساومته فطلب بهما دينارين فجهدت على أن يعطيهما بدينار فأبى ذلك فقلت: لعلهما أن يكون زوجين أو أخوين فأخاف إن أعتقت أحدهما أن يموت الآخر. فابتعتهما منه بالثمن الذي سمّى. وأشفقت أن يطيرا مما لقيا من الجهد والهزال. فذهبت بهما إلى مكان كثير الرعي فسرّحتهما فطارا فوقعا على شجرة. ثم شكرا في وسمعت أحدهما يقول للآخر: لقد خلّصنا هذا السائح من البلاء الذي كنا فيه وإنا

لخليقان أن نجازيه بفعله. ثم قالا لي: لأنك قد أتيت إلينا بما نحن أهل أن نشكرك به ونعرفه لك فاعلم أن في أصل هذه الشجرة جرة مملوءة دنانير فخذها.

فأتيت الشجرة وأنا في شك مما قالا لي، فلم أحفر إلا قليلاً حتى انتهيت إليها فاستخرجتها ودعوت الله لهما بالعافية وقلت لهما: إذا كان عملكما هذا العلم بما تحت الأرض وأنتما تطيران بين السماء والأرض فكيف وقعتما في هذه الورطة التي أنجيتكما منها؟ قالا: أما تعلم أيها العاقل أن القدر إذا نزل أغشى البصر. والقدر يغلب كل شيء ولا يستطيع أحد أن يجاوزه.

ثم قال الفيلسوف للملك: ليعرف أهل النظر أن الأمور والعلم بها أن الأشياء كلها بقضاء وقدر لا يجلب منها أحد على نفسه محبوباً ولا يدفع عنها مكروهاً إلا بإذن الله يفعل فيها ما أراد ويقضي منها ما أحب. فلتسكن إلى ذلك الأنفس ولتطمئن إليه القلوب فإن في ذلك لمن ألهمه الله ووفق له سعة وراحة.
باب الأسوار واللبوءة والشعهر

قال الملك للفيلسوف: قد سمعت ما ذكرت من أمر القضاء والقدر وغلبتهما الأشياء، فأخبرني عن من يدع ضرّ غيره لما يصيبه من الضر ويكون له في ما ينزل به واعظ وزاجر عن ارتكاب الظلم والعدوان في غيره.

فقال الفيلسوف: إنه لا يقدر على طلب ما يضر بالناس ويسوؤهم إلا أهل الجهالة والسفه وسوء النظر في عواقب الأمور من الدنيا والآخرة وقلة العلم بما يدخل عليهم في ذلك من حلول النقمة ويلزمهم من تبعة ما اكتسبوا مما لا يحيط به القول. فإن سلم بعضهم من بعض لفتنة عرضبت قبل نزول وبال ما صنعوا، اغترّ بهم الآخرون بما ينقطع فيه الكلام والوصف من الشدة وعظم الهول. وربما اتعظ الجاهل واعتبر بما يصيبه من المكروه من غيره فارتدع عن أن يغشى أحداً بمثل ذلك الظلم والعدوان وحصل له نفع بأن كفّ عنه في العاقبة. ونظير ذلك الحديث حديث الأسوار واللبؤة والشعهر.

قال الملك: وكيف كان ذلك؟

قال بيدبا الفيلسوف: زعموا أن لبؤة كانت في غيضة ولها شبلان وأنها خرجت تطلب الصيد وخلّفتهما فمرّ بهما أسوار فحمل عليهما فقتلهما وسلخ جلدهما فاحتقبهما وانصرف بهما إلى منزله. فلما رجعت اللبؤة فرأت ماحل بهما من الأمر الفظيع الهائل الموجع للقلوب سخنت عينها واشتد غيظها وطال همها واضطربت ظهراً لبطن وصاحت. وكان إلى جانبها شعهر جار لها. فلما سمع صيحتها وجزعها قال: ما هذا الذي نزل بك وحل بعقوبتك؟ هلمي فأخبريني لأشركك فيه أو أسليه عنك.

فقال اللبؤة: شبلاي مرّ عليهما أسوار فقتلهما وأخذ جلدهما فاحتقبهما وألقاهما بالعراء.

قال الشعهر: لا تجزعي ولا تصرخي وأنصفي من نفسك واعلمي أن هذه الأسوار لم يأت إليك شيئاً إلى وقد فعلت بغيرك مثله ولم تجدي من الغيظ والحزن على شبليك شيئاً إلا وقد وجده غيرك بأحبابه لما تفعلين فوجدت اليوم مثله وأفضل منه. فاصبري من غيرك على ما صبر منك عليه غيرك. فإنه قد قيل: كما تدين تدان، وإن ثمرة العقل العقاب والثواب وهما على قدره في الكثرة والقلة كالنزاع الذي إذا حضر الحصاد أعطى كلا على حساب بذره.

قالت اللبؤة: صف لي ما تقول واشرحه لي.

قال الشعهر: كم أتى لك من العمر؟

قالت اللبؤة: مائة سنة.

فقال الشعهر: ما كان الذي يعيشك ويقوتك؟

قالت اللبؤة: لحوم الوحش.

قال الشعهر: أما كان لتلك الوحوش آباء وأمهات؟

قالت اللبؤة: بلى.

فقال الشعهر: ما لنا لا نسمع لأولئك الآباء والأمهات من الضجة والوجع والصراخ ما نرى منك. أما أنه لم يصبك ذلك إلا لسوء نظرك في العواقب وقلة تفكرك فيها وجهالتك بما يرجع عليك من ضرها.

فلما سمعت اللبؤة عرفت أنها هي التي جنت ذلك على نفسها وجرّته إليها، وأنها هي الضالة الجائرة، وأنه من عمل بغير العدل والحق انتقم منه وأديل عليه. فتركت الصيد وانصرفت عن أكل اللحم إلى الثمار وأخذت في النسك والعبادة.

ثم إن الشعهر وكان عيشته من الثمار رأى كثر أكلها منها فقال لها: لقد ظننت إن رأيت قلة الثمار أن الشجر لم يحل هذا العالم لقلة الماء، فلما رأيت أكلك إيها وأنت صاحبة لحم ورفضك رزقك وما قسم الله لك وتحولك إلى رزق غيرك فانتقصته ودخلت عليه فيه فعلمت أن الشجرة قد أثمر كما كان يثمر فيما خلا، وإنما أنت قلة الثمر في ذلك من قبلك. فويل للشجر والثمار ولمن كان عيشه منها ما أسرع هلاكهم ودمارهم إذ قد نازعهم في ذلك من لا حق له فيها ولا نصيب، وغلبهم عليها من كان معتاداً لأكل اللحوم. فانصرفت اللبؤة عن أكل الثمار وأقبلت على أكل الحشيش والعبادة.

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أن الجاهل ربما انصرف لمكروه حل به عن ضرّ الناس كاللبؤة التي تركت بما لقيت في شبليها عن أكل لحوم الوحوش ثم عدلت لقول الشعهر عن أكل الثمار فأكلت الحشيش وأقبلت على النسك والعبادة.

ثم قال الفيلسوف للملك: فالناس أحق بحسن النظر في ذلك والأخذ بالذي لهم الحظ فيه. فإن في ذلك العدل وفي العدل رضا الله والناس.

باب الناسك والضيف

قال الملك للفيلسوف: قد سمعت ما ذكرت من امرئ كف عن ضر غيره لضر يصيبه أو بلية تدخل عليه، فأخبرني إن رأيت عن من يدع عمله الذي يليق به ويشاكله ويطلب سواه فلا يدركه فراجع الذي كان في يده فلا يقدر عليه فيبقى حيران متردداً.

قال الفيلسوف: زعموا أنه كان في أرض الكرخ ناسك مجتهد فنزل به ضيف ذات يوم فدعا بتمر ليطرفه به فأكلا منه جميعاً. ثم إن الضيف قال: ما أحلى هذا الثمر وأطيبه وليس في بلادي التي أسكنها نخل وبودي أن آخذ منه فأغرسه في أرضنا. قال الناسك: ليس لك في ذلك كبير منفعة، ولعل النخل لا يوافق أرضكم. وبلادكم كثيرة الأثمار مع وخامة التمر وقلة موافقته للجسد. ثم قال له الناسك: إنه لا يعد سعيداً من احتاج إلى ما لا يجد وليس بمعذور عليه فتشره لذلك نفسه ويقل عنه صبره ويصل إليه من ثقل ذلك واغتنامه ما يضرّه ويدله على المشقة عليه. وإنك أنت لعظيم الجد وجزيل الحظ لو قنعت بما رزقت وزهدت فيما لا تظفر به ولا تدرك طلبتك منه. فقال الضيف: وفقت ورشدت وقد سمعت منك كلاماً غريباً أعجبني واستحسنته. فلو علمتنيه فإن لي فيه رغبة وفي علمه حرصاً. فقال الناسك: ما أخلقك أن تقع بما تركت من كلامك وتكلفت من كلام العربانية في مثل ما أصاب الغراب.

قال الضيف: وكيف كان ذلك؟

قال الناسك: زعموا أن غراباً رأى مرة حجلة تمشي فأعجبته مشيتها وطمع في تعلّمها وراض نفسه عليها فلم يقدر على إحكامها. فانصرف إلى مشيته التي كان عليها فإذا هو قد نسيها فصار حيران مترددا لم يردك ما طلب ولم يحسن لما كان في يديه فصار أقبح الطير مشياً.

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أنك خليق إذ تركت لسانك الذي طبعت عليه وتكلفت عليه وتكلفت علم ما لا يشاكلك من كلام العبرانية ألا تدركه وتنسى الذي كان في يديك من غيره. فإنه قد قيل: "يعد جاهلاً من حاول من الأمور ما لا يشبهه وليس من أهله ولم يدركه آباؤه ولا أجداده من قبله ولم يعرفوا به قبلاً".

قال الفيلسوف للملك: إن الولاة في قلة تعاهدهم الرعية في هذا وأشباهه اليوم أسوأ تدبيراً لانتقال الناس من بعض المنازل إلى بعض وتركهم منها ما قد لزموه وجرت لهم المعايش فيه من قبل الملوك، والتماس أهل الطبقة السفلى مراتب الطبقة العليا وانتشار الأمور وفساد الأدب ومنازعة اللئيم للكريم. ثم الأشياء تجري على مثال ذلك حتى تنتهي إلى الخطر العظيم الجسيم من مزاحمة الملك في ملكه ومضادّته فيه.

باب الحمامة والثعلب ومالك الحزين

قال الملك للفيلسوف: قد سمعت هذا المثل فاضرب لي مثلاً في شأن الرجل الذي يرى الرأي لغيره ولا يراه لنفسه.

قال الفيلسوف: إن مثل ذلك مثل الحمامة والثعلب ومالك الحزين.

قال الملك: وما مثلهم؟

قال الفيلسوف: زعموا أن حمامة كانت تفرّخ في رأس نخلة طويلة ذاهبة في السماء. فكانت الحمامة إذا شرعت في نقل العيش إلى رأس تلك النخلة لا يمكنها ذلك إلا بعد شدة وتعب ومشقة لطول النخلة وسحقها. فإذا فرغت من النقل باضت ثم حضنت بيضها. فإذا فسقت وأدرك فراخها جاءها ثعلب قد تعاهد ذلك منها لوقت علمه يقدر ما ينهض فراخها فيقف بأصل النخلة فيصيح بها ويتوعدها أن يرقى إليها فتلقي إليه فراخها.

فبينما هي ذات يوم وقد أدرك لها فرخان إذ أقبل مالك الحزين فوقع على النخلة. فلما رأى الحمامة كئيبة حزينة شديدة الهم قال لها: يا حمامة ما لي أراك كاسفة البال سيئة الحال؟ فقالت له: يا مالك الحزين، إن ثعلباً دهيت به كلما كان لي فرخان جاءني يهددني ويصيح في أصل النخلة فأفرق منه فأطرح إليه فرخيّ. قال اله مالك الحزين: إذا أتاك ليفعل ما تقولين فقولي له: لا ألقي إليك فرخيّ فارْق إليّ وغرر بنفسك. فإذا فعلت ذلك وأكلت فرخي طرت عنك ونجوت بنفسي.

فلما علّمها مالك الحزين هذه الحيلة طار فوقع على شاطئ نهر. فأقبل الثعلب في الوقت الذي عرف فوقف تحتها ثم صاح كما كان يفعل. فأجابته الحمامة بما علمها مالك الحزين. فقال لها الثعلب: أخبريني من علمك هذا؟ قالت: علمني مالك الحزين.

فتوجه الثعلب حتى أتى مالكاً الحزين على شاطئ النهر فوجده واقفاً، فقال له الثعلب: يا مالك الحزين إذا أتتك الريح عن يمينك أين تجعل رأسك؟ قال: أجعله عن شمالي. قال: فإذا أتتك عن شمالك أين تجعل رأسك؟ قال: أجعله عن يميني أو خلفي. قال: فإذا أتتك من كل مكان ومن كل ناحية أين تجعله؟ قال: أجعله من تحت جناحي. قال: وكيف تستطيع أن تجعله تحت جناحك؟ ما أراه يتهيّأ لك. قال: بلى. قال: فأرني كيف تصنع. فلعمري يا معشر الطير لقد فضلكم الله علينا. إنكن تدرين في ساعة واحدة مثل ما ندري في سنة وتبلغن ما لا نبلغ وتدخلن رؤوسكن تحت أجنتكن من البرد والريح فهنيئاً لكنّ. فأرني كيف تصنع. فأدخل الطائر رأسه تحت جناحه فوثب عليه الثعلب فأهذه فهمزه همزة دق بها صلبه ثم قال له: يا عدوّ نفسه ترى الرأي للحمامة وتعلمها الحيلة لنفسها وتعجز عن ذلك لنفسك حتى يتمكن منك عدوك، ثم قتله وأكله.

خـاتـمـة الكـتـاب

فلما انتهى الملك والفيلسوف إلى باب الحمامة والثعلب ومالك الحزين سكت الملك وقال الفيلسوف: عشت أيها الملك ألف سنة وملكت الأقاليم السبعة وأعيطت من كل شيء سبباً وبلغة منك في السرور برعيّتك ومنهم قرة عين بك ومساعة من القضاء والقدر، فإنك قد كمل فيك الحلم وذكا منك العقل والحفظ وتم فيك البأس والجود، واتفق منك العقل والقول والنية، ولا يوجد في رأيك نقص ولا في قولك سقط ولا في فعلك عيب، وجمعت النجدة واللين فلا توجد جباناً عند اللقاء ولا ضيّق الصدر بما يوثق بك من الأشياء. وقد شرحت لك الأمور ولخصت لك جواب ما سألتني عنه منها. واجتهدت لك في رأيي ونظري ومبلغ فطنتي التماس قضاء حاجتك. فاقض حقي بحسن النية بإعمال فكرك وكرم طبيعتك وعقلك فيما وصفت لك. إنه ليس الآمر بالخير بأسعد به من المطيع له فيه. ولا الناصح باولى بالنصيحة من المنصوح له بها. ولا المتعلم بأبعد من العلم ممن يعلمه. ومن تدبر هذا الكتاب بعقله وأعمل فيه رأيه بأصالة من فكرته كان قمناً للمراتب العظام والأمور الجسام مع مساعدة القدر ووقته إذا حضر فلا يسأم أمراً ويكف عن النظر فيه والتدبر له.

والله يوفقك أيها الملك ويسددك ويصلح منك ما كان فاسداً ويسكن من غرب حدتك ما كان حاداً، وتسليم الرحمة على أرواحك وأرواح آبائك الطاهرين الماضين معشر أهل بيت العقل والأدب والفضل والجود والكرم.